أعلام العرب
١٨

الأصمعي

للدكتور

أحمد كمال زكي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١

هذه كلمة لابد منها ..

لأن ما بين أيدينا ترجمة هى الى التاريخ الفنى أقرب مما هى الى التاريخ العلمى ، وهى قصة حياة لا تجمع الأخبار لتنقدها وانما تجمعها لتنسقها .. وقد يقتحمها الخيـال ، ولكن بشرط ألا يفسد منطق الواقع الذى عاشت فيه !

هذه لابد منها حتى لا يقال : ما هكذا تكتب السير .

فبعض هذا الفن قد يكون مجرد صورة ، وبعضه قد يكون بحثا أكاديميا ، وبعضه يجمع بين أبعاد القصة واطار التاريخ .

وكل هذا اذا كان يقوم على أساس من واقع حياة صاحب السيرة فانه ينقصه دائما مفهوم السيرة على النحو الذى اصطلح عليه المحدثون ، وذلك المفهوم يحدّده تماما أسلوب أندريه موروا فى ترجمته لشلى أو ترجمته لديكنز .

واذا كنت أرى أن أعمال موروا ليست خير النماذج لكتابة

السيرة فى أدبنا الحديث فانها من غير شك تعبّد السبيل الى كتابتها بما تصطنعه من بساطة وتمسّك بالواقعية .. فالعلَم وآراؤه ومؤلفاته وعصره لا يمكن أن تنفصل ، ولا يمكن الا أن تشكل وحدة ، هى حياته بكل ما فيها من أحلام وأمنيات وتفكير وعمل ونجاح .

فلولا نجاحه ما ذكر .

واذن فالسيرة ترجمة فنية لتاريخ رجل نجح ، وقد رأيت أن صاحب السيرة التى بين أيدينا أضاف الى تراثنا غناء أىّ غناء ، فكان واحدا من الناجحين . وكان علىّ أن أعرض شهادة نجاحه هذا العرض الأدبىّ لتاريخه ، دون أن أستبيح لنفسى أن أتحيّز له أو ضده .. فهو أكبر من أن يتعرض لآفة التحيّز على الاطلاق .

ومع ذلك فقد يجب أن أقرر أنى استصفيت ما فى تاريخ الرجل — وهو الأصمعىّ — من أحداث يأخذ بعضها برقاب بعض ، ونفيت ما ينفيه الزمن الذى اضطرب فيه ، وأهملت ما يتعارض مع واقعه وهو كثير ، ثم وصلت هذا بذاك حريصا على أن أجعل ما أراه يراه غيرى ، فالخير كل الخير أن تجتمع الكلمة على الغاية .

وحرصت على أن أبيّن مصادر رواياتى ، لا فى حواش تمليها المناسبة فترصد فى صفحة صفحة ، وانما فى ثبت مفصّل آخّرته ، حتى لا تقطع المراجعة اطّراد السيرة فى شكلها القصصى .

وليس أحبّ الىّ من أن أكون بذلك قد قدّمت ترجمة فنية فى أدبنا الحديث لأحد أعلامنا العرب الكبار .

٢

ذاك ما أردت مستهلا ، وفى خلدى أنّ المحاولات التى بذلت للكشف عن شخصية الأصمعى لم تضعه موضعه الصحيح . وباستثناء كتاب الدكتور عبد الجبار الجومرد « الأصمعى » ، يظل الرجل فى مؤلفات الآخرين شخصية باهتة تضل طريقها فى شوارد اللغة ، ومتاهات الأخبار .

ولم يكن ثمة رقيب على صورته الا قداسة القدم ، وغامت رؤاه بَعْدُ حتى أصبح فى بعض الأحيان مسخا أو صاحب فكاهة أو مهرجا يروى النوادر .

ويا كثر هؤلاء الذين حملوا عليه مالم يقله !

وأما نحن فقد رصدنا له منذ ولد فى العام الثالث والعشرين بعد المائة ، والدولة لبنى أمية ، والخليفة هشام بن عبد الملك ، وخلع عشر سنوات كاملة قبل أن يصير الأمر للعباسيين .

ومعنى هذا أنه عاش الفترة الحرجة التى زلزلت فيها الأمة زلزالها ، واضطرب فيما اضطربت فيه انقلابات وفتن ، ثم اشترك فى معركة حدّد موقفه فيها على أساس من عقيدة ترتبط بالاسلام ومن تعصّب يتمدّح كلّ العرب .

كان خصما للشعوبية فنصب نفسه حربا لها ، ولما اتصل بهارون الرشيد جعل هدفه أن يذود عن قوميته بكلّ سلاح .. بالشعر أحيانا ، وبالرواية التاريخية أحيانا ، وبمقاومة البدع والزندقة والآراء المتطرفة فى كثير من الأحيان .

ثم يدعوه المأمون فيأبى ، لأنه يراه صَبَّاً ؛ فهو معتزلى ، يقول بخلق القرآن ، وهو عَلَوِىٌّ أيضا ، ويجمع فى بلاطه بعضَ المارقين من مجوس الفرس .

الأصمعى يرفض سياسة العباسيين ويجاهر بأموية أوقعته فى كثير من العثرات .

والأصمعى يرفض كل ما عدا ما يذهب اليه أهل السنة .

والأصمعى بعد هذا سَمْحٌ ، صدوق ، يرفض أن يتورّط فيما يجعله يكبو على الوجه !

٣

وما دام الأمر دعوة منه الى تمسّك بالقومية العربية ، فهو من هنا رائد من رواد هذه القومية . ولم يكن تفكيره فيها من قبيل هذا التفكير الهازل المضطرب ، وانما كان نابعا من فهم أصيل لواقعه التاريخى .

ولقد ازداد ايمانه بالفاعلية الايجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الأواصر بين تاريخ الاسلام وتاريخ الذين بشّروا بالاسلام ، ومن ثم قرر أن القيادة لا يصلح لها الا كلّ عربى حسن العقيدة !

وكان محقا . فقد كان الشعوبيون قد أجمعوا على أن يفسدوا التاريخ كلّه ليفسد الواقع ويتمّ لهم الغلب .

واثارة الشك هو نقطة الانطلاق .

ويشمل الشك كل شىء بادئا بالشعر الذى أحبّه الأصمعى

كلّ الحبّ ، وكأن الشعوبية استهدفت مجتمعا يكون بلا شعر ، حتى قال أبو دلامة للمهدى على ما جاء فى عيون الأخبار :

ان كنت تبغى العيش حلوا صافيا
فالشعر أعذبه وكن نخّاسا

وثمة أداة أخرى استغلتها الشعوبية ، وهى ضرورة التعصّب للنسب غير العربى وبعث أمجاد الفرس فيقول بشار بن برد « فروعى وأصلى قريش العجم » فاذا سأله المهدى « فمن أىّ العجم أصلك ؟ » أجاب « أهل طخارستان » .

ويؤلف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب « أخبار الفرس » وكتاب « فضائل الفرس » .

ثم توضع الأحاديث التى تمجّد الأعاجم .

وأما الدين الذى سعى به العرب يضمون اليه الشعوب ، فلابد أن يقهر ببعث العقائد المجوسية فيقول بشار :

الأرض مظلمة والنار مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النار .

ويقول أحد شعراء الفرس :

أبونا ويزك وبه أُسامى اذا افتخر المفاخر بالولاده
أبونا ويزك عبدٌ رسول له شرف الرسالة والزهاده
فمن مثلى اذا افتخرت قروم وبيتى مثل واسطة القلاده

ويقول غيره أكثر من هذا ، فاذا الرقاشى كبشار زنديق ، واذا أبان اللاحقى كصالح بن عبد القدوس وابن المقفع ملحد ، وأبو نواس يعبث كما يريد الفرس أن يعبث ، ويؤلف أبو عبيدة

المجاز فى القرآن فيرفضه الأصمعى باعتباره صادرا عن هوى ، لأن أبا عبيدة كان فاسد العقيدة !

وتبقى اللغة . وقد لحظ الأصمعى أن الشعوبية تحطّم القيود التى يفرضها واحد كالخليل بن أحمد .

اجترأ شعراء هـذا العصر على شعر الخاصة فأقحموا فيه أساليبهم ومفرداتهم ويطلبون مع ذلك أن يذكروا فى كتب اللغة ، واذا كلّ شىء ينهار واذا الرجز — وهو الفن البدوى الصميم — يلين كما لان غيره لضربات الفرس المتلاحقة .

كان الأدباء الأولون يخطئون أو قد يقعون فى الخطأ ، الا أنهم لم يكونوا يتعمدون ذلك . كانوا يصدرون بحس عربى خالص ، وأما اليوم فهم يتظرفون باصطناع الخطأ وباقحام ألفاظ العجم اقحاما .

وهـكذا ...

فلم ير الأصمعى بـُدًّا من أن يربط حياته بالدفاع عن العروبة فى تلك الأشكال ، ويتمثل هذا الدفاع فى الوقوف ضد الشعوبية بعناد واصرار . فظفر بهم فى كل مكان وبذل من نفسه الكثير ، غير أنه ظل حريصا على قوميته يأخذ بموازينها لا يحور عنها فأنـّقص وشـوّهت صورتـه ، ولم ينج من قدح القادحين حتى وهو يُشيـّع الى مثواه الأخير !

٤

ذلك ونحوه فى هذه السيرة ..

فاذا كان ثمة من يرى فى المحاولة قصورا ، فلأن الحياة نفسها قاصرة ، وحاولتُ أنا أن أقدّم الحياة !

واذا كان ثمة من يرى أنها حققت ما هيئت من أجله ، فلأن النجاح معقود بناصية كلّ جاد ، وحاولت أنا أن أكون جادا مجدا !

ثم اذا كان ثمة من يرى أنى أعطيت نفسى الحق فى بعث أحد رواد قوميتنا — على النحو الذى أردت — فلأنى أومن بأننا أحوج ما نكون الى مثل هذا الصنيع . فلقد تبيّن قادة الجيل اليوم أنّ هناك ضرورة لبعث الأمجاد فى اطارها القومى الجذاب !

ومع ذلك فلا أزال أرجو أن يَبعث الأصمعى غيرى ، فان فيه صفحات أومن بأن نشرها على نحو غير هذا النحو يحيد بنا عن عطب قريب أو ينكبنا مفسدة وشيكة .

الباب الأول

فى البصرة

١

البادية

— أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلى ؟

— نعم بشرط ألا يعرف أهل الجنة ذلك !

وكان السؤال موجها من أحد العابثين الى أعرابى ترسم الرواية صورته كارها باهلة ، وتدل اجابته على أن الأساس الذى أقيم عليه وجود القبيلة كانت تزلزله وضاعة" أو تحط منه مهانة . والأمر بعد ذلك عجيب حقا ؛ فباهلة التى يملأ أبناؤها البصرة فخارا ذات فترة من فترات التاريخ ، تدور فى الأثبات مهينة ذليلة حتى ليقال فيها :

ولــو قيــل للكلب يا باهــلى
عوى الكلبُ من لؤم ذاك النسب .

ويقــال :

لا تنفع الأنساب من هاشم
ان كانت الأنفس من باهله

ويقال أكثر من هذا وذاك ، فكأنما لقنه الآخذون بأسباب المعرفة ، فهيئوا المنافذ الى تحقيرها ، بحيث لم يعد شىء — فعلا كان أو قولا — الا اتخذ سبيلا الى النيل منها .

أكانت هى على هذا النحو المهين حقا أم تلك تقوّلات جرت مع الأيام ، والأحداث شتات ؟

لا ندرى تماما . فالتاريخ وان صدر للحق لا يمنحنا هذا الحق كلّه ، ونظل بعد أن نظن أنّا نقضى منه لبانات أىّ لبانات على الجهل بما أخذنا أنفسنا باستجلائه ، ثم تبدو باهلة يتردد اسمها مع الباهلى سلم بن قتيبة والصحابى أبى أمامة والعـالم الفذّ أبى سعيد الأصمعى .

هذا مع الغاية المرساة ، أما مع التنقيب وراء التفصيل فلابد من أن نعرج عليها وهى فى البدء تستوى على قدميها وتخطر فى البادية خطرات الصغار ، ثم تقوى على أن تقدّر وتدبّر وتؤلّف بين طارفها وتالدها ، وتستمد حولها من كل أسباب البقاء .

باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة من مَذحِج !

هكذا هى كما يقرر ابن حزم الأندلسى فى جمهرة أنسابه ، وهذا ما يجب أن نعرفه بعد مقارنته بما قال سائر النسابين .. فنحن لا نزال نأخذ الأمور بمستورها ، ومن ثم ليس أمامنا مفرّ من أن نصف — ولو فى اجمال — كيف انحدر منها رجلتنا ، ذلك أن المزاج الاجتماعى مرهون بالعرق رهنه بالبيئة والزمن . وعندما نؤكد أن باهلة همدانية من كهلان يجب ألا ندهش أن يرتبط بها عرب شماليون ، لأن النسبة اليها كانت نسبة شهرة لا نسبة دم .

واذا كنا لا نرى بعد هذا أن شيئا لم يستقم ، زاوجنا بين فرائد الأخبار فقلنا كما يقول القاصون :

كانت باهلة زوجا لمالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان ،

وكان لمالك ابن من زوج أخرى يسمى معنا ، فلما مات خلفه على باهلة وأولدها أولادا كما أولد غيرها ، ولكنها حضنت الجميع فنسبوا اليها ، ويااكثر هؤلاء !

ان المؤرخين يطمئنون الى هذه التفصيلات ولكن الناس — بعد أن تعقدت حياتهم — غيرهم ، فهم لا يلتفتون الا الى ذلك الشاب الذى يبنى بزوج أبيه وينسون مثلا أن ذلك الزواج كان مما يألفه القوم فى الجاهلية ، بل ينسون أن كل من يعرف بباهلة ليس ينبغى أن يكون من رحمها .. فلمعن زوجات أُخَر ، وله أولاد أشهرهم فرّاص وزيد ووائل والحارث وحرب وقعنب وقتيبة ، ومن قتيبة وكانت أمه بنت عمر بن تميم جاء الأصمعى ، ولهذا يقول :

— لست من باهلة لأن قتيبة بن معن لم تلده باهلة قط !

ويقول حين سئل ممن هو :

— أحد بنى سعد بن قيس ثم أحد بنى أعصر بن سعد !

على هذا تجرى الأمور ، وتلك كانت حقائقها . وما رأينا ما يغيّرها رغم تشابك التاريخ بالأساطير واصطراع الحقيقة بالخيال ، وهو ان يكن مجديا فأكثر جدوى منه أن تتتبع القبيلة فى أرضها .. تلك التى تفرض عليها لونا من المعاش لا سبيل الى ردّه ولا مفرّ من التسليم بآثاره ، وكل همّنا ألا تنقطع أسبابنا بتشعيب يدفعنا الى خبط العشواء .

أما هذه الأرض ففى جنوبى اليمامة ، وقيل وسطها — فلابد من الخلف — واذ يشرع فى بناء البصرة تنزح هى اليها مع من

ينزح ، وتحتل بئر الحفير على أربعة أميال من جنوب غربي البصرة ، ثم تدخل بعدُ في أهل العالية الذين سكنوا تحت نهر الأبلة وامتدوا جنوبها نحو الصحراء .

ومن المحقق أن الانتقال لابد يهيىء لها ضربا من الحياة مهما يقل فيه الدارسون فانه كان أكثر خفضا وأعمق اتصالا بأسباب التمدن . الا أن ما كان للعرب من هوى للبادية قد استطاع أن يربطها بالرعي وتربية النعم ، ومن ثم راحت تحيا بين بين ؛ فلا هي متبدية ، ولا هي متقبلة كل ما تقدمه الحياة الجديدة ، وكانت البصرة اذ ذاك تتعرض لما يضائل من حفاظها على التليد .

* * *

ولكن هذا حديث العشيرة ، فما حديث الأصمعي ؟

لنبدأ بأبيه عاصم — وكان يلقب بقريب — وأبوه على ابن أصمع بن مظهّر بن رباح بن عمرو بن عبد الله الباهلي ، وقد أدرك كلٌّ من مظهر وأصمع محمدا رسول الله وأسلما جميعا ، وقرر السيرافي أن أبا محمد اليزيدي لم يرتح لهذا وهجا الأصمعي بنسبه قائلا :

أبِنْ لي دعيٌّ بني أصمع أقفرٌ رباعك أم آهله
وما أنت هل أنت الا امرؤ اذا صح أصلك من باهله

ولسنا الآن بسبيل ماثار حوله ، فان من المؤكد أن اليزيديّ كان واحدا من الذين ينفسون عليه ، وللاخباريين قصص في تعرّض الخصوم له حتى وهو صغير ، وكان هو كلما ضاقت حوله الدائرة

وجد مخرجا يدله عليه ذكاؤه ، حتى لقد رأى بعض ذوى الرأى أنه احدى العجائب المعدودة .

ولقد عهد أبوه قريب الى أمه بتربيته الأولى ، لأنه كان يأتى البصرة مع أخيه شرّان — وهو من أهل العلم — فيصحبهما سلم بن قتيبة فى أسفاره ومعاركه ، ويعطيهما المال أو العير حتى يوفرا لأهلهما حياة آمنة فى بئر الحفير .

وليس ينبغى أن ننسى أن قعود الأمير للعلماء كان يفتح لقريب آفاقا من العلم مختلفة ؛ فتمرّس كأخيه على العربية وأخذ بالرواية والقصة ، فكان فى الأوقات التى يفرغ فيها لابنه عبد الملك — وهذا اسم الأصمعى — يحكى له ما يثير خياله ويدهشه . وللرجل ولد آخر يكبر عبد الملك اسمه عبد الله ، يمدّ يد العون لأمه ويهيىء نفسه للعمل وسط قامات النخيل وهو يرعى الماشية ويشرف على حظائر النعم التى وكل لها الأجيد مولى الأسرة .

والبيت الذى ولد فيه عبد الملك سنة ١٢٣ كان متوسط الحجم ولا يختلف عن بيوت حى « بنى أصمع » فى شكله المربع وفى احتوائه على بئر تتوسط فناءه ، وأمامه الطريق مستطيلة تذوب معالمها فى هضاب صفر خفيضة ، وقد تتسع أحيانا فتكون ساحات يلعب فيها صغار الحىّ ويشاركهم عبد الملك بمشاهدة الحجيج ومشاكسة المارّة .

ودأب الكبار من باهلة على أن يروا ذلك كلّه فلا ينكرونه ، فالشطر الأول من حياة المرء للّهو البرىء . الا أن عبد الملك يلفت اليه النظر بتوقدّه ، ويبرز من بين الصغار قادرا على أن يعيد

حكايات أبيه وما ترويه له أمه ، بعبارة حلوة ولسـان طلق ، وان يكن وجهه لا ينطق بحسن وملاحة !

واذ كان هدف الباهليين التنويه باسمهم فى مجالات الرفعة لتمحى عنهم سبّة كئود ، فقد نظمت حياتهم على قواعد من الاشادة بعظمائهم .. يكاد يكون لهم فى كل جيل كبير ، وبين باهلة خاصة والمهالبة ثمة حرب مشتعلة لا تخمد أبدا . فلابد من أن يكون هناك القائد الذى يحمل رايتهم فى كل وقت ، ومن ثم هم يستبشرون خيرا حينما يرون فيهم واحدا كعبد الملك . وبعد أن يقضى الطفل سنوات فى التسمع الى بطولاتهم وثاراتهم ، يلحق وهو فى السادسة بواحد من الكتاتيب ويحفظ القرآن ، ويتعلم الكتابة .

وكانت العادات البادية تتوزّع علاقات الصبية ، فكانوا عندما يخلصون من سطوة العريف يتغالبون بنوى الثمر ، ويتهاترون بألفاظ السوقة ، وينشدون الرجز الخفيف ، ويطلقون أهازيج الفراغ . فاذا تصارعوا ، كان ذلك حلقة من سلسلة المران الذى تأخذهم به الطبيعة !

وما وطئت قدما عبد الملك أرض الكتاب حتى ظهر عـلى أقرانه فى الكتابة والقراءة ، فلم يمض عام واحد حتى راح يشغل نفسه بما كان يتناقله القوم فى حىّ بنى أصمع من أبناء البصرة . وقد أحس بغريزة يقظة أن خطرا يهدد الدولة والخليفة عاجز عن مقاومة ما يحدث ولا سيما فى مرو ، ثم سمع من أبيه فى احدى الأمسيات أن مولى خراسانيا اسمه أبو مسلم اقتحم دار الامارة فهرب الأمير الأموى نصر بن سيّار . ثم هزته أخبار عن شخص

اسمه ابراهيم بن محمد نصب نفسه اماما محتضنا أبا مسلم الخراسانى وأرسل له بقائد يقال له قحطبة .

هنا وجد الصبى نفسه موزعا بين درسه وبين هذه الأنباء ، وتصور كل ما يحدث فى صورة بشعة ؛ فما طلعت شمس الا على معركة ، ولا غربت الا مع أهبة لأخرى . وبين يدى خليفة دمشق تموت آماله الصغيرة ، ألم ينتصر قحطبة على يزيد بن هبيرة أمير العراق كله ؟ وما يلبث أن يفجع بقيام خليفة آخر بالكوفة يخرج الى خليفة دمشق ويكسر جيوشه بالزاب ، وينتهى كل شىء عام ١٣٢ .

* * *

وفى أحد الأيام يسمع كما يسمع غيره أن الخليفة الجديدأرسل رجلا من المهالبة يريد البصرة من أميرها الباهلى ، فتتضح معالم الطريق لا يتنكبها أحد ، ويحال بين المرء وبين التماس ما تعود أن يلتمسه . ويحس عبد الملك — وهو الناشىء ذكى القلب — أن قوى تريد أن تحرم أهله حقهم فى الحياة فيثور ويثير أقرانه ، ويتمنى الصغار أمنيات الكبار أنفسهم ، ويتذاكرون قصة قديمة عن المهلب الأزدى الذى قتل قتيبة أبا أمير البصرة الحالى وذلك أيام سليمان بن عبد الملك الأموى !

أفتستطيع نفوس باهلة التى قبست من نار الثأر المستعرة أن تدع الحكم للسيف ؟

لسلم بن قتيبة وحده حق الجواب ، فلما هب للحرب يذكى أوارها سعد الباهليون سعادة أجيال أقذتهم الضغينة ، ثم راحوا

ينفخون فى الكير يرجون الغلبة فتمّ كل شىء على ما يرجون .

وسمع عبد الملك وهو فى الحفير أن الأمر سار على هذا النحو .. انقسم البصريون على أنفسهم بانضمام ربيعة للأزد على سلم ، وتمكن هذا من ضربهم جميعا ، ثم ذهب الى أبعد من ذلك فاستباح حىّ الأزد كله ونكّل ببيوت المهلبيين منتقما لأبيه شرّ انتقام ، فكانت فرحة لم ينل منها اضطراره الى أن يعهد بالبلد للعباسيين من غير حرب !

ولكن المشاحنات لم تلبث أن فزّعت القلوب ، اذ لم يكد سليمان بن على أمير البصرة الجديدة — وهو عمّ الخليفة السفاح — يستقر حتى أعمل السيف فى رقاب الأمويين ، وذبح المئات منهم ، وأمر فألقيت جثثهم على قارعة الطريق .

وأسرع عبد الملك فى نفر من أصحابه وصعدوا للشمال يشهدون آيات المذبحة ، غير أنهم لم يكادوا يقطعون بعض الطريق حتى فوجئوا بالموت الأحمر قبالتهم .. فقد شاهدوا أول جثة لم تزل تفرز عصارتها الدامية القاتمة ، وبدت العقبان فى السماء محوّمة فوقها والأرض تتثاءب عن نخلات راحت تنثنى وتعتدل كأنما تقرأ فى هبّات الريح صلوات الجناز .

أجل هذا هو الموت !

رآه عبد الملك لأول مرة فاستبشعه ، غير أنه لم يكن يحجب عينيه عما يريد أن يرى .. اذ كان ثمة كلبان يبقران أحشاء القتيل ، بينما انقضت عقاب تنهش الجسد الدامى ثم تبتعد وفى منقارها

اصبعان من كفه أو ثلاث ! وانتفض جسد الصغير ، قال له واحد من رفقائه :

— ألن نواصل السير يا عبد الملك ؟

فقال وهو كالشارد :

— أجل .. فأنا أكره الموت .

لقد حزنه ما اقترفته يد السفاح وعجب كيف أن أهله كانوا ينشدون شيئا مثل هذا طوال عشرات السنين ، فلم يغمدوا السيف ، ولم يعقدوا لهم حبوة . فلابد اذن أن يكون الثأر أكبر من هذا ، ولابد أن يكون هذا الأموى الملقى للكلاب والعقبان قد أوجع أصحاب الأمر فى الدولة الجديدة .

كان يفكر على هذا النحو الساذج ، ثم قطع حبل تفكيره ظهور شاب فى نحو العشرين يركب حمارا أعجف هزيلا . وأدرك من قبائه الفضفاض أنه أحد الموالى ، فلم يشغل نفسه بأكثر من التفرس فى أظافره السود وصدره العريض وسحنته المحمرة .

على أن طول توقف هذا المولى فوق الميت دون أن يترجل أشعره بالأسى ، ولحظ أنه مغتبط وان يكن متكلفا الصمت ، فقال له وهو يرجو أن يفهم تماما تحدّيه له :

— كان عليك أن تترجل ثم تترحم على القتيل .

فقال بصوت خشن وبلسان ثقيل :

— أموىّ قذر .. أنا لم أوكل به حتى أترحم عليه !

وودّ عبد الملك لو صفعه أو بصق فوق لحيته ، ولكنه كان يحس بعجزه المطلق وبأنه لا يملك الا أن يتكلف الصبر . بينما

اقترب الصبية من صديقهم كأنما شعروا أنه فى حاجة اليهم على الرغم من ايمانهم أنه يستطيع أن يكون ندا ، أفلم يختم القرآن فى عام واحد ؟ أفلم يحفظ المتون الكبار ويملك أن يتفاصح وهو بعدُ الناشىء ؟ وقد سمعوه يقول بلسانه العذب :

— أنا لا أسألك أكثر من حق الموتى على الأحياء .

قال :

— الا أن يكونوا من الأمويين !

وذكّى قوله الألم فى صدره وأثار الحسرة ، ثم ضاعف من احساسه هذا استهانته بمن كلفوا أمثاله شططا ليحفظوا للعرب عزّهم ، فقال :

— لولا أن دالت دولة هؤلاء لما استطعت أن تظل على حمارك ونحن وقوف .

وتكلف المولى السرور وقال متمازحا :

— أتعيرنا بأمور سكتنا عنها دهورا ؟ ومع ذلك فما اسمك يا فتى ؟

أجاب تياها :

— عبد الملك بن قريب من باهلة .

وكأنما سمع المولى احدى الفكاهات الصارخة ، فانفجر يضحك حتى كاد يسقط عن حماره الهزيل ، ولما استجمع أنفاسه قال وهو يتصنع الانكار والدهش :

— هذا لا يكون قطعا .

فتساءل الصبى :

— لماذا ؟

أجاب :

— لأن الناس اذا كانوا من باهلة تبرأوا منها ، فكيف يأتى من ليس منها وينتسب اليها ؟

وتململ الصغار وقد ساءهم أن يعبث بهم هذا المولى ، وتوقعوا أن يأخذه الأصمعى بعبارة من عباراته اللاذعة التى شهر بها ، ولكنه قال له بهدوء :

— قد أغفر لك تطاولك اذا عرفتنى من تكون .

فقال الشاب :

— معمر بن المثنى .. من تيم قريش !

وهنا انفجر الصبى ضاحكا ، تماما كما فعل هو ثم صاح :

— لا تقل من تيم يا هذا ، فالأصح أن تقول من موالى تيم ، فليس المولى كالعربى وان يكن من باهلة .

فتمتم معمر وقد أطرق كالخزيان :

— دون شك .. ومع ذلك فقد كان أبى يهوديا من باجروان .

وضرب على حماره الهزيل فاهتز ، ثم تحركت قوائمه فوق الدم المتجمد علـى الحصى ، ومضى مصعدا فى طريق البصرة .

وأما الصغار فقد عادوا من حيث أتوا ، وهم يشعرون بأنهم على أبواب عالم جديد .

٢

المدينة الكبيرة

كان شغفه بالورق والألواح ، واحتقاره للألعــاب فجأة ، ودمامته التى لم تكن تخفى على أحد ، وايثاره نفسه بما يناله لا يجرؤ مجترىء على أن يأخذ منه .. كان كل أولئك يشــكله تشكيلا أحس أقرانه بغرابته ، وكان قد خيّــل اليهم أنه ببدنه النحيل غلام عادى الا أنهم سرعان ما تبيّنوا أن كل اختبار يدفع به الى التقدم السريع . وكانت عيناه اذا هدأت نفسه لمعتا ببريق حبيب ، وانساب صوته يمسح على كل أثر سيىء تتركه كلمة « البخيل » اذا نعت بها .

بل كان الذين يدعونه بالبخل لا يكفون عن الاحــداق به ما وجدوا أنفسهم فى فراغ يستطيع هو ملأه . فكان يحاول الهرب فاذا عثروا عليه فى الأبلة مرفأ البصرة الجميل أو فى المربد سوقها الكبيرة أو فى مسجدها آخــذوه فجلس اليهم الســاعات وهم يسمعون .

كان البخيل اذا تهيأت له أسباب الهدوء يستحيل أكرم ما يكون حديثا ، وعادت أمه واحدة من سامعيه . وكان أبوه يعود الى بيته بالحفير فيسمع منه أيضا ويمتحنه فى تفسير آية أو شرح بيت

ثم يردد على مسامعه ما يقول عنه « عمه » سلم بن قتيبة ويعده بزيارة ما له ، ثم يصرح بأنه يرجو أن يراه كابن المقفع الكاتب الكبير وان لم يكن فكرؤبة بن العجاج .. وكان ذكرهما يملأ البلد !

* * *

وفى ذات يوم اصطحب الأب عبد الملك الى البصرة وكانت اذ ذاك تموج فرحا بما سمعته من أخبار المنصور الذى خلف السفاح فى الكوفة وأعاد سلم بن قتيبة الى امارة البصرة .. كان هذا الخليفة أكثر بغضا للموالى من السفاح ، وقد أوقع بأبى مسلم الخراسانى . فأحس العرب بكثير من الراحة ، الا أنهم ظلوا على ما يشعرون به من قلق خفى . وكانت فرحة عبد الملك لا تعدلها فرحته بصحبة أبيه لكى يقدمه الى أحد شيوخ المسجد الجامع .

كان قد وصل الى السن التى تعطيه حق تلقّى العلم على أيدى الشيوخ الكبار ، وكان قريب قد قرر أن يقـدّمه الى أبى عمرو ابن العلاء .. شيخ البصرة ومعلمها الأول ، وأشهر من تعمق فى القراء والعربية . ومثل هذه الظاهرة تدخل السرور دائما على قلب أى رجل ، بله على قلب رجل من باهلة !

ورأى المجلس حافلا .. مئات من القوم ، وعشرات الحلقات .

والأصوات هدير كم سمع مثله وهو على شاطىء دجلة أو فى عراء الصحراء ، وثمة جماعات من الشباب تلهو وتطلق ضحكاتها بين حين وحين . وجفل عبد الملك لا خوفا مما يرى ، فقد طالما تردد

على المسجد قبل ، وانما جفل تهيبا من الرجل الذى سيتقدم اليه .

كان مقتعدا الأرض تحت عمود من أعمدة الجامع فى بساطة ، وفى تودد ! وكان وجهه ملائكيا بلحيته البيضاء ، وعينيه الصافيتين ، ولما لمح أباه تبسم له ، واستدناه فانحنى قُرَيْب على يده ، كأنما يهمّ بتقبيلها ، وقال :

— هذا ولدى عبد الملك . انه يهوى العلم ، ويحب الشعر ، وقد دوّن فى أوراقه أشياء كثيرة !

ولم يشعر عبد الملك بشىء واضح على وجه التحقيق ، فقد كانت الأمور تجرى على نحو لم يألفه قط ، غير أنه أحس أنه أصبح كبيرا ، وأنه قادر على أن يناقش كما يناقش هؤلاء المتحلّقون حول أبى عمرو . وألفى نفسه فجأة جالسا الى جوار معمر ، عرفه برغم ازدياد جسده ترهّلا ، ورآه يحدّق فيه ، ويريد أن يخاطبه بأى شىء ، الا أن تحفظه الشديد جعله يحجم ولو لبعض الوقت ، وقد مضى قليل قبل أن يقول له :

— مرحى بالباهلى .

قال الأصمعى ، وهو يخافت بصوته خشية أن يفسد على أبى عمرو درسه :

— ولا مرحى باليهوى . يقال انهم يطلقون عليك هنا سُبَّخْت!

فتململ معمر وقال :

— أفقد وصلتك ؟

فأجاب وهو يظهر عدم استعداده للخوض معه فى أىّ حديث :

— ان شيئا عن الحمراء لا يغيب عنا هنا !

ولكن معمر بن المثنى قال بالحاح :

— ما رأيك فى مصالحة ؟

فضحك عبد الملك وقال :

— ليس بين الأعراب والأغراب !

على أن الدرس لم ينته الا وقد وجد الاثنان أكثر من موضوع يتحدثان فيه ، وبدا أنهما يؤثران نسيان واقعة الأموى القتيل ، وتحولا الى مطالعاتهما ، بعد أن عجزا عن المضى فى نقاشهما الحاد .

— هل سمعت غزلية بشار بن برد ؟

— لولا أنه من المنقطعين لباهلة لكرهته .

— كأنك سمعت بها .

— ان الشعر العربى هو خير ما جادت به القرائح ، وبشار ليس أحسن من الأولين . وابتسم معمر ، وقد أحس أنه أمام نفس كبيرة . أحس أن هذا الباهلى بجسمه النحيل ، وعينيه اللامعتين يقدر على أشياء ربما عجز هو عنها ، وقد غبرت عليه عشر سنين لم ينقطع خلالها عن أبى عمرو وأضرابه ، وقال له :

— اذن فيجب أن تتقدم الى أبى محرز أستاذ البصرة فى الشعر .

قال وكأنه يردد شيئا محفوظا :

— انه يقول الشعر فيجيد ، وقيل انه ربما نحله الشعراء المتقدمين ، وهذا ما سأعرفه بنفسى .

قال معمر :

— كم تبلغ من العمر يا باهلى ؟

أجاب :

— لا تقاس الرجال بأعمارها ، وأنا فى الرابعة عشرة .

وأثارت هذه العبارة كل ما فى نفس أبى عبيدة من عناد ، وتلك كانت صفة فيه ، وفتحت الباب ثانية لجدل طال حتى أطبق الظلام ، وتسلل الدارسون خارجا بينما بقى المسجديون فى لهوهم لا يحورون عنه ، وقال معمر :

— يجب أن تصحبنى الى أبى محرز ، ونستطيع أن نتم حديثنا هناك .

ورحّب عبد الملك بالاقتراح ، الا أنه أضاع فى الطريق حماسته ، وبينما كانا يطرقان قال لمعمر :

— اننى لست أهلا لمقابلة أبى محرز حتى أتم حفظ ما عقدت عزمى عليه من رجز !

— وكم حفظت ؟

— أحد عشر ألف أرجوزة .

— كم ؟

— أحد عشر ألفا .. وأتمها اثنى عشر ألفا قبل نهاية هذا العام .

— فيها البيت والبيتان .

— وفيها المائة والمائتان !

وخرج اليهما أبو محرز . ربعة عريض ، دقيق الملامح ، رحّب

بهما أيّما ترحيب ، وبينما كان يوقد القنديل الكبير قال لهما انه ظن أن أحدا لن يسأل عليه فى مرضته هذه ، ولكنه سعد ، ولا سيما بالضيف الصغير ، فقال معمر :

— وقد تتضاعف سعادتك اذا قلت ان هــذا الضيف كتاب كبير .

قال أبو محرز :

— فى العربية ؟

أجاب الأصمعى قاطعا الطريق على معمر :

— كل ما فى الأمر أنى أحفظ أحد عشر ألف أرجوزة .

وأصر معمر على أن يتكلم ، وقال ان حفظ هذا العدد الهائل من الأرجاز قد يفيد صاحبه الا أنه لا يجعله عالما ، لأن العلم هو ما يلقى فى حلقة أبى عمرو ، ويونس بن حبيب ، وأضرابهما .

قال عبد الملك :

— ولكن الشعر ليس الا سبيلا الى هذا العلم .

وتدخل أبو محرز ، وقد أخذ مقعــدا أمامهما ، وكانا قد استويا جالسين فى غرفة ضيقة حشدت بأرفف تنوء بالمجلدات ، وقال :

— الحق أن عربيتنا شىء غريب .. ربما بدت لغة ، وربما بدت أخبارا ، وربما ظنها قوم تفسيرا لآية كريمة من القرآن ، ولو قد أدركنا أنها كل ذلك وأن الشــعر هو المفتاح الذى يفتح كل الأبواب اليها اذن لما اختلفتما على شىء .

ثم انطلق يتحدث على هذا النحو فى صوت عال ، وبلسان

بيّن ، وبحماسة قربت اليه عبد الملك ، ولم يكن أكثر ما عرض له يستهوى ابن المثنى ، فأخذ يتطلع الى صديقه الصغير ، ويتأمل مظهره ، فرأى ثيابه رخيصة ، مهوشة ووجهه أليفا برغم ما فيه من دمامـة ، وبدا كما لو أنه أكثر طولا لأنه كان نحيلا .. وكانت حركاته وديعة حلوة ، وبشرته السمراء تتفتح لبعض شعرات فوق شفتيه ، غير أن قسماته كلها تتدفق حيوية ونشاطا .

وكان أبو محرز لا يزال مندفعا فى بيانه ، وقد بدأ يلقى من الأشعار بعض ما يحفظ حين صاح عبد الملك :

— عفوا .. فقد أزف الموعد لألحق بأبى فى دار الأمير سلم .

وقام يحيّى ، ثم انطلق يعدو ، وقد خلّف وراءه الرجلين .. معمر بن المثنى يظنه مغرورا ، وأبا محرز يقول فى هدوء :

— تشهد ملامحه برجل خطير ، فان صدق فيما زعم فهو أعجوبة من أعاجيب القدر !

٣

مُعترك الحياة

فتن عبد الملك بأبى محرز خلف الأحمر ، ولكنه لم يهمل درس أبى عمرو قط ، وبين الاثنين كان يحضر أحيانا لشيوخ آخرين ، ويقرأ لمن يضعون الكتب ، وينشرون الرسائل كابن المقفع .. وقد لحظ أن العلم تحوّل لكثير غير العرب ، فكان يعجب ، ولكنه اعتاد أن يردد ما قرأ لابن المقفع فى بعض كتبه التى قرأها عند سلم « الدنيا دول فما كان لك منها أتاك على ضعفك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك » .

وآمن أن ما على العرب برغم يقظة أبى جعفر المنصور لا يستطيعون دفعه الا أن تسكت هذه الأصوات التى تريد أن تنال من الأمويين فتنبش قبور الأولين بقسوة ، ودم بارد .

واذا كان الدين أفضل ما منّ به الله على الخلق فانَ من أبشع الأضرار أن يعبث به فى غمار الفتنة التى يحركها الموالى . وقد بلغ من سوء تدبير هؤلاء أن راحوا يعيثون فسادا فى مجالسهم ، ولقد حضر مجلسا من هذه المجالس فى دار بشار بن برد ، وهو يسميه « البردان » فراعه ما كان يقع فيه من تهتّك ، واقبال على النساء ،

وتعريض بالثقاة من رجال الدين ، وانكباب على أقداح الخمر حتى تسلب العقول .

وسمع لأول مرة فيه عن أمور فاضحة نشبت بين أبى حنيفة الفقيه ، وبين حمّاد عجرد [1] ، واذ يكون هذا ندا لبشار ، وصديقا لحماد الراوية ، وحماد الزبرقان — وكانوا يتنادمون على الشراب فى الكوفة — فالمسألة كانت اذن رغبة فى اثارة الشك حول مسلك الرجل .. قد يكون نادمه حقا ، وقد يكون زميل شراب له ، ولكنه اليوم ناسك يطلب العلم الذى لا يستطيع حمّاد ، ولا بشار أن يصلا اليه !

وكانت اتصالاته بالمسجديين — وهم الذين يطيلون القعود الى مثل أبى عمرو وخلف ، كما يطيلون القعود الى عشاق مجالس اللهو — تكشف له عن ذلك الانحلال الذى أخذ يدب فى كيان المجتمع .. عن هذه الزندقة التى يحمل لواءها أغلب الموالى ، ورأى أن أبا عبيدة — صديقه — لا يألو جهدا مثلهم فى التعرض لأمورِ الدين ، وفى النيل من التراث الذى يشهد أنه يحفظ منه كثيرا .

وبدأ يأخذ نفسه بنقد كل شخصية تعترض طريقه ، فأما عيسى ابن عمر الثقفى فهو كأبى عمرو .. ثقة واخلاصا وايمانا بالعربية ، غير أنه كان يروعه بتقعره ، وانتهى الى أن أسلوبه فى العدول عن سهل الألفاظ الى الوحشى والغريب سبيلا نحو الأستاذية الصعبة .

---

(١) يحسن هنا مراجعة الأغانى ١٣ : ٧٥

وأما يونس بن حبيب فان شبابه كان يملؤه ثقة بالغد ، ولكنه فيما يبدو لا يقدر على ما يقدر عليه أستاذاه : أبو عمرو ، وأبو محرز ، ولقد شهد أن رؤبة بن العجاج قال له بعد أن اتصلت دراساته المجدية : حتام تسألنى عن هذه الخزعبلات ، وأزخرفها لك ؟ أما ترى الشيب قد بلغ فى لحيتك ! أتراه كان يدلس ، كما يقال ان خلفا أستاذه يدلس ، وكما يقال ان حمادا الراوية ليس أقلهما تدليساً ؟

وأما عمرو بن عبيد فهو يخوض دائماً فيما يصعب تقبّله بسهولة ، ويجمع مجلسه كثيرا من الملاحدة ، والصابئين ، كان هو يعرف منهم أفرادا رآهم بين المسجديين ! وكان يحس بالاشفاق عليه ، لا سيما حين يرى ابن المقفع يأخذه بفصاحته ، وبما يقال انه ينقله عن الأولين .

وأما الخليل بن أحمد فلولا أنه يدرك بفطرته صدق عقيدته لظن به الظنون ، انه شخصيا يحبه ، ولكنه لا يحب جلوسه الى هؤلاء المتكلمين الذين يملئون المسجد صخبا .

وأما هؤلاء القاصّون — وهم كثيرون ، وفيهم من الثقاة قدر ما فيهم من المدلسين — فقد أحس أنهم يشكلون خطرا كبيرا على العقيدة السليمة ، وهو يذكر أنه كان يستمع الى أحد القاصين ، وهو يعرض للجنة بالوصف ، وصادف أن كان بشار ابن برد يمر فسمع القاص يقول : من صام رجبا وشعبان ورمضان بنى الله له قصرا فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ

فى مثلها ! وهنا توقف بشار ، وقد كان يجوز الحلقة ، وقال وهو محتد : بئست والله الدار هذه فى كانون الثانى !

كان عبد الملك يروع بمثل هذا ، وكان كلما أطال فكره ازداد ايمانا على الأيام بأن الأمر ليستقيم شديد المشقة ، وأن الخير فى هذا البلد ممتزج بالشر الى حد تضيع معه الجادة ، فلما خرج ابن المقفع بكتابه الذى نشره باسم « رسالة الصحابة » كان كمن أصاب كبد الحقيقة !

ولكن عبد الملك كان قد وصل الى السن التى يستطيع فيها أن يفلسف الموقف ، وكان قد انتهى منذ عام الى أن آثاره التى اطّلع عليها تؤكد أنه يصدر بها عن احساس هو خليط من نزعات تضل الأوهام فى تحديدها .. وليكن رأى غيره فيه ما يكون ، وليكن عند بعض القوم رجلًا قويما مسدّد الفكرة لا التواء فيه ، فهو على أية حال طائش الخطى على نحو ما من الأنحاء .

انه يحس أن أسلوبه يرزح بأثقـال التفكير فيما شغلت به الموالى نفسها فاذا كان يدفع المرء الى أن ينقد أوضاع العصر الاجتماعية نقدا نزيها على ما ظهر فى كتابه الأخير الذى بعث به الى المنصور ، فان العين العربية لا شك مكتشفة أمورا ترمى الى تدمير مجتمعهم هم .

هو فى الظاهر صادق حين قرر فى رسالته أن كل شىء فسد فى المملكة ، وأن الفقهاء ضاعوا ، وضيّعوا الحق فى فتاواهم ، غير أن القيم الفارسية التى انتشرت فى البصرة كانت حلما من الأحلام التى ينبغى أن تتحقق .. ومن ثم فان الداء العضال كامن

فى رأس الدولة ؛ لأنه لا يعزز جيشه بجند الخراسانية ، ولا يرفع يد المقاتلة عن نظام الخراج ، ولا يريد أن يقيد سلطة القضاة العرب ، ولا يقيم نظاما سياسيا بعيدا عن السنة والكتاب الكريم !

هكذا .. هكذا الأمر بمنتهى السهولة ، وبافتئات على الماضى الذى جاهد العرب فى بنائه ، فان كان يأخذ رأسه بدوار فلأنه رهيب مدمّر ، ولأن الاكتفاء فيه بحسن النية ، والرغبة الصادقة لا يجديان . فلا عجب بعد أن يحمد للخليفة صنيعا لم يختلف كثيرا عن صنيع السفاح بالأمويين .

ذلك أن عام ١٤١ كان قد أقبل على حركة غريبة من الخراسانية الذين نادى ابن المقفع بأن يكون الجند منهم .. كان هؤلاء قد هيضوا بموت أبى مسلم ، ولكنهم كانوا يتطلعون الى الانتقام فى أى وقت ، فخرجت منهم طائفة تقول بالتناسخ ، وتسمى نفسها الراوندية ، ولما كانت تخشى بطش الخليفة فقد ظنت أن الانتساب اليه يطمس حقيقتها .. فادّعت من ثَمّ أن المنصور رب الراوندية . وبهذا الادعاء زحفت مئـــات الى الهاشمية فتمكن الخليفة من القبض على مائتين من زعمائهم .

وتطورت الأحداث بسرعة .. فقد تظاهر الراوندية وهاجموا السجن ، وأطلقوا سراح هؤلاء الزعماء . فلما انتهى الأمر الى الخليفة خرج بنفسه شاهرا سيفه ، ومن ورائه بعض خاصته ، فألهب خروجه صدر العامة فانضمت اليه ، وكان فيهم محارب لفت الأنظار بلثامه الذى يضعه على وجهه ، وبجرأته التى كانت تذوب أمامها حماسة الثائرين .

وكان لابد أن ينتهى كل شىء على ما قدّر المنصور .. ولما كان لا ينقص رجاله الحماسة الى جانب العقيدة السليمة ، فقد أبيد الراوندية عن آخرهم ، وألقيت جثثهم فى الطرقات تأكلها الكلاب ، وأسرع عبد الملك الى جماعة من المسجديين شهدوا آثار المعركة التى بدأت ، وانتهت منذ يومين .. وكان شديد الرغبة فى أن يسمع منهم تفصيل التفصيلات ، ولكن هيهات فقد اكتفوا بأن قالوا انهم كانوا يشاهدون هنا وهناك جسدا نهشته العقبان أو الكلاب ، وكان المنظر يبعث على الاشمئزاز والقسوة ، الا أن ذلك لم يكن منه بدّ ، فقد كانوا ملاحدة ينكرون الله ، وقال له معمر بن المثنى :

— أرأيت الى ساحة القتال ؟ انها لحم ودم ، وكان من أشق الأمور علينا أن تتبين لحم مَن هذا ودم من ذاك ، وهكذا عدنا لنحيا على السيف ، ونموت بالسيف !

قال عبد الملك فى دهش :

— ماذا تعنى يا معمر ؟

— خرج المنصور من القصر ، وقفل ، وكأنه عاد من حانوت قصّاب .

— أفتكرهه ؟

— ولم أكرهه ؟ انه جندى صنديد يحارب زنادقة كما يقول ، وان كنّا نعرف أن الراوندية كانوا شيعة أبى مسلم الشهيد .

— أتسميه شهيدا ، ولم يقتل فى سبيل الله ؟

وتذكر كيف كانت الخراسانية تخرج على قتيبة بن مسلم الباهلى ، فامتعض ولم يملك الا أن يقول :

— أنت منهم يا معمر .. انك تكره العرب ، وقد أغفر لك ما دمت لا تقدم شرا كهذا الشر الذى يقدّمه بنو جلدتك .

قال معمر :

— يا عبد الملك ، ان ما يربطنى بك هذا العلم الذى نجتمع عليه ، وما بعد ذلك فهو للأقدار يوقتها الله ، ويهيىء السبل الى غاياتها ، فان أردت ما يغذى كبرياءك فاليك حكاية المقنع الذى ظهر فقلب ميزان القوى ، وكما أن الحبة لا تقدر أن تخلع يَبسَها الا بالماء لتظهر ، فكذلك هذا الرجل .. كان طريدا ، لأنه واحد من الفئة الضالة أحبابك يا عبد الملك ، ولكنه تعرف الى الماء فى الحين المناسب !

ووثب عبد الملك وصاح :

— أتعنى أنه أموى ؟

أجاب :

— أجل ، ومن شيبان ، يسميه خليفة المسلمين أشد الرجال ، وبالأمس كان معن بن زائدة .

— هو اذن .. تعنى قائد ابن هبيرة ، يا لك بطلا عربيا !

فقطب معمر ، وقال :

— انى كثيرا ما أسائل نفسى أجاء مخلصا للحق أم جاء مخلصا لنفسه ؟ ولكنه على أى حال قلب ميزان القوى ، لقد رآه المنصور تنشق عنه الأرض ، ولم يكن ليبعد عنه أكثر من خمسين أو ستين قدما ، وبدأ يشق طريقه قادما اليه ، وهو يصيح « أنا لك يا أمير المؤمنين » هكذا يحكون ، وكان أمره عجيبا ،

فهو لم يكن عملاقا كالمنصور ، ولكنه كان خفيف الحركة كالقط . قالوا وشق طريقه الى أمير المؤمنين بعد أن صرع عشرين رجلا فى احدى هجماته الوحشية ، ولما كان يرتد ليستريح كان يداعب بسيفه مقاتلين أو ثلاثة ، وهكذا حتى قضى على الخراسانيين . وراحمتا لهم !

قال عبد الملك وهو يتنفس الصعداء :

— بل وارحمتا للمسلمين !

٤

بدء الحيرة

انقضى شهر أو نحوه على هذه الواقعة المشهورة ، ثم شاع خبر موت سليمان بن علىّ أمير البصرة ، وعم المنصور ، وانقطعت بذلك تلك المجالس التى كان يعقدها فى داره للشعراء والعلماء ، والتى كان يلتمس فيها عبد الملك الخلاص من تفكيره كمراهق له بغية فى بيت الأمير الباهلى ، وكان فى هذه الأثناء لا يزور داره الا لماما . وقد انتهى الى أن الناس يجب أن يكون لهم عمل أصيل ليقولوا قولا بديعا ، أما أن يكتفى المرء بأحلام ليجمع فيها الى كل لون شبهه فهو أمر لا يمكن أن يكون ، لا سيما أن الموالى قد تمرسوا على ما كان ينبغى أن يقتصر عـلى العرب وأصبح خطرهم واضحا .

والحق أن البصرة فى هذه الفترة قد تعقّدت تعقدا شديدا ، واستحالت بعد موت عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة على شفا حفرة من الانهيار ، وان كانت تتقنع بقناع البحث عن الحقيقة دائما .. حتى لتبدو للرائى بوتقة علم تنصهر فيها الرواية بالخطبة بالقصة بتفسير الآية بمناقشة حق أى « علوى » أو « خارجى » فى

الحكم ، وامتدت هذه الحركة المحمومة الى الدور نفسها والى مساجد القبائل التى كانت تنتشر فى أحياء البصرة .

كان آل مويس بن عمران يجمعون فى دورهم المعتزلة ، وأهل الحديث ، والمرجئة . وكان آل نوبخت — الذين وفدوا على البلد مؤخرا — يفتحون بيوتهم للأدباء كافة . وكان المهالبة والباهليون يتنافسون — كما يفعل آل سليمان — فى اجتذاب رواة الأخبار والشعر ! وبدا واضحا أن مثل هذه الدور تمثل فى حيويتها حيوية البصرة نفسها ، ولكنها كانت تتقبل كل شىء حتى عمليات احيــاء تراث الفرس وغيرهم .

كانت عين عبد الملك اللاقطة تسجل كل أولئك ، فلما تحولت الى المربد — وهو ســوق وأهم أحياء البصرة — اجتذبه اليه اجتذابا .. فقد صادف هوى فى نفسه بما كان يلقى فيه من شعر وخطب ، وبما كان يفتن فيه من مساجلات ومناظرة ، وأدرك أن ما سمعه عن جرير والفرزدق والراعى والعجاج كان استجابة طبيعية لنوع الحياة فيه . لقد طالما دخله صغيرا قبل ، فلم يدرك قيمة ما كان يسمع فيه ، وأما اليوم فهو قادر على أن يرى فيه الياقوت والزبرجد والمرجان ، فينظم كل هذا قلائد وسموطا .

وربما أحس أنه يفتقد أمثال الفحول ، غير أنه رأى جدواه مؤكدة وهذا هو أستاذه يسأله حين قفل عنه أمس : من أين أقبلت يا أصمعى ؟ فلما أجاب « من المربد » قال : هات ما عندك !

أبو عمــرو بن العلاء عاد يسمع منه ما يحصله من المربد ..

ولما راح يقرأ عليه ما كتب فى ألواحه ، ومرت ستة أحرف لم يعرفها خرج يعدو وهو يصيح :

— شمّرت فى الغريب !

واليوم يشهد ابن المقفع يقبـل على جماعة من أهل العلم والأدب .. كانوا يحبـونه وكان هو يبشبش بهم ، وقد بدأهم السلام ، ثم قال :

— لو ملتم الى نيروز وظلها الظليل ، وسـورها المديد ، ونسيمها العجيب فعودتم أبدانكم تمهيـد الأرض ، وأرحتم دوابّكم من جهد الثقل ، فان الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شىء تنالوه !

كان فصيحا .. ولولا سوء ظنه به لأقبل عليه عبد الملك ، وقال له « كم أنا معجب بعلمك وفضلك ، فهلاّ اتخذتنى تلميذا أنهل من بحرك » وتبعه بنظره من بعيد ، ورآه حين يستقرون فى الظل يقول :

— أى الأمم أعقل ؟

فعجب لسؤاله ، ولمح أصـحابه ينظر بعضهم الى بعض ، ولعلهم عجبوا أن يلقى عليهم السؤال ، وقال أعرابى : لعله أراد أن يمتحنه أو يتقرب اليه :

— الفرس !

فهز رأسه بعنف وقال :

— ليسوا بذلك . انهم ملكوا كثيرا من الأرض ، ووجدوا عظيما من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد

الأمر فما استنبطوا شيئا بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم .

سكت ، فقال بعضهم مجاورا :

— الروم !

فقال :

— أصحاب صنعة .

قالوا :

— الصين !

قال :

— أصحاب طرفة .

قالوا :

— الهند !

فقال :

— هم فلاسفة .

وما زالوا بين ذكر الترك ، والخزر ، والسودان ، وغيرهم حتى سئموا فقال واحد منهم :

— لعلهم العرب !

وهنا انبرى قائلا :

— أجل العرب .. أما انى ما أردت موافقتكم ، ولكن اذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة . ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ! أصحاب ابل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ،

ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ، ويقبح ما شاء فيقبح .. أدّبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم فى أنفسهم حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر !

واهتز الأصمعى . أهذا هو ابن المقفع على حقيقته ؟ أم تراه يتقرب الى العرب ، وفيهم شبيب بن شيبة خطيب البصرة الكبير ، وأبو الجاموس ثور بن يزيد شيخ الأعراب ؟ انه يخوض فى مدح العرب خوضا .. فمن له بمن يأتيه بمعمر بن المثنى ليسمع ويرى سيدهم ، وأستاذ البيان عند الجميع ، وأكبر كتاب البلد ! ولكن هيهات ، فقد قطع عليهم خلوتهم بعض الشُرط ، وهمس واحد منهم فى أذنه بشيء فأسرع الى برذونه يخبّ به مصعدا الى الشمال ومن ورائه ثلاثة من الفرسان ، ثم لم يره بعد ذلك .

وسمع بعد أيام أنه قتل .. قتله أبو جعفر وان يكن أحبه يوما ، ولكن المحبة مهما تبلغ المرء مبلغ الفضل فانها لا تعفيه من مسئولية شططه ، وحسب رسالته جرأة على مكانة الخليفة لكيلا تغنيه ما يريد ، بل لتودى به فى آخر الأمر .

ولكن مقتله وان هان عليه شيئا فقد فرض عليه التثبيت فيما كان يطمع فيه ، فان الطلب لا ينفع الا بالتخيّر الرشيد ، ولم يحسن ابن المقفع ما تخيّر ، ولم يكن الى ما يمسك رمقه بأحوج منه الى ما يتثبت به على تخيّره . وهكذا ضاع ، فكم

ينبغى أن يضيع غيره ما داموا ليسوا أهلا لما يتخيرونه ؟ هذا هو بشار ، ومعمر ، وسلم الخاسر ، وحمّاد ، وعبد الكريم ابن أبى العوجاء ، وغيرهم .. كلهم يتنكبون الجادّة ، ولا يستطيع هو أن يفهم لماذا لا يلتزمونها .

هكذا يتحدث الى نفسه ، والى عشيرته فى حى بنى أصمع ، ولقد راح يضفى على حكاياته الكثير من السحر ، وربما كان فى هذا اليوم واثقا كل الثقة من أنه على صواب فقد كان كل ما يتصل بماضى العرب مبعث اثارة وتقديس ، وكان اذا صوّر هذا الماضى وعبث العابثين به من الموالى اندفع بحماسة وتأثر ، وراح صوته النفاذ يأخذ بالألباب ، ولم يكن فى طبعه التكلف ، فكانت بساطته فى اقامة الحجج تمتلك القلوب امتلاكا .

واتضحت الصورة التى كان اعتاد أن يرسمها لأخيه عبد الله ، ففى جانب منها يقوم الحق .. الشعر ولغته ، ومذهب السنة ببساطة ، وفى الجانب الآخر ينهض الباطل .. تطلّع الموالى الى تصدّر الحياة فى البلد العجيب ، وجدل المعتزلة الذى يفتح السبل أمام الزنادقة !

فى جانب يرى الدين يظاهر العلم والرواية والصدق ، وفى جانب مضاد يرى المجون والتشيّع والافتراء فى خدمة واحد كالذى قتل ، وبشار أو معمر ، وان موضوع « حسن الاعتقاد » لهو الشىء الذى يجب أن يتسلح به العاقل الذكى .

كان المعتزلة يزعمون أن العقل ينظم شتى المعتقدات ، ويا سوء ما يزعمون ! ان العين اذا وقعت على كتاب « الألف مسألة » الذى

وضعه واصل بن عطاء مثلا لا يدرى أهو فى خدمة الدين حقا أم فى خدمة مؤلفه الذى يتيه بقدرة العقل على كل شيء ، حتى على وجوب معرفة الله عن طريق الاستدلال به ، ومن غير منبّه أيا كان هذا المنبه !

ولكن التشكيك فى القيم والأصول والأخبار والقياس الشرعى الذى شغف به علماء البصرة برغم دعوات المعتزلة .. كل هـذا اذا مس نفس عبد الملك أصبح لونا من الصبأ لا يتقبله ، وقلما يتقبله العقلاء ، فان هؤلاء اذا افتتنوا أحيانا بالنزعات المتحـررة فهم يشتمون فيها كثيرا من رائحة التدبير ، الشيء الذى ينبغى أن يـمقت الى أبعد حد .

قال عبد الله ، وهو يردد كلامه :

— العقل ، القياس ، ولكن ماذا اذا كان هذا العقل يهدى الى الرشد ؟

فهتف الأصمعى الشاب :

— أكثر ما أخشى على طالب العلم مثلى اذا اعتد به هلك ، والا فكيف نعتد بما تركه الأولون ؟ اننا نشترط الصدق ، فيمن يحمل لنا تراثهم ، فلماذا نسلّط عقولنا عليه بالطريقة التى تبعث على الشك فيه .. قل لى يا عبد الله ما دخل العقل اذن هنا ؟

قال عبد الله :

— ولكن الدين ...

فقاطعه عبد الملك صائحا بصوته النفاذ :

— الدين أن تصدق بما فى كتاب الله وسنّة رسوله ، ثم تتسلح

بأسباب الصدق بعد ذلك ، أعنى اللغة الصحيحة ، وفى رأيى مثلا أن من لم يدرس النحو يدخل فى جملة قول الرسول « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » لأنه عليه السلام لم يكن يلحن ، فمهما رويت عنه ولحنت فيه فقد كذبت عليه .

وصوّب أخوه نحوه نظرات شاردة .. كان دهشا غاية الدهش؛ فلقد كان يسمع اليه كثيرا ، ولكنه لم يسمع شيئا كالذى يسمعه الآن ، ولكن لم يكن فى طاقته أن يناقش هذا الشاب قسيم العلماء الكبار ، بلغته الواضحة ، ومنطقه السليم ، وعينيه المتقدتين ! ولما أراد أن ينهض لبعض أموره استوقفه قائلا :

— ألا تريد مزيدا مما عندى فى هذا ؟ أقولها صريحة يا أخى.. ان تزندق أكثر القوم فى البصرة راجع الى جهلهم بالعربية ، ولو كانوا مطلعين على خفايا اللغة لفهموا حقيقة القرآن والحديث ، ولما اعتراهم الشك فى الدين . هذا ما هدانى اليه التفكير حتى الآن ، ومن يدرى فقد يأتى الغد بما لم يكن فى الحسبان .

٥

الشِّعرُ ... الشِّعرْ

دخل على الأمير سلم ، وهو جالس على طنفسة خَزّ ، وكان يستمع الى غناء يأتيه من وراء ستار .. غناء رقيق لم يكن بحاجة الى أن يخبره أحد أن صاحبته لباب الجارية التى يهوى اليها . فتحركت نفسه ، ولكن لم يكن يملك شيئا يفعله وكان قد انتهى الى ضرورة الكف عن التفكير فيها .. فقد أدرك أنها لا يمكن أن تكون له شيئا وآل سلم متعلقين بها ، فأخذ مقعده دون أن ينبس ، فقال سلم :

— العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره ، فيختار ما يسره . فان رأيت ما يسرك غير هذا رفعت هذا الستار .

وقبل أن يجد الكلمة المناسبة صفّق بيديه ، فما أسرع ما أزيل الستار لتظهر لباب فى ازار له ذنبان ، وبيدها دف ترمى به ، وتتلقاه ، وتغنى :

يا ليلتى تزداد نكرا   من حب من أحببت بكرا

وهمس سلم :

— الشعر لبشار ، وحركات الدف لحبابة ، أفأخبرك عنها ؟

قال الأصمعى :

— جارية يزيد بن عبد الملك ؟

قال الأمير :

— أجل ، وكان قد عشقها الى حد الموت ، وقيل انها كانت تأكل معه رمانة ، فشرقت بحبة منها كان فيها النهـاية ، فأقام لا يدفنها ثلاثا وهو يشمها ويرشفها حتى أتننت . بالله يا لباب دعينا الساعة لأخبار الأولين ، فما عندك من أخبارهم ؟

وانفلتت لباب ، فانفلت أيد الأصمعي .. ولكنه تمالك ، وشد نفسه ، وسرعان ما واتته ذاكرته فقال :

— أفتريد اليتيمة أم غيرها من مولّد المحدثين ؟

— والله لقد شوقتني الى اليتيمة يا عبد الملك ، وأذكر جلستك الأخيرة حين شرعت تتحدث عن صاحبها سويد ، وقلت انه شاعر يشكر !

— بهذه القصيدة فقط ، ولكنه كان مغلبا .. وكان تردده بين ذبيان ويشكر قد أوهن عزمه ، فلم يظهر ، وظهر عليه الخصوم .

— فما تراك جاعلا منه ؟

— يوضع مع عنترة أو أبي كبير الهذلي ، أو نحو هذين .. لقد أدرك الاسلام شيخا ، وكان أبوه شاعرا ، وهو الذي يقول :

كأن رحلي على صقعاء حادرة   طيا قد ابتلّ من طل خوافيها

وانما دعني الى قصيدته هو :

بسطت رابعةُ الحبلَ لنـا   فوصلنا الحبـل منها ما اتسع

وراح صوته ينساب ، ويداه تهتزان ، ويقوم شيئا ثم يقعد ، والأمير قبالته مأخوذ بما يرى ويسمع . وقد كان ذلك دأبه ، فاذا

صار الى التعليق والشرح بدا للسامعين أحد هـذه الفئة التى ابيضت لحاها تحت عمود من أعمدة المسجد الكبير ! ولقد كان الأمير يفتن به ، ولا يجد غضاضة فى التعرّف منه على أمور ، اذ اعتاد أن يقول انه لا ضير اذا وقف الرشيد نفسه على غيره ، فانهم بتجرئهم عليها يصيرون حرسا لها ، فلا تتعفن ولا تتأسن ، وتفيض دائما بالفضل الكثير .

وكان عبد الملك اذا جلس جلسة المعلم لا يغيب عن باله أنه لا يزال طالب علم ، وأن لباسه هذا الى حين ، ثم يخلعه اذا كان من خلعه بد .. فمن نصّب نفسه للناس هاديا فعليه أن يأخذ بالعلم من أطرافه ، وأنّى له هذا كله ؟

ولكن الشعر كان نقطة البدء دائما ، ولهذا كان أساس تقويم السيرة والرأى تفهّم القصد القديم ، ومن غير أبى محرز خلف قادر على أن يساعده عليه ؟ من سواه يجعل تعليمه الشعر أبلغ من تعليمه بالأخبار والقصص والتاريخ ومتون اللغة ؟ أليس فى القصيدة الواحدة كل هذا ؟ أليس فيها الغريب ، والمسألة النحوية ، والخبر الصادق ، والتاريخ البعيد ؟

لقد وصل الى المرحلة التى عرف فيها قيمة الشعر الحقيقية ، ولعل هذا هو ما دعاه الى أن يغضى عن كثير مما تجرّه اتصالاته بخلف . انه يحس أن أبا محرز يفتئت أحيانا ، ويرى أن علاقته بحمّاد — وهو الزنديق المتهم فى روايته — تناله هو بشىء من الشر ، غير أن أستاذه أبا عمرو — وقد كان يقدمه على نفسه ما أنه يروى عنه أحيانا — كان عاملا من عوامل اطمئنانه اليه .

ومع ذلك فللمسألة وجه آخر ، فقد كان حماد أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها ، وكان أبو محرز خلف — الذى روى عنه — أفرس الناس ببيت الشعر ، وأعلمهم بالقصيد . وعلى أساس القاعدة التى بسطها لأخيه عبد الله يستطيع أن يفيد بهذا الوضع ، حتى وان قامت التهمة حائلا بينه وبين التصديق ، ومن ثم لا عجب أن يلزمه دائما ، وأن يقصده ما وجد الى ذلك سبيلا .. فبدا أن أحدهما لم يكن ليفترق عن الآخر الا ليلتقى به فى المربد أو فى الأبلّة ، وربما سافرا معا الى اليمامة أو بادية بنى أسد . وكانت حلقته فى المسجد الجامع من أحبّ الحلقات الى نفس عبد الملك ، وأصبحت بالنسبة له شغله الشاغل ؛ فكانت أجدى عليه من حلقات غيره من الأساتذة كالخليل ، ويونس ، وشعبة ابن الحجاج وعطاء الملط .

كانا اذا فرغا الى تقسيمها راح عبد الملك يستمده شتّى فوائده ، وساجله وناقشه فيما كان يصدر من آراء فى النقد .. فطرية ، ولكنها سديدة ؛ كان يقول : اذا أخذت أنت درهما فاستحسنته ، فقال لك الصراف « انه ردىء » هل ينفعك استحسانك له ؟ وذلك للقائل :

اذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه ، فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك .

وفى احدى المرات كان يستعيد معه قصيدة جرير بن عطية الخطفى التى يقول فيها :

فيالك يوما خيره قبل شره ... تغيّب واشيه وأقصر عاذله

فقاطعه قائلا : ويله ، وما ينفعه خير يئول الى شر ؟ قال الأصمعى : وكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود له لو يقول « فيالك يوما خيره دون شره » اروه هكذا ! أكان يقبل منه ذلك ؟

انه يتطلع الى وجهه فيراه يضحك ، فيحار . ولكنه يقرر أن المسألة وجهة نظر ليس الا ، ولعلها ليست أمرا يجب التسليم به ، والا فكيف يستقيم هذا مع ثورته على ابن مناذر فى احدى المآدب ؟ لقد قال له : يا أبا محرز ان يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعرى الى شعرهم ، واحكم فيه بالحق !

لقد غضب ، وأخذ صحفة مملوءة مرقا ، فرمى بها عليه فملأه !
ان الأصمعى لا يكاد ينتهى الى هذه الواقعة حتى يدخل أبو عبد الرحمن محمد العتبى ، وكان على عجل ، قلقا أشعث ، وما وقع عليهما حتى صاح :

— أما سمعتما ؟ لقد ظهر هنا ابراهيم .

وكعادة عبد الملك — كلما حز به أمر — اهتز ، ولكنه تماسك وهو يقول :

— ابراهيم العلوى ، أخو النفس الزكية .

وكان العتبى كخلف الأحمر من شيعة علىّ ، فاتقدت عيناه حماسة ، وقال :

— أجل .. وقد طرد الأمير سفيان بن معاوية !

ولم يفطن الى عينى خلف ، وكان هذا يختلس النظر الى

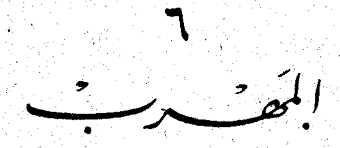
الأصمعى ، ثم يردهما اليه محذرا .. فقد كان يعلم أن تلميذه يسخط أشد السخط على من تحدثه نفسه باثارته عن طريق العلوية ، وظن أنه لا شك فاقد صوابه فى هذه اللحظة ، غير أنه كان مخطئا ، لأن الأصمعى كان فى عالم مختلف عن عالمهما تماما .. كان يستعرض شريطا طويلا لمنازعات العلوية ، ولظهور محمد النفس الزكية فى المدينة ودعوة أخيه له فى العراق ، ثم هربه من بلد الى بلد ، والمنصور مجتهد فى الظفر به .

فماذا حدث ؟

هـذا هو العتبى يخبر بأنه فى البصرة ، وبأنه طرد أميرها سفيان بن معاوية ، فما أبشع ما يرتكب ذلك العلوى ! ولم يحس الا وهو يهب على قدميه ، ثم يخرج مندفعا الى الطريق ، فيتأكد من كل شىء ، ويحس أن النهاية لا شك وشيكة ، فيأخذ نفسه شعور بالموت ، وهو فى طريقه الى بئر الحفير مرددا فى أسى بالغ :

وما يُنجى من الغمرات الا   براكاءُ القتال أو الفرار

٦



امتطى بعيرا قويّا ورحل ، فلم يكن ثمة ضرورة للبقاء ما دامت الدنيا قد انتزعت ممن استمكن فيها ، ولم يحاول أبوه أو أخوه أو أمه صرفه عن بغيته .. فقد كانوا يرون ان من يأخذ بحظ من مذهبيته لابد مذهوب به ، لأن أى علوى لن يتركه ! وكان ابراهيم فى هذه الأثناء يفرّق العمال فى البصرة ، والمنصور مشغول ببناء مدينته الجديدة التى سمّاها بغداد ، فلم يدر أيهما أكثر حاجة الى الحساب وأيهما استوجب بعمله مزيدا من الزجر ، وقد بددا شمل المسلمين وأعانا على الفتنة !

ولم يكن فى نيته أن يقصد الحجاز ، لأنه كان يعلم أن النفس الزكية قد استقر فى يثرب ، فضاع — مؤقتا — ما كان يؤمل من الجلوس الى نافع المقرىء فى مسجد المدينة ، وكان كل منزل ينزله يبدو فى عينيه غليظا جافيا اما لخوفه من أحد العلويين ، واما لاحساسه بالفراغ فيه . ووجد نفسه لأول مرة فى حياته بين الجبال الموحشة ، دون أنيس معه ، وسمع الى عواء سباعها ، فلم يزدد الا اصرارا على التفرد . وكانت اللحظات التى يلتقى فيها بأى بدوى تدفعه الى الاستمرار فى هذه الرحلة العجيبة ، برغم

ما يلقى من مشقة ، وبرغم ارهاق بدنه بصوم رمضان . وفى دومة الجندل التقى بواحد من الأعراب قميئا جافيا ، ولكنه عرف فيه أنه من بنى مرة ، فسرعان ما سأله : ما أخبار عقيل بن عُلّفة معك ؟

وكان عقيل هذا من أشهر قومه ، ولا يصهر الا الى الخلفاء وزوج ابنته « الجــرباء » — وكانت جميـــلة — الى يزيد ابن عبد الملك ، وحين سأله الأصمعى كان يجرى على القاعدة التى بنى عليها حياته وهى أن صغر شأن المرء لا يعوق اجتناء ما صح من رأيه ؛ فان اللؤلؤة الكريمة لا يشتريها غائصها ، وليس من الخطل سؤال هذا المرء القمىء ، ولقد تطلع اليه الأعرابى طويلا قبل أن يقول :

— ما حرفتُك ؟

أجاب عبد الملك بخفته الحلوة :

— الأدب !

فتبسم الأعرابى ، وقال :

— نعم الشيء ، ولكن باب التوفيق فى التأديب أن تكون نفس صاحبه كبيرة ، فانه ينزل المملوك فى حد الملوك !

قال عبد الملك جادا :

— لقد هممت به لا يغلبنى فيه فتور ، وحصلت منه شيئا .

فتنهد الأعرابى تنهيدة مستطيلة ، وقال :

— هذا حسن .. فمما يدل على كمال المرء علمه بما لم يدرك ، وما دمت سألتنى عن عقيل فلن أذب بلسانى عنه ، ولكنى آخذه بحمقه .. أتدرى ماذا قال حين سألوه : لماذا تهيج قومك ؟

وهز عبد الملك رأسه برفق ، فاستطرد الرجل قائلا :

— قال « الغنم اذا لم يصفر لها لم تشرب » أجل ، ولعله كان يقدر الأمور على نحو رآه خليقا بأهله ، وان كان لا يجرى على موافقتهم ، ولو كنت حيا لقلت له زيّن نفسك بالمكارم فى حدود ما لا يظهر به فخر ولا عجب ولا سفه ولا حمق !

قال عبد الملك :

— فقد كان اذن سفيها أحمق !

قال الأعرابى ، وهو يحدّق فى الشمس التى أوشكت على الغروب :

— كان اذا خرج يمتار خرج بابنته الجرباء ، فنزل بها وبابنه عملّس دير سعد من أديرة الشام ، ولما آن له أن يرتحل عنه قال :

قضت وطرا من دير سعد وطالما على عَرَض ناطحنه بالجماجم

يا عملّس أجِزْ ، فقال :

فأصبحن بالموماة يحملن فتية

نشاوى من الادلاج مِيلَ العمائم

والتفت الى ابنته الجرباء ، وقال لها : أجيزى ! فقالت :

كأن الكرى سقاهم صرخدية

عُقارا تَمَشّى فى المطا والقوائم

فصاح : وما يدريك أنت ما نعتُ الخمر ! وأخذ السيف ، وهوى نحوها ، فاستغاثت بأخيها عملّس ، فحال بينه وبينها ، فأراد أن يضربه ورماه بسهم فاختل فخذيه فبرك ، فمضيا بالقافلة ، حتى اذا بلغوا أدنى ماء لأعراب قالوا لهم : انا أسقطنا جزورا

فأدركوها ، وخذوا معكم الماء ! ففعلوا ؛ فاذا عقيل بارك ، وهو يقول :

ان بنيّ زمّلونى بالــدم

شنشنة أعرفها من أخــزم

من يلق أبطال الرجال يُكلم

كان الأصمعى يسمع وهو مبهوت ، وكان فى الوقت نفسه يقارن بين هذا المرّى وبين أبى مهدية ، وأبى الجاموس ثور ، وأبى مالك عمرو بن كركرة ، وأبى البيداء الرياحى ، وأبى سوار الغنوى .. الأعراب الذين لزموا المربد ، واتخذ بعضهم مجالس فى المسجد لا يبرحونها ، انهم يبدون ازاء هذا البدوى صغارا ، كما يبدو هو ازاءهم صغيرا ، ولكن أفتكون حياة المدينة ايذانا بوضع نهاية لعالم الأعراب ؟

انه يريد أن يشكر له هذه اللحظات الماتعة ، ولكن يده تغلبه ، فتمتد الى الخريطة التى يحملها ، فيخرج منها أوراقه ويكتب ، فيقبل عليه المرّى ، وهو يقول :

ـــلو لزمتنا لأعطيناك من ذلك الكثير .. فاكتب ، اكتب أن الشنشنة هى الطبيعة ، فقد تلزم هذه من يجمعون اللغة عندكم ، وأما أخزم فهو الفحل المعروف ، والبيت مثل نقوله فى كل شيء شبه بسواه .

قال عبد الملك فجأة ، وقد هز ساعديه :

ـــ هــذا أعرفه .. أخزم أحــد جدود حاتم وكان جوادا ،

فلما نشأ حاتم مثله شبه جوده بجود الجد فقيل « شنشنة من أخزم » .

فاستضحك الأعرابى وقال :

— بل يقال ان أولاد أخزم بعد أن مات ، وكان عاقا ، وثبوا على جدهم فأردوه فقال هذا الشعر !

قال عبد الملك :

— ان كان ذلك فنحن لا نعلم .. ومن العلم أن تعلم أنك لا تعلم بما لا تعلم !

قال الأعرابى :

— هذه معاظلة أهل الحضر .

فقال عبد الملك :

— بل كلمة قرأتها لابن المقفع ، وكنت أرجو لو لم يقلها واحد من الحمراء .

وهنا قفز الأعرابى على قدميه ، واتجه الى عبد الملك يعانقه ، فكانت مفاجأة لم يدر مبعثها ، وان يكن أحس أن الأعرابى انما أراد أن يؤكد له أن الأديب ينبغى ألا يسلم القياد لأحد ، وأن الحذر مع ذلك لا يوجب الادبار والنكوص ، ومن حاول الأمور احتاج فيها الى الاجتهاد والفرصة ، والكلمة الفاصلة ! فقام يعانقه وهو يقول :

— يا أخا العرب ، أظننتنى غير ما أكون ؟

فقال :

— والله هذا كان حدسى ، فهذا الوجه .. عفوا ! فللعرب وسامة لا تخفى فممن أنت ؟

أجاب مسرعا ، وقد استخفه الطرب :

— من باهلة .

فأطرق مليـّا ، ثم قال :

— أأقص عليك من أمر باهلة شيئا ؟

فلوّح عبد الملك بيديه ، وصاح :

— ان كان ذمـّا فقد كفانى معمر ، والا فهات ما تريد !

قال الأعرابى :

— مفخرة وأيم الله يا رجل ، ألم يسأل أبو جعفر سلم ابن قتيبة سيدكم : ما ترى فى قتل أبى مسلم ؟ فذكر قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » لقد قال له أمير المؤمنين بعد هذا : حسبك الله أبا أمية ! فأين الخزى ؟

وضحك عبد الملك ، ثم قال :

— ان كان كذلك فلا خزى أيها الشيخ ، ولكنى أعلم أن من خمول الذكر ما يجمل فى بعض الأحيان .

قال الأعرابى :

— أنت تتكلم كأهل البصرة ، ولولا أن الله يدعونا الى افطار الغروب لخضت معك فيما لا تعرفه عنهم وعن قبيلتك ، فما استطعت أن تناقلنى شيئا ، فهيـّا . فان وراء النجع هذا عشيرتى فى انتظار ! وكان من العبث أن يعتذر ، ثم كان من العبث أن يتحرر من قراه

بعد ذلك أياما ، وكم جلس اليه ونقل عنه فى ألواحه ، وكم أفاد وأخذ بسعة ادراكه ! الا أن ما أثاره حقا هو ما حدث فى يوم السوق ، وقد صادف آخر أيام الصيام ، فقد أحضره الى شيخ عالم بالشعر وأيام الناس ، اجتمع اليه فتية راحوا ينشدونه ؛ فكان يهب للمجيد منهم ناقة ، ويأخذ من المسىء شاة يأمر بذبحها للافطار .. وشاهد الشيخ يقرع رأس منشد لم يجد بمحجن معه ، ثم قام فتى راح يهدر بصوت غليظ ، ويقول وهو يصف ليلة :

كأن شميط الصّبح فى أخرياتها
مثلاء ينقى من طيالسه خضر
تخال بقاياها التى أسأر الدجى
تمد وشيعا فوق أردية الفجر

فقام الشيخ كالمجنون مصلتا سيفه حتى خالط ابله ، وصار يضرب يمينا وشمالا وهو ينشد :

لا تفرغنْ فى أذنىّ بعدها
ما يستفز فأريك فقدها
انى اذا السيف تولىّ ندّها
لا أستطيع بعد ذاك ردّها

واذ هم فى هذه الحال أقبل رسل عليهم فى خيل لهم يحملون نبأ مصرع النفس الزكية بالمدينة ، فقرر عبد الملك على الفور أن يركب ناقته الى الحجاز ، وهو مزمع قضاء العيد فى الطريق ، وحفزه الجو الشتوى الى ذلك ، ولم يثنه عنه أحد .

* * *

وبدا الطريق الى تيماء جميلا .. تلوح فيه أرض الصحراء معشبة خضراء ، وكان يلقى بين الحين والحين قوافل البدو فى قطعانها الصفر . واخترق وادى « كلب » الخصب حيث شهد احتفال الصبية بالعيد ، ثم مال الى احدى الواحات ، فأنفق ليلته الأولى فيها . وفى الصباح كان يقترب من مشارف « تيماء » وكان بها بعض الآثار القديمة وخرائب وقعت من نفسه أجمل موقع ، وخيل اليه أن النبى « صالحا » يدب بين أهله تاليا عليهم عظاته ، ثم خيل اليه أنه يرى « الزبّاء » تقود الجيوش لقهر الروم .

ثم مضى من « تيماء » الى « مدائن صالح » حيث أنفق شطرا طويلا من اليوم الثانى ، واستراح الليل كله ، وفى الصباح اخترق الصحراء هابطا الى « خيبر » ثم الى « فدك » قبل أن يلم « بيثرب » وقد وعت مخيلته رؤى حلوة أضفت على نفسه بعض الطمأنينة ، ولكنه لم يكن مكتمل السعادة .. فابراهيم العلوى لا يزال فى البصرة ، ولباب تنغّص عليه ساعات صفوه ، وكان وهو يصطلى بأشعة الشمس ، أو يستروح لا يجد مفرّا من أن يتعرض لأحدهما ، ومهما يكن المشهد الذى يقع على بصره جميلا فهو يغيم وراء الصورتين .. ابراهيم ، ولباب !

وشعر وهو فى المدينة — سواء أكان فى حلقة نافع بن عبد الرحمن أم مع القصاص أم فى بادية بنى عذرة — أن فؤاده يهفو الى غير ما يدوّنه ، ولقد لقى من نافع كل ود ، وكان وَرِعاً مثقفا تكسو وجهه مسحة من عناء ، فملأ فؤاده شجنا ، والتقى فى حلقته بمروان بن أبى حفصة ، وكان له عينان ضيقتان ، وصوت

صاف ، وهامة جليلة .. وتعوّد أن يجلس اليه يناقشه فى شعره ، ويدعوه غيره الى الاستماع .

وكان خلال مقامه فى المدينة يلم بمكة حيث ينزل صديق أبيه سفيان بن عيينة المحدّث الشاب المشهور ، فيجد متاعا فى أن يحفظ عنه أحاديث الرسول ، ويدوّن ما لا تسعفه الذاكرة بادراكه وكان من عادته اذا استيقظ أن يقرأ بعض ما حفظه بطريقة نافع ، ثم يستظهر نقول سفيان ، ويعود بعد ذلك الى صندوقه فيرتب أوراقه ، ويستعيد ما فيها الى انتصاب الشمس .

وقد يعنّ له أن يلقى على نفسه ما سجّل من أسفار الأوّلين واذ ذاك يرتفع صوته ، وتهتز يداه ، ويدقّ بخفة على الأرض .. ثم يعقب لسفيان على ما يلقى فى طلاقة وبساطة ، فيقول له هذا :

— من الخير أن تكون شاعرا يا عبد الملك !

ولكنه لا ينصت اليه ، لأنه كان يطفر خارجا يستشرف الأفق أو يتنسم الهواء بشغف كبير .

هذه الدراسة وما يتخللها من جدل ولجاجة لم تكن تصرفه عما يثقل على فؤاده ، وكان برغم انطلاقه وارتسام الضحكة على شفتيه فى أغلب الأحيـــان لا ينى يتوجع ويتخوّف ، ويريد أن يعود ليقارب عدوه بالقدر الذى ينال به حاجته ، لولا امساك صحبه به ، وسؤاله أن يكف عن التطلع الى قرابة الخصم ؛ فهو ان كان جاهلا لا يجدى معه الف ولا جوار !

٧

جَوَابُ البَوَادِى

شنشنة من أخزم .

وقد عرف حقا أن مثله فى الغربة كثير ، فراح ينفق مع بعض منهم أيامه مرتادا أنحاء الحلل والنجوع وكان أحيانا ينفرد عنهم ما أحس أنه يريد شيئا لا يؤثر به سواه ، وفى كل الحالات يشهد ببصيرته ويسجل بذكائه ، وتعى حافظته من النوادر ما لا تستطيع حافظة صحبه أن تعى .. وكان قد أخذ نفسه بشيئين ؛ أن يجمع من أشعار الجاهليين وأخبارهم ما وسعه ، وأن يلم ببلاد بنى عامر ليسمع من أخبار مجنونهم ما يشجيه ويسلّيه ؛ فقد كان يحس أن حب لباب ينوء به .

وكانت تنقلاته المستمرة قد أوحت اليه بوضع كتاب فى جزيرة العرب ، يسميه هـذا الاسم نفسه ، ولكنه رأى أن الضرورة تقتضيه أن يطوف بكل مكان أولا ، وأن يحتشد لوضع كتب جانبية تعرض لما رأى من عيون ماء ونبات وشـجر ، وفى أثناء ذلك نجح فى تأليف أول كتاب عن نوادر الأعراب فى اللغة .

ولم يمض أسبوعان على اذاعة كتابه حتى هبط أول حاج العراق فعلم منهم أن ابراهيم العلوى قتل ، وهو يريد الكوفة ..

قتله عيسى شقيق المنصور بعد معركة عنيفة فى مطالع ذى القعدة ، فانتهت وساوس عبد الملك ، ووجد من راحة البال وصفاء النفس وطيب الخاطر ما يهيىء له فرص النجاح .

وفى يوم خروجه من الطائف وقعت يده على قطعة كبيرة من شعر عنترة ، فسعد بها . وفى بلاد بنى عامر التمس من أخبار المجنون أطرافا ، فلم يظفر بغناء ! وكانت تلك البقاع فى هذا الفصل من السنة ، وهذه المشاهد من البرّية ، وهذا الذبول البادى على كل شىء .. كان ذلك كله يوحى له بالقلق والاشفاق ، فلما وقعت عيناه على أعرابى توسّم فيه رجاحة التفكير سأله عن المجنون ، فقال :

— عن أيهم تسألنى ؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون ، فعن أيهم تسأل ؟

قال دهشا :

— عن الذى كان يشبب بليلى .

فقال الأعرابى :

— كلهم كان يشبب بليلى !

واهتز .. فالى هذا الحدتختلط الأمور ، وليس ببعيد أن تكون حكاية الجنون نفسها باطلة من أساسها ، واذا صح أن ثمة من وصف بما شاع عن أى فتى من بنى عامر فلا يخرج الأمر عن لوثة كلوثة أبى حيّة النميرى الشاعر الذى عرفته البصرة منذ سنوات ، وربما لو كلف نفسه مشقة سؤال بنى عامر بطنا بطنا لما ظفر ببيت واحد يرضى أن يجعل منه المجنون !

ومع ذلك فقد شاء أن يمضى مع الأعرابى الى نهاية الشوط ، فان قوله فى حد ذاته فضلا عن طرافته خليق بأن يقفه على لون الحياة الفكرية التى يعيشها قطاع من قطاعات نجد ، فقال له :

— ألا أنشدتنى شيئا لبعضهم ؟

فقال :

— هاك ما أحفظه لمزاحم بن الحارث :

الا أيهــا القلب الذى لجّ هائمــا
بليلى وليــدا لم تقطع تمائمـــه
أفق قد أفاق العاشــقون وقد أنى
لك اليــوم أن تلقى طبيبا تلائمه

وتوجع عبد الملك .. وكانت نبرة الأعرابى الحلوة تأخذ بلبّه ، ويزيده اكتئابا هذا الفتور الذى يستحوذ على الأبيات ، ولكنه لم يكن يريد أن يلقى بنفسه فى مهاوى الأسى ، وقد زال الكابوس عن بلده ، فقال له مقاطعا :

— هذا حسن .. ولكن ألا أنشدتنى لغيره منهم ؟

فقال :

— اذن فاسمع لمعاذ بن كليب المجنون :

الا طالما لاعبت ليلى وقادنى ... الى اللهو قلب للحسان تبوع
وطال امتراء الشوق عينى كلما ... نزفت دموعا تستجدّ دمــوع

القصة نفسها .. عجيب أن يتوارد الحب على هــذا النحو ، أفلم يلق لباب صبية صغيرة ؟ وهل اختلف قلبه عن قلب هــذا المجنون ؟

ولكنه لم يبك ، ولا يريد أن يبكى .. فثمة من يقدر على أن يأنس به ، فينسيه اللوعة ، فاذا بدا مريضا فهو المرض الذى يوقد المشاعر بحيث لا تيأس . حتى وان راحت مع الموت اندماجا وتلاشيا ، وقد صح منه العزم منذ بعيد أن يجعل فكرته عن الحياة — فى حدود عقيدته الدينية — حائلا بينه وبين التورط فى أمور قد يندم عليها الى الأبد ، ومع ذلك فلا على الأعرابى من بأس اذا نقله الى شاعر آخر ، فقال بعد أن فرغ :

— فأنشدنى لغير هذين ممن ذكرت !

فقال :

— أنشدك لمهدى بن الملوح :

لوان لك الدنيا وما عدلت به
سواها وليلى بائن عنك بينها
لكنت الى ليلى فقيرا وانما
يقود اليها ود نفسك حينها

هو يصطنع منطقا .. وشعره على ذلك بعيد عن أن يعلق بالقلب علوق غيره ، وما يظن أن مجنونا يقدر أن ينسق معناه هكذا بحيث يثير الذهن ، والا فقد يكون صاحبه أعقل من الراوى والسامع جميعا .. ألا يدل هذا على شىء ؟

— بربك يا أخى ، أنشدنى لمن بقى من هؤلاء !

— حسبك ، فوالله ان فى واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم !

وصعق عبد الملك ، فقد كان كلام البدوى بمثابة انعكاس

مباشر لما فكر فيه ، وبدا أن ما يغـرى الانسان بانسان توافق فكريهما . فكم يكون مقدار حبه لأكثر الذين يعمرون المسجد الكبير بالبصرة ، لو أنهم نهجوا نهجه هو فى التفكير ؟ هل كان ثمة ما يوجب التحفز والاستعداد لغد قد تغيب شمسه ؟

ووكز حماره وسار ، ولا يزال يحلّق بخياله هنا وهناك .. هو فى البصرة حينا ، وهو فى مضارب بنى عامر حينا آخر ! هو يلم بمعمر بن المثنى ، ويطوف بليلى مرة أخرى !

وعلى كل حال فقد أخذ نفسه بأن يبت برأى قاطع قبل أن يخرج الى البرارى المجهولة ، والقفار الغامضة .

غير أن المسألة لم تكن فى تلك السهولة التى يتصورها ؛ لأن أشياء أخرى كانت تعرض له ، فتصرفه صرفا عما يريد . وهذه الأشياء لم تكن لها ضابط معيّن ، ولم يكن خروجها الى حيز تفكيره فى وقت مخصوص ؛ فلقد تصوّر أن يعود تواً الى مكة ليعكف على شعر عنترة ، ولكن تفكيره فى « كتاب جزيرة العرب » نحّى هذه الفكرة مؤقتا ، ثم عنّ له أن يؤلف كتابا فى الحيوان ، أو فى الخيل فقط ، الا أن شغفه بالنوادر تغلّب عليه فى آخـر الأمر لا سيما حين رأى أحد العامريين قاعدا فى ظل خيمة له ينشد :

أحقا عبـاد الله أن لست ناظـرا
الى قرقرى يوما ، وأعـلامها الغبْر
كأنّ فؤادى كلما مـرّ راكبٌ
جناح غـراب رام نهضا الى وكر

اذا ارتحلت نحو اليمـــامة رُفقة

دعاكَ الهوى ، واهتاج قلبك للذكر

ولم يكن نجاحه الى أكثر من هذا ليقبل عليه ، وهو يعجب لهذا السحر الذى يستحوذ على بلاد العامريين ، فلما رآه قال له :

— أأعجبك ما سمعت ؟

— أى والله !

— أأنت من أهل الحاضرة ؟

— نعم !

— فمن تكون ؟

— لا حاجة لك فى السؤال عن ذلك !

— أو ما حل الاسلام الضغائن ، وأطفأ الأحقاد ؟

— بلى !

— فما يمنعك اذن ؟

— أنا امرؤ من قيس !

— الحبيب القريب .. من أيهم ؟

— أحد بنى سعد بن قيس ، ثم أحد بنى أعصر بن سعد .

— زادكَ الله قربا .

ثم نهض ، فأنزله عن حماره ، وألقى عنه اكافه ، وقيّده قرب خيمته ، وقام الى زَنْد فاقتدح وأوقد نارا ، وجاء بصَيْدانة فألقى فيها تمرا ، وأفرغ عليه سمنا ، ثم ذرّ عليه دقيقا ، وقدّمه له ، فقال :

— انى الى غير هذا أحوج .

فتساءل البدوى قائلا :

— وما هو ؟

أجاب :

— تنشدنى !

وحدق فيه الرجل مستضحكا ، ثم قال :

— أصب فانى فاعل .

وانصرف هو الى طعامه ، فجعل يزدرد منه ازدرادا ، وأمّا عبد الملك فقد لقم لقيمات ، ثم لم يلبث أن قال :

— الوعد !

فأجاب الرجل وقد أدرك أن لاسبيل الى التسويف بعد ، فأنشـــد :

لقد طرقت أم الخشيف وانها
اذا صرع القوم الكرى لطروق

فياكبدا يَحْمَى عليها .. وانها
مخافة هَيْضات النوى لخفوق

أقام فـــريق من أناس يودهم
بذات الغضا قلبى ، وبان فريق

بحــاجة محزون يظلّ وقلبه
رهينٌ ببضات الحجال صديق

تحملن أن هبت لهن عشــية
جنوب ، وأن لاحت لهن بروق

كأن فضـــول الرقْم حين جعلنها
غَدَ يّا على أُدْمِ الجمـــال عذوق
وفيهن من بُخْت النساء ربَحْلة
تكَاد عـــلى غر الســـحاب ترّوق
هجان فأما الدّعْص من أخـــرياتها
فَوَعْث ، وأمّا خصرها فدقيق

وراحت الأخيلة البلّوريّة تعلو به ، وتتهادى . وأخذ فى كل جلالها الرائع يشرف على الأبلّة ، وماوالاها .. طريق المربد والدرب الذى ينحدر الى قصر الباهليين ، ورأى النسيم .. رآه فى موجاته الخفية يداعب الشجرات التى تنعقد على الباب الكبير ، وتنفتح فى وجه العبد الزنجى الذى يفتح الخوخة ، والدهليز الطويل ، والبستان الناضر ، و .... أشياء أخرى عبقة حلوة ، أحلاها وجه لباب ، وأما خصرها فدقيق !

وكانت القصيدة أكبر مما تدل عليه ، لأنه يعيشها ، وتروى حكايات الرحيل على نحو فريد ، وترسم صور الحسن كما يحبّ هو أن تكون ، ومع ذلك فالأمر الذى يشغله عن قيس بن معاذ العقيلى — وقد تحقق هذا — لايزال يأخذ بأعماقه .. فقال بعد أن قام يحتضن الأعرابىّ :

— كم أحب معاودة انشادك ، فأطرب بغزل الغـــامريين ، ولكنى أسأل أترى كل شعراء هذا الحىّ هكذا ؟

أجاب الرجل :

— ان أردت أن تَخَبَّرَ بشيء من هذا ما كنت بأشكر منى لك ، ولكن الملالة فى الحديث .

قال عبد الملك :

— بل تكلم ، فان صناعتى الكلام !

قال الأعرابىّ :

— لا تسألنى قبل من أكون حين تسمع ، ولا أخبرك الاّ أنى رجل من عذرة هل بلغت بك الى الفخذ الذى أنا منه ؟ وأما شعر المجنون فالذى ألقى عليه أكثر مما فى الظنون !

قال عبد الملك :

— ماذا تعنى جعلت فداك ؟

أجاب :

— أنا واحد أضفت اليه أكثر مما أحفظ له !

قال عبد الملك ، وهو يزفر :

— وجنونه ؟

أجاب :

— لا تظن فى العشق ما يسلمه الى العطب ، وان كانت لوثة المحب جنونا فنعم الجنون !

وقام عنه عبد الملك مضطرب البال مزعزع الثقة ، فلم يكن يظن أن اختلاق الشعر مقصورا على الموالى ، ولم يكن يظن أيضا أن شغف الناس بشيء ينتهى الى هذا النحو من الأكاذيب . الا أن ما خفف عنه بعض الشيء أن الأعراب ليسوا كلهم هذا الرجل ، وأن الراوية منهم اذا لم ينتسب سقطت روايته ، وينبغى فى هذه

الحال أن يختبر طبيعة الواحد منهم ولا سيما اذا هجر باديته الى الحضر .

وكانت هذه قاعدة آلى على نفســه أن يرتكن اليها دائما ، ومن ثم شرع — وهو ينظر فيما جمع من شعر عنترة — يفسر ما نسب اليه على ضوء الأحداث التى عرفت عنه فى الصحراء متغلبا على وعثاء الترحال فى المجاهل البعيدة .

٨

بَيْنَ هُذَيْلٍ وامْرِئِ القَيْس

كان اجتياز نجد الى منـــازل قيس عيـــلان أروع آمال عبد الملك ، فقد كان يطمع فى أن يرى تلك الأرض التى أنبتت البطل الذى قهرته الخيانة ، ولم يقهره أحد . وهو يريد أن يحط فى « الجواء » حيث لعبت عبلة مع أترابها ، فشغف بها البطل ولان لها ، الا أنه لم يشأ أن يتوجه اليها حتى يلم باليمامة من منتجع أهله الأولين ، ويأخذ بحظ مما فاته عن الشرق البعيد .

وكانت خطته أن ينزل بثقيف ، ثم بكعب بن ربيعة ، ثم يعبر « الوبر » التى ذكرتها أساطير سبأ ، وفى بعض الطريق حدث ما قلب خطته رأسا على عقب .. اذ التقى بخلف بن أبى عمرو ، زميله فى الدراسة — وان كان يكبره — وابن أستاذه الذى أصبح تواقا الى أن يراه ، وقد أنهى اليه خلف أن المنصور جعل على البصرة ابن أخيه محمد بن أبى العباس المتعته ، فقدمها فى جماعة من الشعراء والمغنين وأهل اللهو ، منهم حكم الوادى ، ورهاف ، وحمّاد عجرد ، وحماد بن يحيى ، وراح يعبث معهم ، فاتهم بما يتهمون به من زندقة !

— وخليفة المسلمين يا خلف ؟

— نقض ايــوان كسرى والمدائن ، وارتحل الى بغداد ، وارتحل مسلم بن قتيبة الى الرى أميرا .

— أنا لا أسأل عن هذا !

— كل شىء تغيّر ، وقد خلفت فى جامع البصرة معمر بن المثنّى شيخا فى حلقة جديدة يقرأ قوله تعالى « انا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ثم يخوض فى أخبار الأولين !

— ويحه ! ويحه ! أما كفى قومنا أن يفسحوا له مكانا حتى جعلوه معلّما .. انظروه فان السّقط ليحرق الحرَجة [1] !

— وددت يا أصمعى لو جلست اليه ، فكنت توافق عجبا .

— بل العجب أن تصرفنى به عما سألت عنه .. عن الشر يتركه الخليفة أسأل .

— يريد أن يبغض الناس فيه فيرتفع ابنه المهدى عندهم ، فتركه وتركت البلد وقــد عزم على أن يعترض القــوم فيه يوم الجمعة ، فيقتل كل من يجد ممن خرج مع العلوى .

هـكذا .. هـكذا !

فما الحاجة الى البصر بالعقل ، وأولو الأمر متهالكون على المتاع الحقير ؟ والناس .. هذه الفئات التى لا تملك الا مخاصمة نفسها بالشر ، ليس فى عزمها أن تحاسب على الخير حتى لا ينكل بها ، فهل ينفع الحساب ؟ هل ينفع والذى جعل منه فى الباطل لا سبيل الى أن يعود الى الحق المغلوب ؟

---

(١) السقط : مايسقط من الزناد اذا قدح ، الحرجة : الشجر الكثيف والجمع احراج وحراج .

كلما أتيح له أن يرى فى الموقف خيرا محاه ، وكلما نظر الى ما يمحوه اكتأب له ، ورأى أن أكثر جدوى على الخير أن يلتفت السلطان الى مثل ابن أبى العباس ، ويدع العلويين الى حين ، وان يكن منهم كل الموالى الذين يقرأ معمر عنهم آية التسوية ؛ فان أول الأشياء على عقل العاقل حسن التقدير ، وسأل عن أبى عمرو ، فقال له خلف :

— ما وافقه أحد الا سأله ما فعل اليوم أُوَيْس" فى الغنم .

وتضاحك عبد الملك فى مرارة ؛ فلا يزال العلماء مشغولين بعلمهم ، ولا يزال واحد كأستاذه يعيش مع الماضين ! انه ينظر الى حياته بعين الجدود لا يعرفون ضرا أوصل الى نياط القلب من الحاجة الى من لا يأمنون ضره .. هذا هو أبو خراش الهذلى منهم ينطقه بما يوافق شن طبقة ، فابن أخى المنصور هو أويس .. هذا الذئب الذى يفتك بالغنم ، بالناس الطيبين كالحملان !

وقفل عبد الملك الى مكة ، وقد صحت نيته على العـودة مهما تكن الأحوال ، ولكن بيت أبى خراش وما يحفظ من شعر أبى كبير الهذلى سوّغا له أن تكون عودته عن طريق السراة من بلاد هذيل . فجمع صناديقه ، واتجه فورا مع خلف الى « نعمان الأراك » واستمتعا فيه بعين ماء ، وشجر وارف ، وحديث مع البدو المنتمين الى بنى لحيان . وعلى المساء دخلا قرية يقال لها « عسفان » غزا الرسول فيها هذه العشيرة الضارية من هذيل . وفى الفجر تماما ارتحلا شمالا الى « رهاط » فوصلا على الصباح حيث استمتعا برؤية جبل « شمنصير » الذى لم يرقه أحـد ،

ولم يعرف انسان ماذا فى قمته ، ولكن المياه كانت تفيض حوله من سبعين عينا ، أو نحو ذلك .

هنا حطّ الأصمعى رحاله ، وبدأ أول اتصال علمى بينه وبين الهذليين ، وقد شكر للظروف التى هيأت له ارتياد هذه البقاع التى سكنتها هذيل ، وراحت تثب منها على القبائل الآمنة ، ولا سيما كنانة وقريش وثقيف . ان هذه القبائل تعيش اليوم فى وئام جنوبى البصرة حيث تنزل عشيرة الأصمعى نفسه ، بل هى تكون خمسا كاملا من الأخماس ، وهذيل فيه تشارك بما تقدر عليه ، بعد أن أقامت علاقاتها قبل الاسلام مع جاراتها على المنافسة والتربص والعداوة !

ولقد قبل عبد الملك وخلف مبتهجين دعوة تلقياها من شيخ ذكر أنه من سلالة أسامة بن عمير الصحابى ، وأبى المليح المحدث المشهور ، ولم يكد يخبره أنه يحفظ لأبى قلابة — أول شعراء هذيل — حتى فتح صناديقه وقلبه وعينيه جميعا . لقد كان هذا الشاعر الجاهلى عم المتنخل ، وكان هذا أستاذا فى لحيان ، بل فى بطون هذيل كلها !

ولقد لقى الأصمعى عند هذا الشيخ من أشعار أبى قلابة فوق ما يريد .. كان هو بشوشا يشوب طبعه مسحة من رقة على غير ما عهد من الأعراب ، ووجد خلف من الأخبار عنده ما سجله لأبيه ، واستمتع الاثنان بلذة الانشاد التى حرماها بعض الوقت ، وكان آخر عهد الأصمعى بها لقاءه مع أعرابى بنى عذرة .

كان الشيخ يردد فى ثقة ما يحفظ فى حين كانت ابنته تُطل

عليهما من خبائها فيشهد عبد الملك فى نقاء صفحتها وجه لباب ، وتقدم لهما الطعام أحيانا ، وترحب بهما بصوتها العذب الصافى ، فيتمنى أن يبدله الله بها حسناءه البعيدة . وحين كانت تعين أباها على رواية أو خبر لم يكن يند عنه قط عبـارة ضيق ، ولكن عبد الملك ما كان ليستطيع أن يكف عن مقارنتها بجارية الباهليين التى تفوقها ذكاء واتقاد ذهن ، ولما سمعت أباها يصف أبا قلابة بأنه كان اذا قاتل غلب ، واذا سئل وهب قالت :

— ولكنه كان اذا نادى القـَتول أرجع ، فان سألته بلحظها ردّ قبل أن تنطق !

قال الأصمعى ، وقد أخذ :

— فقد كان عاشقا اذن ؟

أجابت :

— كان يأتى القتول ويتحدث اليها ، ولا يعلمها بما هـو عليه ، حتى سل جسمه ونحل بدنه ، فلما أنشد :

يا حب ما حب القتـــول وحبها
فَلَسٌ فلا يُنْصِبنكَ حب مفلس
هل يُنْسيَنْ حب القتـــول مطارد
وأفلُّ يختصـــم الفَقَـــار مسلَّس

ساءها قوله وكرهت أن ينشر خبرهما ، فأظهرت هجره . فما برح عليل القلب والبدن لا يجد عـزاء الا فى الغضب ، والشريجة الجشاء !

وبقدر ما بهرته قصة أبى قلابة ، وذكرته بما يحكى عن عنترة

بهره وصفها القوس بالجشاء .. تريد فى صوتها بحة ، وكان ايثارها نعت السيف عليه من ناحية أخرى لفتة الى ما عرف من فصاحة قومها ، فأقبل يدوّن وهو مغتبط ، لا يصرفه شىء ، وخلف قبالته يعجب لدأبه ، ويقول له :

— حقا أنت حتف الكلمة الشرود !

ولكن الشيخ لا يلبث أن يستعيد طرف الحديث ، ويخوض به فى يوم الأحث .. حيث اقتتلت فيه بطون هذيل : لحيان ، وخزيمة بن صاهلة ، والدافع جار أخذ من لحيان وبيع ، فقال أبو قلابة وقد ثقل بعد شباب وذرأ رأسه :

— انطلقوا لنكلم بنى عمّنا فى جارنا الذى أخذوا ، ونحن لعمر الله نخشى جهلهم ولكن اظعنوا بالبيوت ، وليذهب القوم فليسألوا فى جارهم الرضا ، فان أرضوا فالحال هيّن ، وان طارت بيننا حرب وجّهنا الطعن نحو الحرم .

— حرّ انتصر .. ولكن ماله والحرم ؟

— آل لحيان أقل حظا فى الرجال من أن تكون منهم .. لقد كان بنو خزيمة بذى مراخ قرب مكة !

— فاقتتلوا فيه ...

— نادوهم من بعيد وسيدهم وبرة بن ربيعة ، ولم يقدموا لهم .. فرمى غلام من بنى خزيمة نحو لحيان ، فقال فارس منهم « أرونى سيّد القوم » فأشاروا الى وبرة ، فنزع له اللحيانى بسهم ، فعقى به نحوه فلم يخطىء قلبه ، وتصارخ الناس من كل أوب ، والتقوا بصعيد الأحث ، فقال أبو قلاية : « لابد لكم بهم

اطلبوا خفركم ، فان رد عليكم فالخطب أيسر ، والحال هيّن ، وان كان بينكم قتال كنتم قد وجهتم ظعنكم موجها » فأبى القوم كلهم عليه ، وسار حتى جاءه واحد من خزيمة يقول :

— استأسر يا أبا قلابة فأنا خير من أخذك !

فقال :

— انكشف عنى لا أبالك ، فان وراءك رجلا خيرا منك .

وأسرع أبو قلابة مستصغرا شأنه ، فأدركه الثانية وهو يقول :

— استسلم يا أبا قلابة ، فمالى بد من أخذك .

قال :

— فادن دونك .

فدنا فقنعه أبو قلابة بالسيف ، فقتله ، ثم أدركهم خزيمة ، فلم يزالوا يقتتلون حتى غيّبهم الليل .

وفى الصباح عاد أبو قلابة ليأمر قومه بالرحيل شمالا الى غران وفيدة وقال بعد ذلك ما يملأ الصفحات الكبار ، فاكتب ...

وأخذ يملى عليه من شعر الرجل ما يملى ، وعبد الملك آخذ نفسه بألا يرحل حتى يجمع لكل هذلى ، أو لكل لحيانى على الأقل . فقد أحس فى شعرهم هذه الديباجة العربية التى طمسها الموالى ، أحس بالجزالة لها هدير فى أذنيه ، وبقوة أسر لا يدرى مأتاها ، ولكنها تهز أعماقه هزا ! وكان لابد لذلك من أن يبقى بعض الأيام ، وخلف يستحثه ، غير أن اغراء الهذليين كان فوق حاجة خلف الى الرحيل .

لقد كان يحفظ للهذليين عينية أبى ذؤيب ، ويرى فى بعض أبياتها اعجازا لا يملكه كل شاعر ، كما كان يروى بعض مقطعات لأبى كبير . غير أنه وجد أن المنزلة التى احتلها هذان الشاعران الهذليان ليست دونها المنزلة التى وصل اليها أبو قلابة ، وابن أخيه المتنخل ، ثم أين بعد ذلك ساعدة بن جؤية ، وأبو خراش ، وصخر الغى وأبو جندب ، وذو الكلب ، وجنوب أخته ؟

من هنا صح عزمه على أن يفرد كتابا لهذيل . يجمع فيه كل شعرها ، ويستعين على ذلك بكل من يجد فى السراة التى توزعت فيها هذيل من قديم . فلما فصل عن عسفان صعد شمالا حتى نزل بأنف جنوبى يثرب ، وكان بها بقايا من ديار قرد الهذلية ، تتلو ديار بنى سليم فى وادى « عاذ » وتتخللهما بيوت من هوازن اجتمعت قربها هذيل على بنى ظفر من سليم ، فكان يوم أنف عاذ المشهور .

رأى دون ما يبتغى عقبات شتى أهمها ارتحال معظم بنى قرد الى جنوبى البصرة ، فآثر أن يرحل الى « الجرف » وكان يسكنه بنو سهم بن معاوية ، ويبعد عن يثرب ليلتين أو ثلاثا ، قيل له انها لا يمكن أن تخلو من المتاعب ، ولا سيما فيما يثيره الخلعاء ، وقطاع الطريق .

وقد أراد خلف أن يتجنب شر ما قد يلقيانه ، فاقترح العدول الى طريق الحاج ، فأبى الأصمعى ، وراح يعدّد له مآثر التغرُّب ، وركوب المخاطر ، وقال انه لا يفعل ما يريد ما ان فى السماء

نجما.. وهذه عبارته ، وكان قد بدأ يفكر فى وضع كتاب عما تقول العرب فى مجىء لا أفعل ذلك أبدا !

وفى الجرف نجح فى أن يجمع أكثر شعر أبى كبير الهذلى الذى قصد يثرب ليسلم ، ويرى الرسول . وسجل لأمية ابن أبى عائذ ، وأسامة بن الحارث ، وأبى العيال شيئا ضخما ، ورأى أن فيما يروى لهم ما يجدى على اهتماماته اللغوية .

وقرر أن يروع شيخه أبا عمرو بما جمع ، وأما عن دور أستاذه أبى محرز فسيتحدد حين يقرؤه عليه ، ويضيف اليه ما قد يجد عنده أنه فاته .

وسارت القافلة الصغيرة فى طريقها الى تيماء ، فما أسرع ما تذكر امرأ القيس وبنى أسد ، وما أسرع ما استعاد بطولته ليرى رأى العين الأماكن التى ذكرها فيها . وكان دخوله تيماء على غيث تجود به السماء ، فتذكر على الفور واقعة جرت مع أستاذه ، فقال لخلف :

— أتدرى ماذا فعل أبوك فى شىء كهذا ؟

قال خلف :

— قد تكون أنت خير من يجيب !

قال عبد الملك :

— سأل ذا الرمة على ما حدثنى أى الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ، فقال : قول امرىء القيس

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرّى وتدر

تخرج الوَدّ اذا ما أشجذت   وتواريه اذا ما تشتكر

اننى أقول انه يجب أن يكون ، وكذلك عبيد بن الأبرص ، وقد كانا تربين يضربان هنا فى منازل بنى أسد ، ويصفان المطر معا ويحسنان فيه . لقد سمعت عن أبيك شيئا من شعر امرىء القيس ، وعن حمّاد شيئا آخر ، وسأسمع اليوم عن الأعراب ؛ وليكن بعد ذلك كتاب جديد !

غير أن وقوعه فريسة للمرض قعد به عن غايته ، وكانت بقية الرحلة الى دومة الجندل عناء أى عناء . فلما نزل بوادى بنى العنبر اذا فتية يريدون البصرة ، فانضم اليهم وصباً محموما ، فشغلوا به شيئا ، ثم صحبوه وهو لا يستمسك على راحلته ، فلما رأوا ضعفه حملوه ، وقد ركب أحدهم وراءه يمسكه . وكان خلف حزينا كسيرا ، لا يكاد يقترب منه حتى يعود الى صناديقه التى أوصاه بها ، حتى اذا أمعنوا فى السير تنادوا :

— ألا فتى يحدو بنا أو ينشدنا ؟

فارتفع صوت ينشد فى جوف الليل بصوت ند حزين :

لعمرك انى يوم بانوا فلم أمت
خُفاتا على آثارهم لصبور

غداة المنقّى اذ رَمَيْتُ بنظرة
ونحن على متْن الطريق نسير

ففاضت دموع العين حتى كأنها
لناظرها غصن يراح مطير

فقلت لقلبى حين خف به الهوى
وكاد من الوجـد المبرح يطير
فهذا ولما تمض للبين ليلة
فكيف اذا مرّت عليك شهور

وبكى عبد الملك .. فقد مرت عليه هو شهور ، وكأنما كان بكاؤه قد غسل عنه الحمّى فسرى عنه ، وهمس لرفيقه :

— انزل الى راحتك فانى مفيق متماسك ، جزاك الله وحسّن الصحبة خيرا .

٩

يَوْمُ الأُستاذِ الأول

مرت أيام بعبد الملك خيّل اليه فيها ، وهو يستحضر وجه صديقه معمر — بعد أن قص عليه أخوه عبد الله من أخبار تفوقه ما قص — أنه ما زال هناك متسع لاراعته بما حمل هو من العلم ، وهو لم يبرح البصرة قط ! وحاول فى دفترين أن يجعل نقطة البدء شعر امرىء القيس ، ولكنه لما أمعن فى تفكيره آثر أن يقدم ما جمع من شعر هذيل . ولكن كتابه الذى سجّل فيه معالم الجزيرة كان يثير فى نفسه من التيه شيئا ، ثم انتهى الأمر أعجب نهاية ، وذلك حين راح يردد لنفسه « ولماذا أشغل به من دون الآخرين ؟ » .

وكان معنى ذلك أن ينفض يديه — ولو الى حين — من معمر ، ثم ينصرف الى ما يعنيه ، ويعنى فؤاده ، وفى البصرة هذه التى لا يعلم من أمرها الا أن تكون على أهبة للسفر الى المدينة الجديدة . وكان يخفف عنه أن بعض أهل الأمير الباهلى لا يزالون فى قصرهم العتيق ، فظل وهو يرزح تحت وطأة الحمى يصر على أداء حق الزيارة لمنتجع هواه !

ولما برأ تغيّر — كالعادة — كل شىء قدّره ، وقصد دار

أستاذه أبى عمرو ذات صباح ، وأطلعه على ما دوّن ، وقرأ عليه من حفظه ما أدهشه ، وكان شاهدهما خلف بن أبى عمرو ، فسمع ما تم بينهما على تكوين حلقة جديدة فى الجامع . اذن فقد أجاز أبوه تلميذه الحافظ الذكى ، وحفز عبد الملك الى المبادرة بطلب الاجازة ، رغبة فى وضع الأمور فى نصابها . فاذا كان الحق أن يقال ان عبد الملك تعجل الطلب ، فأكثر من الحق أن أستاذه كان يرى فيه أقوى يد يستند اليها بعد أن شاخ وضعف وقرر أن يلزم بيته . بل رأى أنه لا يقل كفاية عن معمر الذى تولى اجازته فى المسجد ، فلا أقل من أن يُعطى هو الآخر فرصة ، ويعينه على التقدم حتى يصل الى الغاية .

ولم يكن عبد الملك منذ أن غادر الجامع لآخر مرة قد تصور ما عاد يحدث فيه ، ورآه الآن فى ساعة ثقلت فيها نفسه بعبء الرسالة الجديدة ، فلم تسعده الرؤية كثيرا . وأحس يدا جليدية تعصر قلبه ، وهذا معمر على مقربة يرمقه ، وكأنه غريب ، ولم تزل تلك الطلعة الجافية ولكنه أرسل شعر عارضيه من تحت عمامته التى كورها فوق رأسه كالجبل .. طويلة طويلة ! وقد بدّل طولها من سماته حتى تردد عبد الملك وقتا يكاد لا يقطع بأنه معمر !

ومع ذلك فقد كان هو ، ولم يقبل عليه لأنه أصبح من الذين يُقصد اليهم ، وأتاه صوته أجش غليظا . وبرغم ما فى عبارته من سوء فقد تبيّن أنه يغوص الى الأعماق بلسان فوقه عقله ، بذكاء دونه حزمه ، والا لما زعم أنه لو ذهب علمه لجلس قاصّا ، فكأنه يرى أنه يميل الى هذا الضرب من المعرفة .

معمر .. أو أبو عبيدة يحس أنه يأنس من نفسه هو القدرة على الحكاية ، فيعرض به ، مع أن اللحية — يا معمر — ليست وافرة بيضاء ، والسمت ليس حسنا .. يا للماكر الذى لا يشبهه الا صعاليك الجبل ، وزط البطيحة !

وتم كل شيء ، وأقبل المهنئون حتى معمر تحرك ، ولما احتضنه وأحس بطنه تضرب صدره قال :

— ويلك يا أبا عبيدة ، فيم هذا كله ؟

وأشار الى القبة المكورة ، فقال معمر وهو يضحك :

— وما بكم من نعمة فمن الله .. صدق الله العظيم ، ولكن كان ينبغى أن تسأل كيف تكون عند الجولة ، وكيف ثبات الجنان عند السؤال .

قال عبد الملك :

— أنالها يا أبا عبيدة ، فقد توصلت بالملح ، وأدركت بالغريب :

قال أبو عبيدة :

— ما نراك يا هذا الا بشرا مثلنا .

وهنا تضرّج وجه عبد الملك ، واتقدت عيناه ، وتقلّصت شفتاه ، وبدا كما لو أنه يهم برفع كفه الى وجه معمر ، ولكنه اذ يتمالك نفسه يقول :

— يابن هذه الحمراء التى تملأ بيت الله .. انك وان كنت فوق أبناء هذا الزمان فان التيه مسخك ، والعجب أفسدك ، فلا أدرى كيف تسوق قول الله يحرفه هواك ، فهلا قلت : « ما نراك الا بشرا مثلنا » .

وانقلب معمر الى عموده ، وهو يقول :

— والله لست دونه معتقدا ، ولا أرانى الا مصححا بعيدا عن الفساد ، ومن غد أقدّم له رسالة فى كتاب الله .

وفى هذه اللحظة وقع مالم يكن فى حسبان عبد الملك قط ، فانه لم يكد يأخذ مجلسا له فى أقصى المسجد حتى قدم عليه ثلاثة كهول ، أكسيتهم متشابهة ولكلٍّ قلنسوة مكورة ، فأكبوا عليه يعانقونه واحدا بعد الآخر ، فانتظر حتى انتهوا ثم قال :

— فأنتم اذن من أهل المسجد تطلبون العلم عندى ؟

قالوا بصوت واحد :

— بل ندعوك الى أصحاب « الجمع والمنع » .

قال عبد الملك دهشا :

— ومَن هؤلاء حتى أدعى اليهم ؟

قالوا :

— ممن ينتحلون الاقتصاد فى النفقة ، ويكتسون هـذا الكساء !

قال :

— وأنا منهم ؟

قال أحدهم :

— كنا فى غيبتك اذا التقينا تذاكرنا أصحابنا ، وتطارحنا أخبارهم ، فوجدناك أقرب هؤلاء الأصحاب .

قال :

— ولكنى .. ولكنى لا أفتـح فيما تدعون اليـه بابا من

الاصلاح ، فكيف والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » .

قالوا فى نفس واحد :

— وقال أيضا « ولا تبسطها كل البسط » .

ثم انبرى واحد منهم وقال :

— فأعد قلنسوة كهذه واستحضر مثل ما نرتديه .. لا نضع الوش والخز ، ولا نعلق المعصفر ، ولا نتحلى بالذهب .

وتطلع عبد الملك حوله فرأى عشرات العيون تحدجه ، وأحس بأيد تدفعه ، وتجذبه . فلم يكن بأسرع من أن حاذ عنهم الى يمين يلوذ بخلف بن أبى عمرو ، والكهول الثلاثة يتضاحكون ، وقد تصور أنهم مدفوعون فى تدبير من تدبيرات المسجديين .

وحدّث خلفا بكل ما وقع منهم ، فأخبره أنهم من أهل مرو ، وأنهم يترافقون ويتلازمون ، ويجمعهم المساء على نوادر تضحك لها جدران المسجد . وقد سمع من بعضهم أنهم لا ينتعلون نعالهم الا ستة أشهر فى السنة ، وفى هذه الفترة يمشون ثلاثة أشهر على صدور أقدامهم ، وثلاثة أخرى على أعقابهم حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم الا ثلاثة أشهر فقط !

وضحك عبد الملك ، ولكنه كعادته وجد فيما سمع سبيلا الى وضع مشروع جديد ، فلو جمع أخبار البخلاء لكان فى خزانته ما يزيل السأم ، ويدفع الى النشاط ، ويفيد فى ساعات لا يدرى أحد من أين تأتى الفائدة .

١٠

الدرس الأول

وفى اليوم التالى دخل عبد الملك المسجد ، وقد سبقه طلاب علمه الى التحلّق فى الموضع الذى اختاره أمس ، وكان فى هـذه الحلقة رجل طالما شهده فى حلقة أبى عمرو وأعجب بعلمه وحفظه ، واحاطته بمسائل النحو .. هذا هو الأنصارى ، وينادونه بأبى زيد يكره فيه عبـد الملك رأى المعتزلة ، ولا يطمئن الى صداقته لأبى عبيدة معمر ، بل ينكر هذه الصداقة التى تنشأ بين عربى وشعوبى .

كما رأى زميلا آخر اسمه النضر ، اعتاد هو ومؤرج السدوسى أن يستبقياه عقب جلستهم مع الخليل ، فيخوضون معا فى حديث اللغة والشعر .

وخفق قلبه !

ثم تطلع الى حيث تعوّد أن يجلس أبو عمرو ، كأنما يلتمس منه العون ؛ فلا يراه فيحس وحشة ، ولكنه يرى معلمه الثانى ، فيعجب أن يتساوى هو بهما ، ويكون لهما ندا .. أفان سألاه شيئا يعجزه الجواب ؟ ففيم اذن جلوسه هذا ، وأمامه الأنصارى والنضر وغيرهما ؟

وقد بدأ الدرس فحمد الله « الذى ذرأكم فى الأرض ، واليه تحشرون » والذى عنـــده « مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » فما تشاءون الا أن يشاء الله سبحانه ، وهو على كل شىء قدير .

ثم صلى على النبى الذى أوحى اليه قرآنا عربيـــا لينـــذر أم القرى وما حولها ، وليجاهد الكفار والمنافقين .

وهكذا ينساب صوته فى الحلقة رخيما حلوا ، يكسب به بداهة الاستهلال ويملك القلوب ، ويحلق بالآذان بعيدا ؛ فهو يرجو وقد جلس هذا المجلس الرفيع لأول مرة أن يكون أهـــلا لاعطاء الكلمة الطيبة فان قصّر وجب له الاعتذار ؛ لأن للنفس طاقة ، وللسان زلاته ، والا فليكن مثله كمثل الذى أخذ كلاما حسنا عن غيره ، فتكلم به فى مثل هذا المجلس ، فأفاد ، وأصاب ، ومن ثم بلغ الغاية .

وأعطى لسامعيه فرصة تفهم ما يقول ، ثم مضى قائلا :

— وكنت قد كتبت فى البادية كتبا ، وجمعت شعرا ، وحفظت تقولا ، فالتخيّر من كل أولئك لا يوجبه الا الطلب ، فاذا كان الطالب ينشد مما لا نملكه انصرف الى معلمينا فهم أحق منا بالسؤال . أليس من حق المرء أن ينظر أين يضع نفسه كما يقول عبد الله بن المقفع ؟

لا تعيبوا فىّ هذا .. فلعلّه آفة الحداثة ، ولكنى أحفظ مع ذلك ما أقدر به على أن أقول شيئا ؛ فقد جعل الله عز وجل لكل أمر قدرا ، وبوأ له موضعا ، كما جعل لكل دهر رجالا ، ونحن من

رجال هذا الدهر، فان لم تصبنا مصيبة الجهل لا ينبغى السكوت ؛ لأن شر الجهل أن يطوى حقا يمكن أن يذاع .

وكان من الممكن أن يستطرد على هذا النحو ، فقد أوتى ذرابة فى اللسان ، الا أن صوت خلف الأحمر قطعه ، وكان قد طغى على كل صوت فى المسجد ، وهو يرتفع بلامية الشنفرى عارضا لها بشرح احتال عليه نهارا بعد نهار ، وكابده ليلا بعد ليل . فأدرك كم يكون عناء أن يرتفع اليه ، ولكنه وقد رأى انكباب أبى عبيدة من ناحية أخرى على ألواحه يقرأ منها قرر أن يطرق الموضوع من حفظه ، ومن ذاكرته التى تعى كثيرا ، فقال :

— حدثت أن امرأ القيس حين هرب من المنذر بن ماء السماء صار الى جبلى طيىء .. أجأ وسلمى ، فأجير ثَمّ ، وتزوّج بسيدة منهم هى أم جندب قال فيها قصيدته التى لولا لاميته لجعلتها واحدة من المعلقات وفيها :

خليلى مرّا بى على أم جُندب تُقَضِّى لبانات الفؤاد المعذّب

ولم يكن حظه من الرواية الا هذا البيت ، فقد قاطعه واحد من جلسائه قائلا :

— أبفتح الدال هى أم بضمها ؟

قال عبد الملك متسائلا :

— وأين هذه الدال جعلت فداك ؟

قال الطالب :

— فى أم جندب .

قال عبد الملك :

— بالضم لحْن ، ولا أقول لحَنا بفتح الحاء ، الفاعل من الأولى لاحن ، ومن الثانية لحِن ، هكذا حدثنى شيخنا أبو عمرو ابن العلاء ، وعن عيسى بن عمر قال « قال معاوية لناس : كيف ابن زياد فيكم ؟ قالوا : ظريف على أنه يلحن ! قال : فذاك أظرف له .. » ذهب معاوية الى اللحن ، ومنه اللحِن أى الفطن ، وذهبوا الى اللحن ومنه اللاحن الذى يقع فى الخطأ .

قال أبو زيد :

— سمعت الخليل يقول : ان اللحن هو اللغة .

فقال عبد الملك :

— هو اللغة ، وهو الخطأ ، وبالتحريك الفطنة ، قال من قال فى صاحبة له :

منطق صائب ، وتلحن أحيـا نا وخير الحديث ما كان لحنا

واذن فقد أتاح لنا صاحبنا أن نسجل فى أوراقنا شيئا ، ولا سيما اذا أردنا أن نصرّف مما وعاه أبو زيد عن الخليل فعلا ، فنقول « لَحَنَ الرجل يلحَن لحنا اذا تكلم بلغته » ويكون تأويلنا فى البيت الذى أنشدناه غير ما سيق له ، بمعنى أن خير الحديث ما فهمه من تحب افهامه وحده ، ولكنى وأنا لست أعلم من أبى زيد أترك هذه المادة له ، يقدم لنا فيها رأيه ورأى الأولين .

وتطلعت العيون الى أبى زيد ، فأطرق على حياء .. ان عبد الملك يحبّ هذا الرجل ، أجل يحبّه برغم اعتزاله ، وبرغم صلته بأبى عبيدة ، مرّة أخرى يسأل : كيف يجمع الله بين هذا وذاك ؟ ولكن لماذا .. ألم يجمع بين امرىء القيس وعلقمة

ابن عَبدة اليمنى ؟ ان أم جندب الطائية كانت واحدة من الذين يفهمون منطق الشعر ، وقد رأت زوجها يقبــل على عشــيرتها بشاعريته ، ويريد أن يخرس علقمة ، فقالت كلمتها التى جعلت علقمة يخلف عليها بعد امرىء القيس .. لا تتعجلوا فان وراء ذلك قصة طريفة تقول ان أم جندب رغبت فى زوجها ليلة فأيقظته مرة ومرة ، وهو لا يقوم ، حتى اذا طلع الصباح صاح فيها : ما الذى حملك على ما صنعت ؟ أجابت : حملنى أنك ثقيل الصُّدرة ، خفيف العجزة !

وأتبعت حديثها هذا بكلام طويل أساء الى الشاعر ، فلما أقبل عليه علقمة ، وتذاكرا الشعر تحاكما الى أم جندب أيهما أشعر ، وامرؤ القيس يظن أنها تسترضيه اذا حكمت له بعد أن جرحته فأنشد :

« خليلىّ مرا بى على أم جنذب »

وهى رائعة من روائعه ، لا أوصيكم بحفظها لفضل حبى اياها ، ولكن لايمانى بأنها من أكرم تراثنا ، ولما انتهى من انشادها على النحو الذى بينه انبرى علقمة يقول على الروىّ نفسه ، والقافية ، وفى وصف الخيل .

« ذهبت من الهجران فى غير مذهب »

ففضلته أم جندب ، فقال امرؤ القيس : بم فضّلته علىّ ؟

فقالت : فرس ابن عَبدة أجود من فرسك ، فقد سمعتك زجرت وضربت وحركت فى قولك :

فللساق ألهوب ، وللسوط درة

وللزجر منــه وقع أهوج مِـنْعَبِ

وأما فرس علقمة فنشيط لا يحتاج الى اهاجة ، وينصب فى العــدو انصباب الريح ، يجــرى خلف الصيد ولجامه منثن ، ألم تره يقول :

فأدركهن ثانيـــا من عِنــانه يمرّ كمرّ الرائح المتحلّب

وكان على ما حدثت قد ثار فطلقها ، وانصرف كسيفا ، ولكن أبياته ذاعت ، ولم تذع أبيات علقمة . وبعد أن دعا خليليه ليقضى لبانات الفؤاد ، واللبانات جمع لبانة ، وهى الحاجة قال :

فانكما ان تنظـــرانى ســـاعة

من الدهــر ينفعْنى لدى أم جندب

ألم تريانى كلمـــا جئتُ طارقــا

وجدت بهــا طِيبا ، وان لم تطيّب

عقيــلة أتراب لها .. لا دميمـــة

ولا ذاتُ خـــلق ان تأملت جأنب

فهى خير أترابها ، أو هى كريمتهن ، وأما الجأنب فالغليظة اللحم القصيرة ، فكأنما أراد أن يقول : انك اذا تأملتها رأيتها غير دميمة ولا جافية الخلق ، وانه اذا كان يرضاها فلأنها لا تشق على الناظر قط .. فهو خبير وان يكن قد وصف على لسانها بأنه سريع الهراقة بطىء الافاقة ، فالأمر لا يعدو جفوة أعقبت دعوتها له ، وتغلّب النوم عليه .

وعلى هذا النحو من الانشاد والشرح مضى عبد الملك فى درسه

الأول ، وطلابه مفتونون به .. بل كانوا ألصق ما يكونون به وهو يذهب مذهب القصاص ، فيفسر أبيات امرىء القيس بما يرضى نزعته ، يشهدهم بها من صواب التدبير والترتيب وحسن الاستطراد وجمال العودة ، ما يملأ صدورهم متاعا وغناء . وقد أحسوا هم — ولا سيما أن الساعات كانت تمضى سراعا — أن عنده ما يملأ مئات الصفحات ، وان يكن لاحقا فى ذلك بأبى عمرو . وخيل اليهم أنه ربما ملك مكتبة كهذه التى أحرقها أستاذه ، وهو غائب فى البادية ! فلولا أنه دخل من كل باب ، وجرى بهم مع كل ريح لقالوا : انه يردد نقولا لا يلبث أن ينساها أو ينتهى منها فلا يجد غيرها من بعد !

ثم كان ما أدهشهم حقا أنه بعد أن وقف الوقفة المناسبة قام الى حلقة خلف ، فأنصت وأحسن الانصات ، ثم طرق مجلس الخليل بن أحمد فوعى وسجل ، وأنشأ يدور مع الحلقات ، وقد بدا كما لو أن شيئا سوى العلم لا يشغله ، مع أن أحشاءه كانت تستعر بلهب لباب .

١١

الجَوَاد المُنتَحِر

انه مذبذب !

هكذا قرر عبد الملك بينه وبين نفسه ، وكان يقصد ذاته هو ؛ فما كان يستطيع أن يستقر على حال ! الأمر يعقده ساعة ثم يطلقه ساعة أخرى ، ويختار شيئا ثم لا يلبث أن يعدل عنه ، ويحدث نفسه أن يتولى واجبا فلا يحس عبأه حتى ينفض يديه منه ، وأبسط شيء .. أقرب مثل على هذا هو عنترة ، وامرؤ القيس ، بل لباب التى طالما حلم بها ، وحنّ اليها حنين عجول كما يقول شاعر تميم .

تبا لك أيها الشاعر .. ما عنى هذا ؛ فان لباب أرق على نفسه من هبة نسيم على شاطىء الأبلة وأحب الى نفسه من كل شيء ، ولولا الحياء .. ولولا وازع ثقيل لكان عندها الآن ؛ فهى فى القصر ، ومولاها عند أبيه فى الرّى ، والفرصة مواتية ، ولكن القلب هيّاب .

أهو الجبن ؟

بل دروسه .. بل ما عقد عليه نيته من تأليف ، وقد أخذت هذه الحمراء فى وضع ما تريد أن تطمس به مجد بنى جلدته ، ربما . ولكنه يدرك تماما أن هذا غير حق ، وأن الخوف من مجهول هو

الذى يشدّه عن القصر الذى طالما طرقه ودار حوله ، واقتحم غرفه .

فما يفزعه والأمر لا يعدو أن يراها ، ويسمع اليها ، ثم ينتهى كل شيء ؟ فان ما فى أعماقه لأكبر من أن تعبث به هذه الجارية ، ولا يمكن أن تنسيه رسالته ، لا ولا تستطيع أن تسلبه شيئا من كبريائه .. وهو العربى ، وأماهى !

وكان لابد أن يبدو أمام نفسه حاسما ، ولا سيما بعد أن وقع تحت طائلة الاتهام بالذبذبة . فأسرع الى قصر الباهلى ، وقد تبدد آخر ما بقى من مقاومته ، ودفع عنه الوجل دفعا . ولما وقف بالباب تطالعه سحنة الحارس الأسود ودّلو أن الأرض انشقت ، وابتلعته ابتلاعا . غير أن ابتسامته العريضة الودود ردّت اليه هدوءه ، فدخل وهو يتنفس الصعداء .

انه لم يعد صغيرا ، وكبرت هى .. وما أبعد العهد الذى شهد أول لقاء بينهما على غير شيء الا أن يكون هو السيد بحق القربى التى تربط بينه وبين آل قتيبة أصحاب القصر . وبقدر ما كانت تنبو عنه العين ظفرت هى بالقبول ، وان تكن ملامحها اذ ذاك لم تنم على ما طالعته به فى آخر لقاء .

وبين اللقاء الأول واللقاء الأخير جرت أمور .. انتقل سلم ابن قتيبة الى الرّى أميرا ، واحتل ابنه سعيد هذا القصر ، واستقل أخوه عقبة بقصر آخر على شط عثمان فى حين أبى شقيقهما ابراهيم الا أن يسكن المدينة الجديدة مع قريب من الباهليين اسمه مالك ابن محرز ، وكان هذا أثيرا عند المنصور ! وصارت هى .. يا لله

معذرة أيها الأمير الغائب فى خراسان ، فاننى لا أستطيع أن أنكص على عقبى — كما راح يقول لنفسه — ان أباك كان يهيب بى أن أجلس اليها ، فلم أكن فى كل حياتى أكثر سعادة منى اذ ذاك ، ولم أعرف قط حقيقة النعمى كما عرفتها قبل الرحيل ، وقد حاولت مرارا ألا تروق فى عينى ، فى فؤادى ، فى هذه الأعماق التى لم يعد لى سلطان عليها !

ودخل أحد أبناء سعيد ، هو الفضل أو عمرو .. لا يدرى ، فأصبح لزاما عليه أن يمسك عن أى شىء أخذ به نفسه ، ولو كان هذا الصبى أخف أهل الأرض لأصبح فى هذه اللحظة أثقلهم ! وسيم ، وديع ، دمث .. لا يملك أحد أن يكرهه ، فلما قالت له :

— وهل حفظت درسك قبل أن يقدم الشيخ ؟

أجاب فى هدوء :

— لا أريده ما دام العمّ موجودا .

وأومأ الى عبد الملك ، فسرى عنه ، ولحسن الحظ أنهما فتحا هذا الحديث ، والا كان أعياه أن يجد موضوعا للكلام . وقد بلغ من تحوله السريع الى الرضا أن اندفع يكشف عما تزخر به نفسه من أرق العواطف ، وهو يوطن النفس على انتظار جديد ، فقال :

— ومن شيخك أيها الفتى ؟

— محمد بن زياد !

— هكذا .. بلا لقب ، ولا ذكر لأصله ؟

— هو من الكوفة ، ولكنه أسود كليل المربد .

وتدخلت لباب برقتها المعروفة .. ولكنها لم تحاول أن تخفى

برمها باللهجة التى تعرض بها الصبى لأستاذه ، فصاحت :

— هأنتذا تعود الى الأسود والأحمر ، ألم يكفك أن تخاطبه بابن الأعرابى ؟ ما معنى هذه الصفات التى تخلعها فى سخاء على من تكره أيها الأمير ؟

قال الأصمعى :

— اذا كان هذا ما تقولين فأحرى بولدنا أن يسكت ، ولكنى أرى أن نعته بالسواد لا يضيره .

فتطلعت الى سحنته طويلا ، وقالت :

— فهل اذا وصفك واحد بما تكره روضت نفسك على القبول ؟

فقال :

— ربما .. ولكنى لا أنكر أن من الأمور ما ينبغى أن نسفر عنه .

فوافقته ولكنه استطرد ، وقد أدرك أنها تشير الى دمامته :

— فلو أن واحدا جاءنى ، وصاح فى وجهى : يا أصمعى ، انك لقبيح ! لقلت مرحى لأنه لم يزد على أن قرر واقع الحال .

وهنا احتدت لباب ، وصاحت :

— بيد أن لهذه القاعدة استثناء .. ان السرقة جريمة تقطع فيها يد السارق كما يقول ديننا الحنيف ، ولكن الرجل الذى يرتكب هذه الجريمة لا يحب أحدا أن يقول له : أنت لص !

فصاح الأصمعى :

— هذا أمر آخر ، والموقف على أية حال مغاير .. اننا نحتقر اللص ولكننا لا تتقبل القبح ، فاذا نعتنا السارق بما يكره فلأنه يرى أن نقيصته حقيقية .. اننى أتحمل أن يشاع عنى أنى قبيح ، ولكنى أجد غضاضة أن أشهد على سرقة ، والأمر مهما يكن فهمنا له لا يستحق كل هذا العناء ؛ فانه مما لا شك فيه أن من الخير ألا يستخف ذو العقل بأحد ، وأحق من لم يستخف به ثلاثة : الأتقياء ، والولاة ، والمعلّمون .

وكأنما كانت عبارة عبد الملك قد وضعت حدا لكل شيء ؛ فقد انصرف الصبى ، وقد بدا أنه لم يفهم ، ودارت هى على عقبيها تهم بالخروج اثره فتشبث عبد الملك بآخر أمل فى نفسه ، وقال :

— لباب .. ان من يتعلّم كلاما حسنا فيتكلم به فى موضعه ، فلا تريّن عليه فى ذلك جناحا .

— ماذا تعنى ؟

— احياء العقل لا يكون الا بالصدق ، ولم أكذبك قط يا لباب .

— لم أفكر فى هذا .

— وأنا فكرت .. فأنت تظنين أننا نحتقر كل من ليس فى لوننا ، أقولها لك يا لباب ، نحن لا نخاف الا الحمراء ، فاذا لم تكن لها يد الى أن تكيد الكيد لنا آثرناها بقلوبنا ، فالمحبة يا لباب تبلغ المرء مبلغ الفضل فى كل شيء من أمر الدنيا والآخرة ، تعرفين من قال ذلك ؟

— لا !

— انه واحد من الحمراء .. انه عبد الله بن المقفع ، وأضاف على ما تسعفنى به ذاكرتى أن على العاقل الذى يؤثر المحبة ، ويؤثر بها ألا يخادن الا ذا فضل فى العلم والدين والأخلاق ليأخذ عنه ، فان الخصال الصالحة من البر لا تحيا الا على هذا النحو !

وحدقت فيه .. حدقت طويلا طويلا ، وبدا كما لو كانت تشعر بما يضطرب به ، وخيل اليه هو أن نظراتها نفذت الى قلبه ، ولم يعد يرى فيها ذلك المناقش اللحوح ، ولا هذا الذكاء الذى طالما أضاء فى عينيها ، ولا دقة حفظها ، تلاشى ذلك كله ، وعبرت قسماتها عن فتنة فقط .. مجرد أنثى رقيقة !

ولكن يرتج عليه ، ويمضى يسأل نفسه : لماذا لا يندفع نحوها ، ويعبّر لها عن كل ما فى نفسه بصدق ، وينتهى كل شىء ؟

لماذا لم يجرؤ ويواجه كل ما يحسه ؟ من ذا الذى يملك عزمه فى هذه اللحظات ، ويتفكر فيما يحب ، وفيما لا يحب .. يتفكر فى هذا الخيط الرفيع الذى يشده الدين ، وكأنه سور كسور البصرة الصفيق ؟

هو يقول لنفسه فى بعض الأحيان : انك يجب أن تقول لها اننى اخترتك وها هى ذى اللحظة المواتية .. فما أعجز الانسان !

لقد قدر له أن يتعذب .. يتعذب ، وينصرف عن علمه وتحصيله ومجلسه . أين هذا اللسان الذى يفيض فى صحن الجامع ، ويأسر الأسماع ؟ أفتسمع منه ما يجب أن يقول هذا اللسان ؟ أيقول : ان لكل مخلوق حاجة ، وحاجته هو عندها .. أيقول ؟

ولكنها لا تمنحه فرصة القول ، فها هى ذى تمضى مولية ،

مسرعة كأنها تخشى منه شيئا ، فينهار ، وينهار كل شيء !

اذن فقد كان واهما ، وكان يبنى قصورا فى الهواء ، ولم يفكر قط فى أنها من الممكن أن ترفضه كرجل .. ربما لصورته ، وربما لخلقته ، وربما لولعها برجل ما أو لتعلقها بأحد أولاد الأمير ، بل قد تكون على حب للأمير نفسه ، ويمنعها هذا الحب أن تنصت اليه وهو يريد أن يكاشفها .

أجل كان واهما ، وانتهى الأمر .

وأحنى قامته ، وأسرع يعدو كالمجنون ، يعبّر بحركات يديه التى يضعها على صدره عن الألم العظيم الذى يمزقه ، فلقد كانت صورتها وهى تنصرف عنه تمضه وتهده ، ولم تشعر هذه الجارية التعسة بأنه كان من الممكن أن تسمع اليه ، وتنصت حتى يكشف عن أعماقه البيضاء ، ولكنها تعجلت وأهملته هو الذى لم ينس مرة واحدة .

قف أيها القلب عن الخفقان !

ان الأعراب يحدثون عن ضرب من الخيل اذا أرهق قطع بأسنانه شريانا يعرفه حتى يموت .. انه يؤثر حياة لا يخضع فيها لمخلوق !

وهو ؟

١٢

فى أعقاب الأزمة

مرّت بعبد الملك أيام خيل اليه فيها وهو يستحضر دقائق محاولته الأخيرة الفاشلة أنه ما زال هناك متسع لاصلاح ما أفسد ، وحاول فى قصيدة طويلة أن يسجل ما يعانيه فى اباء دونه اباء عنترة . غير أنه وجد الأبيات فى آخر الأمر أشبه بنظم المسجديين الذين اعتاد أن يلازمهم فى البصرة ، فمزقها ، وهو يعجب للفتور الذى اعتراه بعد انتهائه من الكتابة !

لكنه كان يرى أنه لا حاجة تدعوه الى مبارحة بئر الحفير ، ولم يثنه أحد عما أخذ به نفسه من صمت وعزوف عن الأكل . وزاره خلاّد بن يزيد الباهلى — وكان يحفظ الشعر وينقده — كما زاره أبو هشام صديق بشّار وأثيره . وعبثا أغراه أخوه — الذى كان يجهل كل شىء — برحلة ترفيهية الى بغداد ، وكانت كما قال قد اتسعت وعمرت حتى لتفوق البصرة ، مع أنه لم يمض على انشائها أكثر من ست سنوات .

كان يرفض كل عرض ، ويأبى الا أن يقف ساعات تحت نخلات قبالة داره ، وكان فيما مضى يتفيأ ظلالها ، وها هو ذا يعود

اليها من جديد مثقلا بالألم ، وليس أمامه الا أن يفكّر فى جارية كان من الممكن أن يطلبها من سيدها وينتهى كل شىء .

تمكنت الحمّى منه فى آخر الأمر .. عزاها هو الى ما ألمّ به فى أثناء عودته من البادية ، ورآها أهله نتيجة الهزال الذى أصابه ! وبكت أمه ، ولم يجد الأب الا أن يحوقل ، ويقرأ الدعوات ، وعبد الملك يبرد ويسخن ، ويغيب عن وعيه ، ثم يعود ليسأل : متى يطلع النهار ؟

واحتجم .. وأسقى الشراب المرّ ، فلما أبلّ كانت أشعار المجنون قد احتلت من نفسه كل مكان .. انه يهيم به ، ويضل ، ويصعد ويهبط ! انه .. بل انهم .. ألم يخبر بذلك الشيخ من عذرة ؟ لكأنه يراه ، أو يراهم وهم يفرشون ثراهم بالدموع ، ثم يراهم وهم ينظرون الى القمر الذى يحاول أن يهتك أستار الظلام ، ويقولون : ألا بلغت عنا السلام ؟

وارتجف جسده ، ففتح عينيه ليرى بعض عوّاده من أقاربه ، ويرى الجهضمى ، والنضر بن شميل ، والسدوسى كما يرى خلفا ابن أستاذه ، يهديه تحية أبيه ، وتحية الأحمر ، ثم يرى أبا هشام مرة أخرى ، وباهليين آخرين ، فطفق يقول :

قال مؤرج السدوسى :

— طالت المرضة يا أبا سعيد !

فقال عبد الملك :

— أنا .. أهكذا ترى ؟ اذن يكون الزواج قبل أن تودى بنا .

قال أبو هشام :

— والله ، انى لأرشدك الى عبلة من باهلة ، وانى لا أراها دون أهلى ، فهما أختان !

وهز عبد الملك يده ، ثم قال :

— الله لما ترون .. ولكن ألا يحسن أن يعاهد المـــرء نفسه بما يكون به للخير أهلا ؟

— وأنت أهله .

— وأنا على هذا الأمر ، لقد قيل أشياء ليس لها بقاء : المال ، والشباب ، والحسن .. وأنا لا مال لى ، ولا شباب ، ولا حسن ؛ فكيف أنا أهل لما ترون ؟

— اذا لم تكن ، فمن يكون ؟

— لست أدرى ولكن العاقل من لا يرى أكثر مما تراه عيناه ، ولو خاطر بنفسه ، وعرضها فى وجـــوه النزق كان ذلك حمقا .

واستمر الأمر بين أخذ ورد حتى بدا كما لو أن صفاء ذهنه قد عاد اليه من جديد . واتسعت دائرة السمر ، وخاض الجميع فيما أحبوا ومالم يحبّوا . غير أن شيئا لم يضحكه لأول مرة حين وقع فريسة للمرض كما أضحكته حكاية كلب قريبه الذى كان فى بيت بشّار قبل أن يؤدى حق الزيارة له قال :

— لقد كان ينشد شعره الفاجر ، فقلت « استر شعرك هذا كما تستر عورتك » فصفق بيديه غاضـــبا ، وقال « مَن أنت ويلك ؟ » فقلت « أنا — أعزك الله — من باهلة ، وأخوالى من سلول ، وأصهارى عُكل ، واسمى كلب ، ومولدى بأُضاخ ، ومنزلى بنهر بلال » فضحك بشار ، ثم قال « اذهب ويلك .. فأنت

عتيق لؤمك ، قد علم الله أنك استثرت منى بحصون من حديد » .

وضجّ المجلس صخبا وضحكا ، ولكن أبا هشام قطع كل أولئك بقوله :

— أنت يا كلب ، لم تؤلمه كما آلمته .. ألم تسمع ما قلته فيه بعد أن وقع بيننا ما وقع ؟

وهنا تساءل عبد الملك :

— هل وقع بينكما شيء ؟ والله أخشى أن يفتك بنا هذا القن ابن القن ، وينسى فضل باهلة عليه !

قال أبو هشام :

— لقد بدأ يغمز ويلمز فعلا ، ولكنى أراه يسكت بعد أن يسمع قولى فيه :

أأمــــك يا بشــــار كانت عفيفة

علىّ ؟ اذن مشيى الى البيت حافيا

وارتفع الصخب من جديد .. من محبــذ ومن منكر ، من شامت ومن راث ، أما عبــد الملك فقد أحس بقرب عاصفة ، ورأى أنهم — كباهليين — لا قبَلَ لهم بمواجهة بشار .. ابن الطيّان كما يسمونه أو القنّ كما يسميه هو ، فهو لا يحجم عن اجتناء ما يراه حقا فى هجائهم ، بل لعله يرى فيهم كل ما يريد من معانى الهوان والخسة .. توكيدا لما درج عليه فى الأيام الأخيرة من تعريضه بالعرب !.

ومن ثم قال :

— اسمع يا أبا هشام .. قال سيدهم أعدل السير أن تقيس

الناس بنفسك فلا تأتى اليهم الا ما ترضى أن يؤتى اليك !

قال أبو هشام :

— فماذا تعنى ؟

أجاب :

— اسكت عنه تنج وينج !

١٣
الفاجعة

كان على عبد الملك أن يعود أبا عمرو .. فقد بلغه أن المرض أقعده فى فراشه نهائيا ، فلما انتهى من القاء درسه عرج على حلقة الخليل بن أحمد يسمع الى شيء مما يدور فيها . غير أنه لم يلبث طويلا ، اذ دفعه الى القيام ما قصه عليه من أمره ابنه خلف . وعلى الرغم من أنه كان قد اتفق مع أبى محرز على أن يقصده فى داره ليقرأ عليه ما دوّن من قصائد امرىء القيس فقد آثر أن يزور أبا عمرو أولا . وهناك فوجيء بما لم يتوقعه ، اذ علم أن ما جمعه من شعر الشاعر الجاهلى سبقه الى مثله أبو عبيدة والمفضل الضبى وحمّـاد الراوية ، ثم ذلك الشخص الذى ذكرته لباب باسم ابن الاعرابى .

على أنه قرر وهو فى الطريق الى خلف بن أبى عمرو — أن يضع كتابا ينخل فيه ما يستنقيه من شعر امرىء القيس عند الجميع ، بمعنى أن يحاول تمحيص كل ما ينسب اليه ، ويتحرى الرواية التى ينبغى أن تثبت .. لا سيما أنه لم يكن يرضى عن التوسع الذى يلجأ اليه حماد كعادة أهل الكوفة ، ولعل ابن الأعرابى بدوره يكون أكثر تساهلا من زميله ، وأما المفضل الضبّى فهو حجر

الزاوية — فى رأيه — لأنه معروف عند علماء البصرة بتضييقه ، ولم يفكر فى أبى عبيدة .

وكان بيت خلف على شاطىء معقل .. يمر الداخل اليه فى دهليز رآه الأصمعى يضطرب بنفر من الناس ، وشاهد أبا محرز فى نهايته وهو جالس على تخت فى ملحفة معصفرة — على غير عادته — وبين يديه قدور طعام يأمر بها عبده فيفرقها على الحاضرين . فأنشأ عبد الملك يرقبه وخلف بن أبى عمرو يخوض فى حديث عابر لم يكن عبد الملك يلقى اليه بالا !

ولم يكن أحدهما فى حاجة الى أن يسأل .. فقد بلغهما أن أبا محرز ختن ابنه ، فكان على عبد الملك أن يتوجه اليه يلهو معه بالجوز حتى يأكل الناس ، وظن أنهم منصرفون لولا أن سمع بعض الحاضرين يقول :

— يا أبا محرز لو أذنت لنا فأرسلنا لابن رزين وعبده فيغنينا .

فصاح قائلا :

— ما شئتم !

ولكن الرسول عاد بعد قليل وهو يقول :

— كلاهما مريض .. ولكنى عرجت على أبى الملد فتبرع بجاريته ، وها هى ذى !

ودخلت الجارية .. مترددة وجلة ، فى قدّ لباب ! هكذا تصورها عبد الملك ، الا أنه لم يكن بحاجة ليقفه أحد على فَرقِ ما بينهما .. كانت لباب أجمل برغم تفجّر شباب هذه ، وكانت قد هتفت بصبى معها :

— هات خملتي والعود !

وقد وضعت الخملة على كتفيها وبدأت أصابعها تلمس الأوتار فى رفق ثم ما لبث صوتها أن انساب :

يا خليلى هاجنى ذكـر   وحمول الحىّ اذ صدروا

وهاج المجلس واضطرب ، فقد كان الصوت الرخيم يأخذ به أخذا ، ولكن عبد الملك كان فى حال أخرى .. تدمع عيناه فيراه أبو محرز ويدهش ، ثم يقدم نحوه قائلا :

— ما أعلم أحدا بلغ من حب الغناء ما بلغنى من أمرك .

— كيف هذا يا أبا محرز وأنا أزورّ عنه ؟

— دموعك والله ، وانى لأستقل ذلك لك مع حدسى بأمور وقعت منك ، فهل من حاجة أصير فيها الى ما وراءها ؟

— لا شىء يا أبا محرز ، ولكنه عارض جُعلت فداك !

— اذن أسألك واحدة .

— سلها يا أبا محرز

— ما سرّ أن تلزم بئر الحفـير أربعة أشـهر ومرضتك فيما أخبرت كانت يسيرة ؟

— يا أبا محرز .. ان شئت فاشتمنى وان شئت فاقذفنى غير أنه لابد لى من أن أسكت ، فليس كل ما فى الفؤاد يقال .

— والله لن ينتهى هذا المجلس على ما أرجو حتى تتكلم .

— دعنى جعلت فداك .. أو تعفينى ؟

— لا ورب الكعبة .

وكان من الممكن أن يطول الجدل ويمتد ، لولا أن دخل فارس يبدو عليه من آثار الغبار ما ينبىء عن أنه قادم من سفر ، وهو يتجه الى أبى محرز كأنه يعرفه ويقول بصوت يقطع غناء الجارية :

— أمير المؤمنين يطلبك .

وينقطع كل صوت .. فلا نأمة ولا همسة ، والعيون تتطلع الى الرسول والى أبى محرز ، فيقول هذا متسائلا فى دهشة :

— أنا يا أخا العرب ؟

وينفض الفارس هندامه ويجيب قائلا :

— أجل .. وقد أمرت فأسرجوا لك .

قال :

— أمن غير ريث ؟ السمع والطاعة على أية حال .. ولكن ألا أقمت يسيرا فأكلت من مشوشتى وقليتى وشربت نبيذ التمر ؟

قال الفارس :

— اعفينى يا أبا محرز ، فالطريق طويلة وأمير المؤمنين فى بغداد ينتظر بغداد ..

دوّى الاسم فى أذنى عبد الملك فشغل به عن كل شىء .. لقد تنبه فجأة الى أمر فيه غاب عنه منذ سمعه أول مرة ، علام تدل عليه كلمة بغداد ؟ أو لم يعتد الحمراء أن يحكوا عن صنم لهم اسمه « بغ » . فاذا كان ذلك كذلك فما معنى المقطع الثانى من الكلمة .. علام يدل « داد » ؟ ربما كان علما ، فالحمراء تسمى بداد أو بداذ ، وكان اسم المقفع « داذويه » أليس كذلك ؟

والحمراء أيضا تقرر أن « داد » أحد مشتقات العطاء ؛ فلعلها كذلك أو لعلها العطية أو الهدية ، فواخجلاه ! الخليفة العربى يسكن مدينة يسميها « عطية الصنم » أو « صنم داد » .

الى هذا الهوان ينتهى ، وهو الذى ضرب الحمراء فى خراسان وفتك بالراوندية فى الهاشمية واستخدم العرب الخلصاء واتخذ منهم صديقا .. ألم يولّ سلم بن قتيبة خراسان نفسها ؟ ألم يؤاخ مالك بن أدهم بن محرز الذى قاد أبوه الجيوش للحجاج ؟

كلاهما باهلى ..

الى أين تسير الدولة ؟ ليس يدرى .. ولكنه يعلم أن الأمر لما أطلق اطلاقه هذا أزفت النهاية وزال سلطان" أحب أن يتمكن من النفوس ؛ فليس بعد الأمويين من يصلح لأمر الأمة الا هؤلاء برغم كل شىء .

أليس كذلك ؟

وتنبه الى أنه رفع صوته ، واذ ذاك شاهد خلف بن أبى عمرو يتطلع نحوه وهو يقول :

— أتخاطبنى يا أصمعى ؟

فلا يجيب ، لأنه يرى أن المكان ليس فيه أحد سواهما ، وكان الفارس لا يزال واقفا وهو يمد بصره الى عبد الملك ، فلما سمع صوت خلف قال :

— هو أنت اذن .. لقد سمعنا بك فى بغداد !

مرة أخرى بغداد .. فهز كتفيه وهو يبتسم فى مرارة ، ولكن الفارس يستطرد قائلا :

— علمنا أنك من باهلة .

أتراه يعيّره بنسبه ، ونسبه ينتهى الى قتيبة بن معن وهذا أمه بنت عمرو بن تميم ولم تلده باهلة ؟

— أجل أنا من باهلة .

وعلى غير ما توقع سمعه يقول له فى أسى ظاهر :

— اذن تقبّل عزائى فقد نعى رسول من الرى الأمير سلم ابن قتيبة !

١٤

يوم عـــادى

ترك عبد الملك أباه وأخاه واتجه مباشرة الى الجامع وهــو يغبط نفسه على كل شىء ، فبدلا من أن ينكفىء على وجهه أو ينهار بدا متماسكا وهو يتقبــل من المعزين مواساتهم . وراح يذرع القصر ، ويخاطب هذا ، ويكلّم لباب ، ويشير على الأمير سعيد بما يرى ، ثم يخرج الى الجامع فيجد حلقة درسه فى انتظاره .

وقبــل أن يبدأ أقبــل عليه معارفه يعزونه من جــديد .. أقبل أبو عبيدة وأقبل أستاذه الخليل بن أحمد ومعــه أيوب السختيانى وفى أعقابهما يونس بن حبيب ، وأتى بشار بن برد والمفضل الضبى ومروان بن أبى حفصة وشاعر يقال له اسماعيل ابن القاسم العنزى [١] صحبه حمّاد الراوية وقدّمه اليه شاعرا من طراز جديد .

ومن بعد هؤلاء أبو الخطاب البهدلى ومؤرج السدوسى وابن كركرة وأبو سوّار الغنوى والجهضمى وأبو البيداء الرياحى ، وكلهم كبار يعرفون الغريب ويروون الشعر ويسمع منهم عبد الملك

---

(١) هو أبو العتاهية على ما سيشهر به بعد .

ويدوّن ، ويقرأ ما يكتبون عن الحشرات والجارح من الطير والغريب من النبات .

نخب ونخب ..

ويتأثر ، الا أنه يستشعر زهوا . وحين يجد نفسه خالصا لتلاميذه يذهب بصوته الرصين .. يتناول ما عساه يكون — فى حدسه — مثار سؤال أو موضع فائدة ؛ فهو يحب درسه أن يكون نقاشا ، لا كنقاش المتكلمة ولا كجدل المانوية الذين يتسترون وراء التعبّد ثم يخوضون فى الزندقة .

وابتسمت شفتاه ، وقال بعد الحمد :

— لقد كتبت عدة كتب أحسب أن خير ما أصنع أن أقرأها عليكم ، واذ أبدأ بكتاب النوادر فلأنى أريد أن أسهم بنصيب فى الحركة التى تستهدف جمع الغريب . وفى الرأى أن كل ذى لب مستوجب أن يسمى فى ذوى الألباب عليه أن يأخذ من هذه النوادر عتاده وليعد منها لطول أيامه ؛ فانه قد رام أمرا جليلا وعلما نبيلا لا يدرك الا بالمعجزة ، والحق أنه ليس ثمة ما هو أمتع ولا أنفع من حديث الأعراب وروايات العقلاء منهم والفصحاء .

وسكت ريثما يتعمق ما ارتسم على وجوه طلاّبه ، ثم استطرد قائلا :

— ولكنى أرجو أن تنظروا فيما يؤذيكم مما أقول وفيما يسركم فيخاطبنى أحدكم فأعلم أن أصوب ذلك الشىء المحفوظ ؛ ففى الكتاب بعض ما تسعف به الذاكرة ولكن أطول العلم وأدومه فى الخاطر ، ولقد سافرت فى طول الصحراء وعرضها وخالطت

الصادقين والأصفياء فوجدت أن من يؤثر نفسه بالخير منهم يحفر في عقله أكثر مما يسجل فى كتابه ، ومع ذلك فقد يجب أن ينظر المرء فيما أفنى من عمره وهو يتحدث الى القرطاس ، ولا أقول الكاغد كما يحلو للحمراء وأتباعهم أن يقولوا .

ومرة أخرى صمت ، فسمع شفاها تغمغم ورأى عيونا تلمع ، ولكنه لم يكن بالذى يخشى واحدا من الشعوبية ، وهو يرى من بين طلابه فريقا منهم ، فاستطرد فى هدوء :

— أجل ، حتى اذا وجد نفسه وقد تنكب الجادة استغفر استغفار من أذنب وقال مما قاله الأعرابى بعد أن أدّى صلاته : اللهم ان استغفارى اياك مع كثرة ذنوبى للؤم ، وان تركى الاستغفار مع معرفتى بسعة رحمتك لعجز ، اللهم كم تحببت الىّ بنعمتك وأنت غنى عنى ، وكم أتبغض اليك بذنوبى وأنا فقير لك !

ثم أخرج من كيسه أوراقا ونشرها ، وبعد ذلك راح يقرأ :

— قلت بعد الحمد وفى العزم أن أعدل ببعضه الى كتاب آخر حدّثنا رجل من بنى رياح ، وقد أخطأنى اسمه قال « جاء رجل الى الأخوص [1] والأبيرد وهما من ولد عتّاب بن هَرْمىّ يطلب هناء فقالا : ان بلّغت عنا سحيم بن وثيل [2] وأتيتنا بجوابه ؟ قال : نعم هاتياه ! فأنشداه :

(١) الأخوص بالخاء المعجمة هو زيد بن عمرو بن عتاب التميمى أحد الشعراء الفرسان .

(٢) هو سحيم بن وثيل الرياحي أحد بنى حميرى المضرى ، شاعر مخضرم عاقر أبا الفرزدق فى مجاعة أيام على بن طالب فمنع الناس من أكلها وقال « انها مما أهل لغير الله به » .

ان بَداهتى وجِراءَ حَـولى لذو شق على الحَـطَـم الحرون [1]

فلما أنشده اياه أخذ عصاه وجعل يهدج فى الوادى ويقول :

أنا ابن جـلا وطلاع الثنـايا ... متى أضع العمـامة تعرفونى

يقال للنافذ فى الأمور طلاّع الثنايا ، وطلاع أنجُد ، وجلا بارز منكشف :

وان مكاننا من حِمـيرى ... مكانُ الليث من وسط العرين

حميرى ابن رياح بن يربوع » .

ومضى عبد الملك فى حديثه وشرحه .. مندفعا متحمسا ، وقد أحس أنه عاد الى تفتحه والى انطلاقه ، ولا يرى هذه النظرات التى تقلّب فيه وترتد عنه فى سخط كظيم ، ثم يشعر فجأة بمن يقحم نفسه الى الحلقة اقحاما .. أحد الأعراب يعرفه من عقاله الذى يضعه على رأسه ، ويروح يطيل النظر فلا يرى الا شبابا اذ ذاك يهدر :

— أيكم الأصمعى ؟

فقال عبد الملك :

— أنا ذاك !

فرمقه مليا ، ثم قرع عصاه وصاح وهو يجلس قبالته :

— أتأذنون بالجلوس .. هكذا تعلّمت من أهل الحضر ، فهم يقولون فينا غلظ وجفاء .

ثم ضحك فى عنف وصاح وهو يتجه الى عبد الملك :

(١) البداهة : أول جرى الفرس ، الحطِم : العنيف ، الحرون : الفرس الذى لاينقاد .

— أنت الذى يزعم هؤلاء النفر أنك أوثقهم معرفة بالشعر والعربية وحكايات الأعراب ؟

قال الأصمعى وهو يبتسم :

— أنا على أول الطريق وفى القوم من هو أعلم منى .. على أنى قد أكون رجلك .

قال :

— أفلا تنشدنى من بعض شعر أهل الحضر حتى أقتدى على شعراء أصحابنا .

فتفكر عبد الملك قليلا وقد استفزه تحدى الأعرابى ، ثم أنشد أبياتا قيلت فى مدح مسلمة بن عبد الملك ومنها :

أمسلم أنت البحر ان جاء وارد

وليث اذا ما الحرب طار عقابها

وما خلقت أكرومة فى امرىء له

ولا غاية الا اليك مآبها

كأنك ديّان عليها موكل

بها وعلى كفيك يجرى حسابها

اليك رحلنا العيس اذ لم نجد لها

أخا ثقة يرجى لديه ثوابها

وتبسم الأعرابى قليلا ثم هز رأسه وقال : يا أصمعى هذا شعر مهلهل خلق النسيج خطؤه أكثر من صوابه ، يغطّى عيوبه حسن الروى ورواية المنشد ، يشبهون الممدوح بالأسد الأبخر الشتيم

المنظر والذى ربما طرده شرذمة امائنا وتلاعب به صبياننا ، ويشبهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبه مرّ على من شربه ، وبالسيف والسيف ربما خان فى الحقيقة ونبا عند الضربة ، ألا أنشدتنى كما قال صبى من حينا !

قال الأصمعى : وماذا قال صبيكم ؟

فأنشد الأعرابى :

اذا سألت الورى عنى كل مكرمة
لم يعز أكرمها الا الى الهول
فتى جواد أذاب المال نائله
فالنيل يشكر منه كثرة النيل
الموت يكره أن يلقى منيته
فى كرة عند لف الخيل بالخيل
لو زاحم الشمس أبقى الشمس كاسفة
أو زاحم الصم ألجاها الى الميل
أمضى من النجم ان نابته نائبة
وعند أعدائه أجرى من السيل
لا يستريح الى الدنيا وزينتها
ولا تراه اليها ساحب الذيل
يقصر المجد عنه فى مكارمه
كما يقصر عن أفعاله قولى

وكان الشعر رائعا بحق ، وكانت معانيه تأخذ الجلوس أخذا ،

وقد جذب الأعرابى بانشاده كثيرين وتجمع على الأصمعى من الظرفاء وطلاب المعرفة ما أثلجه وكان طـوال الوقت يتفحص السامعين ويتعمق الأبيات التى تنساب الى سمعيه كما ينساب الماء الرقراق من عين ثره ، فلمــا انتهى همس : أحسنت والله !

ولكن الأعرابى لا يأخذه ثناء ، ولا يلبث الا قليلا حتى يقول: يا أصمعى ، ألا تنشدنى شعرا ترتاح اليه النفس ويسكن اليه القلب !

وفى هذه المرة فكر الأصمعى قبل أن يفتح شفتيه بانشاد ، وهنا عنت له أبيات لعدى بن الرقاع فقال :

ونـاعمة تجلو بعــــود أراكة مؤشرة يسبى المعانق طيبهــا
كأن بهــــا خمرا بماء غمامة اذا ارتشفت بعد الرقاء غروبها
أراك الى نجــد تحن وانما منى كل نفس حيث حل صبيبها

وهنا زادت ابتسامة الأعرابى اتساعا وقال : ما هذا بدون الأول ولا فوقه ، الا أنشدتنى كما قلت أنا ؟

فتساءل الأصمعى قائلا : وما قلت جعلت فداك ؟

فأنشد :

تعلقتهـــا بكـــرا وعلقت حبهـــا
فقلبى عن كل الورى فارغ بكـــر
اذا أصبحت لم يكفك البدرُ ضوءها
وتكفيك ضوءَ البدر ان حَجِبَ البدرَ
وما الصبر عنها ان صبرتُ وجدته
جميلا وهل فى مثلها يحسن الصبر

وحسبك من خمر يفوتك ريقها

ووالله ما من ريقها حَسْبُكَ الخمر

ولو أن جلد الدر لامس جلدها

لكان لِلَمْسِ الدر من جلدها أثر

وكان الأعرابى قد وصل القمة بهذه الأبيات . وبدا على الجميع أنهم فتنوا به ، فى حين وثب الأصمعى وصاح فى تلاميذه : اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المدى فى رقاق الأكباد !

وتحوّلت الحلقة الى ما أراد الأصمعى أن تكون .. أقلام تصر ، وأوراق تقلب ، وأيد تتحرك ،والأعرابى يملى والأصمعى يعلق ويسأل مع ذلك ! وكذا كان ، والعالم اذا عثر على النادر يرى أنه ظفر بالغاية كلها .. يلتمس الهدف الملائم فان لم يصل اليه بمفرده استعان بغيره ، واذا كان الوصول الى الهدف أمرا سهلا عند العامة فهو غير هذا عند واحد كالأصمعى . لقد أدرك أنه فتح لتلاميذه معينا ثرّا ، ومن ثم قرر أن يضيفوه ، وشرع يخاطب كلا على انفراد يجمع له المال ليعيش بينهم .

وما انتهى هذا وذاك حتى عاد الى مساجلاته ومناقشاته ، وخلط كل أولئك بتعليقاته الحلوة . وكان الدرس قد انتهى — دون أن يقصد — الى احدى قصائد النابغة وطلب الى واحد من طلابه أن ينشدها عليه ، قال :

— اقرأ ما أنشد النابغة قديما « كلينى لهم » .

وتنحنح الطالب ثم انطلق يقرأ من قرطاس كان معه :

— كلينى لهم يا أميمة باضت .

وهنا انفجر الأصمعى ضاحكا ، وانطلقت الضحكات من كل جانب ، وكان الأعـــرابى لا يكاد يلاحق أنفاسه ، فلما هدأت العاصفة قال الأصمعى :

— يا هذا ، كل ناجمة الأذنين تحيض وكل سكاء الأذنين تبيض ، وان يكن هذا مما لا يعنينا الآن .

ولكن الأعرابى أعجب لعمق إدراك هذا العالم الشاب ، بينما عادت عاصفة الضحك ، ثم همس :

— لم أر تصحيفا أجلب للفائدة منه !

وتهيأ الأصمعى بعدُ للخروج ، وكان منشرح الصدر على ما تعوّد أن يكون قبل زوبعة الألم . وكان طريقه بسكة المربد مسرحا لنكات يسمعها من المـــارة ويُسمعها لهم ، وقد التقى بالشاعر أبى هشام الباهلى الذى التحم مع بشار فى هجاء نال منه وأوجعه ، وما كادا يأخذان بشىء من الجد حتى طالعهما كناس ينزح كنيفا وهو يغنى قائلا :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وســـداد ثغر

ولم يملك عبد الملك نفسه فاتجه الى الكناس وهو يقول :

— أما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه وأما ســـداد الكنيف فمعلوم !

ويبدو أن عبارته لم ترق الكناس لأنه حدجه بنظرة صارمة وقال :

— وأى كرامة حصلت لها منك ؟ وما يكون من الهـــوان أكثر مما أهنتها بها ؟

قال :

— بلى والله ، ومن الهوان ما هو أكثر وأعظم مما أنا فيه .

فدهش الأصمعى وسأله قائلا :

— وما هو ؟

فأجاب الكناس على الفور :

— الحاجة اليك والى أمثالك من السفلة ان سألتهم قالوا بورك فيك !

فأدار الأصمعى رأسه وانطلق موليا وهو يشعر أنه أخزى الناس ، ولم يأبه لنداءات أبى هشام ؛ فقد أدرك أن الكناس عرف كيف ينال منه .

١٥

بعد سنوات

لم يفت أمير البصرة — عيسى بن سليمان بن على — أن جوهرة لمعت فوق أرض المسجد الجامع ، فحرص على أن يضمها الى العقد الذى يزيّن به مجلسه ، وربط له راتبا يضمن به ولاءه وشخصه — وكان قد نما اليه حبّه للأمويين — وأشعره أن كل شيء رهن برضى السلطان عنه ، ثم أفصح عن مكنونه بقوله انه سوف يرسل به الى بغداد .

— أنا لا أحب بلد الحمراء .

نطق عبد الملك بهذه العبارة وهو لا يكاد يحس ، ولكن لهجته أثارت الأمير العباسى فقال وهو يكظم غيظه :

— لكأنى بك أعددت كلامك هذا قبل دخولك علىّ .

قال عبد الملك :

— ربما . اذ ما أطول ما فكرت فى أمور أمير المؤمنين وهو بين الحمراء فى بلده الجديد .. فى عطية الصنم أو ابليس والعياذ بالله ، ولقد كدت جعلت فداك أن أذهب الى أكرة القرى أمنعهم من مدّها بالحنطة والبر ، وفكرت فى أن أحرّض التجار على شيء مثل هذا ، وراودتنى نفسى على أن أخوض مع عبيد المصر

فى ثورة كثورة العلوى ، ولكنى تذكرت أن معدن هؤلاء واحد ؛ فهم اما نبط واما عجم ، والأمر بعد فى يد الله .

ودهش الأمير ، ولكنه ظل يستمع بهدوء ، حتى اذا انتهى قال :

— كان أبى يقول لى دائما وأنا طفل خذ حذرك من عالم يثور ، وكأنه قد أزفت اللحظة التى ينبغى أن أصطنع فيها هذا الحذر ، ولكن ألا ترى أنك تقتل نفسك يا أصمعى ؟

قال عبد الملك :

— لا وجه لذكر ذلك الآن .. فأنا لست عالما لأقتل ، غير أنى لا أزال مقتنعا بضرورة الوقوف فى وجه الحمـراء ! ان الضرائب التى تجبيها مثلا باسم أمير المؤمنين لبناء سور البصرة لن يفيد بها أحد سواهم مهما تكن الأحوال ؛ فالسور يتحصنون وراءه والمال الذى يؤخذ منا أربعين أربعين ينتفعون به وان كان خمسة خمسة .. أسمعت ما ينشده أهلنا العرب أيها الأمير ؟

يا لقوم ما لقينـا   من أمير المؤمنينا
قسم الخمسة فينا   وجبـانا أربعينا

من أجل هذا ومثله — جعلت فداك — يجب أن تتصدى للموالى أجمعين ، ولو لم يكن لى بيت فيه زوج لى وأولاد اذن لكان عام أربع وخمسين فاصلا بين عهدين .

قال عيسى بن سليمان :

— ولماذا هذا العام بعينه ؟

أجاب :

— لأنه عام الحزن والفقد .. فيه مات أخى وأمى ، وفيه قضى أبو عمرو بن العلاء ، وفيه نزح الأمير سعيد عن البلد فأقفر وشاه فى عينى .. ثم فيه يقام هذا الحائط الكبير !

أحس عيسى بأن هذا الرجل الناحل العود فى ردائه الرخيص المتألق العينين .. يطوى نفسه على أكثر مما يصرح به ، فقال يستدرجه :

— وماذا ترى ؟

أجاب بصراحة :

— يقصى يحيى بن خالد بولده الفضل عن قصر الخلد ببغداد .

قال الأمير :

— تأبى ذلك سيدة القصر .

وزم الأصمعى شفتيه ثم قال :

— وما دخل النساء فى شأن الرجال ؟

أجاب :

— أم الفضل أرضعت ولى العهد ويقال ان سيدة القصر أرضعت الفضل ووثب الأصمعى كالمذعور وهو يصيح :

— كذا .. والله ان نفسى لتحدثنى بأمور وأمور !

ثم سكت برهة أردف بعدها :

— لقد كان يقال على العاقل أن يؤنس ذوى الألباب بنفسه وقد فعلت حتى تكون على بيّنة من الأمر ، فان شئت استبقيتنى والا فاقذف بى الى حيث لا يعلم أحد .

فتضاحك عيسى وصاح قائلا :

— بل ستبقى يا أصمعى اذ لم تزد على أن كشفت عما ينبغى أن نكره ، غير أنى أعتب أن تدع حظنا من السرور بما حفظت من شعر قاله المهلبىّ فينا .

قال الأصمعى :

— ابن أبى عيينة ؟ انه يذمنى عند معمر بن المثنى فكأنه لا يزال يحمل غل ثأر قضيناه .. ان فى البصرة أشياء عجيبة حقا ، ولكن كل حى سيوافى ما كسب .

وسكت ، فقال الأمير :

— قلها يا أبا سـعيد . هات ما يتحدث فيه عن المبـاقل والفراريج .. أنشدنيها !

فوالله لا أطرب الى صوت أحد كما أطرب الى صوتك وهو ينشـد .

قال عبد الملك :

— مع ما فيما تطلب من سباب ؟

قال :

— مع ما فيه من كل شىء .

فأنشد الأصمعى :

اذا ما بنو العباس يوما تبادروا

عرى المجد وابتاعوا كرام الفضائل

رأيت أبا العبـاس يسمو بنفسه

الى بَيْعِ بيّاحاته والمبـاقل

يرخم بيض العـــام تحت دجاجة

ليخرج بيضــا من فراريج قابــل

ومضى السمر على هذا النحو .. عنيفا رقيقا ، فيه مرارة وفيه حلاوة ، حتى اذا أوشك الليل أن ينتصف قام الأصمعى خفيفا ، وخرج يضرب فى سوق المربد على حماره وهو يخب فى الجبان الى وادى العقيق حيث داره الصغير .

١٦

متاعب

أصبح أبو سعيد ذات يوم فاذا البصرة تقرأ كتابا يرد عليها من بغداد أو الكوفة سماه واضعه « المفضليات » وتردد فى الوقت نفسه هذه الرواية التى راح ابن الأعرابى — وهو محمد بن زياد — يدور بها فى المسجد زاعما أن الضبى يقول : قد سلّط على الشعر من حمّار ما أفسده فلا يصلح له أبدا .

وفجع عبد الملك .. فقد كان منذ يومين فقط قد قال وهو يقرأ فى ديوان امرىء القيس الذى يوشك أن يتمه : كل شىء فى أيدينا من شعر امرىء القيس هو عن حماد الا تتفا سمعتها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء .

ثم ازدادت فجيعته عندما دخل المسجد فرأى أبا عبيدة يقبل على ابن الأعرابى فى نفر من الشيوخ ويهدر كالفحل قائلا :

— سمعت أبا محرز يقول بالأمس أخذت من حمّاد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيته المنحول .

ما معنى هذا ؟

ابن الأعرابى وأبو عبيدة اتخذا كتاب المفضل الضبى ذريعة للهجوم على ما ينبغى أن يصان ، ولعلهما يقصدانه هو .. فان

الأول قد نال منه فى قصر الأمير سعيد قبل أن يرحل ؛ فقد سمع أحد أولاده يقول لبعض بنى كلاب :

سمينُ الضــواحى لم تؤرِّقْه ليلة
وأنْعَمَ أبكارُ الهموم وعُونُها

برفع ليلة ، فسأله الأصمعى وأبوه الأمير يشهد ويسمع :

— من روّاك هذا الشعر ؟

قال :

— ابن الأعرابى .

قال الأصمعى وهو يتذكر تصدّى لباب للدفاع عنه ذات يوم :

— انما أراد لم تؤرقه أبكار الهموم وعونها ليلةً بالنصب ، وأنعم أى زاد على ذلك .. أحضروه !

فلما جئ به صاح الأصمعى وهو يروى روايته للبيت :

— هكذا روّيتهم هذا البيت برفع ليلة ؟

أجاب وهو ينتفض بعض الشئ :

— نعم !

فانبرى أبو سعيد يبين له وجه الخطأ الذى وقف عليه الأمير سعيد من قبل ثم قال :

— ولو كانت الرواية « ليلة » بالرفع كانت ليــلة مرفوعة بتؤرقه ، فبأى شئ يرفع أبكار الهموم وعونها ؟

وأرتج على ابن الأعرابى ولم يحر جوابا فقال الأصمعى بتشفف عجيب :

— من لم يحسن هذا القدر فليس موضعا لتأديب ولدك . وقد كان !

وأما أبو عبيدة فهو خصمه القديم ، ولكنه فى هـذه المرة لا يقصر عداءه عليه فقط .. لماذا ؟ انه يزعم أن أبا محرز قال له انه خدع حمادا وكذب عليه ، فلماذا لا يذهب اليه ويسأله ؟ كيف يسمع هذا فيكتفى بالتفرج ؟ ان مهزلة من مهازل الحمراء توشك أن تقع ! ألا يعنى هذا أن ما يحفظ البصريون من شعر هو منتحل ما دام أبو محرز يضع الشعر لهم ؟ وما جدوى أن يقول أبو عمرو الشيبانى « ما سألت أبا عمرو بن العلاء قط عن حمّاد الرواية الا قدمه على نفسه » .

حتى أستاذه الأول يضيع على هذا النحو المهين !

وأسرع الى خلف الأحمر وهو يستعيد شريطا لحادثة وقعت منذ أيام فى بيت عيسى بن سليمان العباسى .. كانوا على سماط عندما انبرى ابن مناذر لخلف وهو يقول :

— يا أبا محرز ان يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا فهذه أشعارهم مخلّدة فقس شـعرى الى شعرهم واحكم فيه بالحق .

ماذا فعل خلف عند ذاك ؟

لقد غضب بحق .. احمرت وجنتاه حتى أحس الأصمعى كما لو أن نارا ستنفجر منهما ، ثم اذا هو يراه وقد أخذ صحفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه فملأه .. والأمير ينظر ويعجب متغاضيا عن سوء ما بدر من الاثنين جميعا .

ويجره الشريط الى حوادث مثل هذه ، كثيرة ، متداخلة ، ويسمعه يقول لبعض من كان يسأل عن البصر بالشعر « اذا أخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف انه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له » !

لم ينقطع شىء من ذلك حتى استوى أمام خلف وهو يلهث ، ولم يكد يضع أوراقه حتى تنبه الى غلام لعله كان أكبر منه شيئا يوم قصد مجلس أبى عمرو لأول مرة .. كان فيما يبدو يتم حديثا قطعه اقتحامه هو المكان ، قال :

— ان شعر الأعمى خير ما جادت به قرائح الشعراء

وأثارت عبارته الأصمعى فقال :

— أتعنى أبا معاذ بشار بن برد ؟

أجاب الصبى بسرعة ، ولكن فى رزانة لا تناسب سنه

— أجل .. فهو يرسل نفسه على سجيتها !

قال الأصمعى وخلف لا يبس :

— ألا تضيق باغراقه فى الخيال ؟

ولم يستطع الغلام أن يجيب ، وبدا كأنه وقع فى مأزق ، وهنا خف اليه أبو محرز قائلا :

— قل له يا بن هانىء ما قلته لى حين سمعتنى أنشدك لامية الشنفرى .

قال الأصمعى :

— لا عليه اذا لم يقل فان هذه أشرف مما يقول بشار

وكما كان يفعل وهو صغير اندفع ابن هانىء خارجا وهو

تمتم في عبارات لم يفهم منها شيئا ، ولكنها دفعته الى أن يتساءل :

— ومن هانىء هذا حتى أعرف ولده به ؟

أجاب خلف :

— يقال انه من ولد الحكم بن سعد العشيرة احدى أفخاذ مذحج ، ويقال انه مولى لهم .. مات تاركا الصغير لأمه جلبان .

قال الأصمعى :

— لا اختلاف فى اسمها وعجمتها ، ولعلها فارسية .

قال خلف :

— ولكنه شاعر .

ولم يهتز عبد الملك ، الا أنه أحس من بعيد كأن أبا محرز يتيه به ، فآثر أن يخلص الى ما يريد فصاح :

— أنت هنا تسمع للغلمان وفى المسجد يخوض فيك أبو عبيدة .

قال خلف :

— سبخت اليهودى .. وماذا قال ؟

أجاب :

— زعم أنك وضعت الشعر لحماد يرويه عنك .

ولم يتكلم خلف .. سكت طويلا والأصمعى قبالته قلق ، وينتظر عبثا ويحدق فى عينيه ويرجو أن تنفرج شفتاه عن أى شىء .. أى دفاع ، فانه لا يعتقد أنّ فى الدنيا كلها أكبر من وضع التقوّل واختراع الشعر .

— ماذا وراء سكوتك يا أبا محرز .

ألقى الأصمعي بهذا السؤال فرفع خلف نحوه عينيه وكانتا في الأرض ، ولما فتح فمه انساب صوته خفيضا واهنا :

— وما رأيك أنت ؟ لا تجب فانني أريدك أن تعجل بشيء فتندم عليه ، ولن أتكلم أنا فقد يدعوني الحفاظ على محبتك لي الى ما لا أحب أن يقع ، وانما الأمر بعد الى ضمائرنا تفضي بنا الى محمدة أو الى مذمة ، فان شئت الآن فعد الى المسجد فاقرأ عليهم ما أمليته عليك ، الا اذا أردت أن تنظـر في مفضليات الكوفي .

قال الأصمعي وقد فتر :

— أبلغك من أمرها شيء ؟

فأجاب خلف وهو يمد يده اليه بكراس كبير :

— هذه هي !

١٧

الحلقة تضيق

قال خادمه :

— مولاى ، بالباب من يقول انه العتبى يريدك .

وكان خلف فى هذه اللحظة متكئا على وسادته وقد وضع عمامته جانبا ، فلما سمع قول مولاه نظر خلسة الى الأصمعى ثم قال :

— لماذا لا يدخل ؟

قال :

— لست أدرى ولكن معه نفرا فيهم رجل يقول الحق بهم فى المربد .

وبدا على خلف أنه لم يتحمس لهذه الدعوة ، ومن ثم قال :

— دعهم يمرون وسأوافيهم بعد قليل .

وتطلع اليه عبد الملك .. كان يرتجف ، وأدرك هو من بعيد معنى أن يختلس اليه النظر ثم يضطرب .. أليس لهذه الدعوة صلة بتشيّع هذا النفر جميعا ؟ انهم يصدرون عن آراء ربما عاقب عليها عيسى بن سليمان أو غيره من أمراء العباسيين ، وهذه الآراء

نفسها هي ما تغضب الأصمعي دائما ، غير أنها لا تدفع به الى الوشاية .

والحق أن الأصمعي كان في هـذه الفترة في صراع عنيف بالنسبة لأبي محرز .. فهو يحبه ولا يريد أن يتهم أعماله ، وهو يحبه ولا يريد أن يتعرض لمعتقداته ، مع أنه يهاجم العلوية وشاعرهم السيد الحميري الذي يهدر بالطوال من غير ملل .. بل ربما نظر اليهم كلهم نظرته الى واحد من الزنادقة ، ولكنه مع هـذا كان يقول باخلاص « من حق من يقبسك علما أن ترويه عنه » فهل يعني أبا محرز ؟

ان المذهب الديني وقرع الحجة فيه بالحجـة لم يكونا قط سبيلا الى شد خلف الى أهل السنة . انه كان ينصت الى حججه في بعض الأحيان فيسلم باستحالة اللقاء الا في الشعر وروايته .

وخرج وخرج هو معه ، ولكنه فصل عنه بعض الوقت على أن يعود اليه بعد ساعة ، فلما أقبل عليه وهو مع العتبي وسائر النفر أسرع يعدل عن قصيدة لامية — كلامية الشنفرى — يذكر فيها ولد عليّ بن أبي طالب وما جرى عليهم من الظلم ، ودخـل في لامية الشنفرى بأبيات لم يسمعها أحد . ولم يطل عجب الصحاب فقد صادف مرور أبي هشام الباهلي وخلاّد بن يزيد وقطعا عليهم الرواية بصياحهما على الأصمعي ، فلم يكد يتوجه اليهما حتى صاح الرفاق لخلف :

— قد عرفنا غرضك فيما فعلت .

ثم راحوا يطرونه ويقرظونه ، فصاح :

— ان كان تقريظكم لى لأنى عملت الشعر فما عملته والله ، ولكنه للشنفرى يرثى تأبط شرا ، ووالله لو سمع الأصمعى بيتا من الشعر الذى كنت أنشدكموه ما أمسى أو يقوم خطيبا على منبر البصرة فيتلف نفسى ، فادّعاء شعر لو أردت قول مثله ما تعذّر علىّ أهون عندى من أن يتصل بالسلطان فألحق باللطيف الخبير .

وتطلع الى عبد الملك وكان اذ ذاك منهمكا فى الاستماع الى شىء يرويه خلاّد .. لقد كان عن شىء يسىء اليه أو الى أبيه بصفة خاصة ! ان عطاء الملط لم يكد يعرف أنه يقرأ فى مجلسه لنافع ويهش له مشيخة القراء حتى ثار واستتبع أصحابه هذا الصباح قائلا :

— مروا بنا الى ظاهر البصرة .

فخرجوا حتى وادى العقيق وهو فى أقصى الشمال من بئر الحفير فاذا أبوه الشيخ المسّن معه عنزات يرعاها وفوقه جبّه الصوف البالية ، فناداه قائلا :

— يا قُرَيْب !

فقال :

— لبيك !

قال عطاء متخابثا :

— ما فعل الأصمعى ؟

أجاب الأب :

— هو عندكم بالبصرة !

فقال عطاء :

— هذا أبو الأصمعى لا يقول غدا انه من بنى هاشم .

وتطلع الى حيث يجلس أبو محرز فوجد ثمة عيونا تحدّق فيه ، فأخذ يستعيد حكاية خلاّد وهو يحس كأنما حلقة جديدة تضيق عليه .. الجميع يتربصون ، وهم يتحينون الفرص لايذائه .. لماذا ؟ ألأنه أكثرهم تقويما للسيرة والطعمة ؟ انهم يرمونه بالهوى ويسمونه البخيل ، ثم يزعمون أن ما يكتبه مدخول عليه فيه ، فكأنهم يتشدون أن يكف وقد غاب عنهم أن المحسن مستثيب وان غبرت السنون على احسانه لا يظهر .

* * *

وفى المسجد حدث الصدام فجأة .. لقد سمع أبو عبيدة صوت الأصمعى يقول « بينما أبى يساير الأمير سلم بن قتيبة على فرس له » فضحك عاليا وصاح :

— سبحان الله والحمد لله والله أكبر

وهنا يتجمع المسجديون حول الرجلين ، ويمضى أبو عبيدة قائلا :

— المتشبع بما لم يؤت كلابس ثوبى زور ، والله ما ملك أبو الأصمعى قط دابة الا فى ثوبه .. اسألوا عطاء .

ثم لا يمضى كثير حتى يصخب المسجد بحديث ينتحله ليوجع الأصمعى ، يقول فيه ان الأشعث بن قيس الكندى قال للنبى : أتتكافأ دماؤنا يا رسول الله ؟ فقال عليه السلام : نعم ، ولو قتلت رجلا من باهلة لقتلتك !

وهنا صرخ الأصمعى :

— أتكذب على رسول الله ؟

— ومن أين لك أنى كذبت ؟

— تفاهة ما يرويه أمثالك عن ابن أبى العوجاء وجمعه .

— والله ما أروى الا الصحيح من الأسانيد .

— وهذه يمين باطلة أيضا يا بن الحائك .

— أتسبنى ؟

— بل أسب الالحاد فيك ووالله اما تسكت أو أوقعك فى بلاء لا تخلص منه أبدا .

* * *

قال واحد من المسجديين :

— طال الأمر بين الرجلين .

فقال آخر :

— وأى أمر لا يطول فى البصرة ؟

١٨

مؤامرة

لا شىء فى الدنيا يسىء اليه كما يسىء التقوّل !

وكل أيامه التى أصبح فيها معلما كانت سلسلة من التقوّلات ، ولكنه كان يردّها عنه بلباقته حينا وبما أثر عنه من صلاح حينا آخر ، ولم يكن يطمع فى أكثر من أن يثبت بنو عشيرته لابتلاء الدهر .

ذلك كان احساسه .

وكان يحس أيضا وبوجه خاص أنه لا شىء فى هـذه الدنيا أعنف من الانفجار الذى يوشك أن يقع ، فيقرر مصيره ومصير غيره من العرب .. فليس خليفة بغداد بالذى يقطع فى أمر يعنيهم ، ما كان لا يعنى المهدى ولىّ عهده !

ووالى البصرة وأولاده يطمعهم حرص الخليفة فى أن يبنوا لأنفسهم القصور ، ويحوزوا من مال المسلمين ما ليس من حقهم ، والحق ضائع بين كل أولئك .

* * *

— سيدى .. شرط الأمير فى رحبة الدار .

وانتفض انتفاضة قوية وقال :

— شرط الأمير عندى أنا ؟

أجاب الخادم :

ـــ أجل ، ومعهم جريح !

وسمع أصواتا فى تلك اللحظة تبين فيها قول قائل :

ـــ أجل هو أبو سعيد .. لقد كانوا يصرخون وهم يضربوننى « خذها من الأصمعى » .

وأسرع فرأى الجريح هو الذى يتكلم .. وكان منكر الهيئة ، عظيم الأنف ، أهرت الشدقين ، طويل القامة ، وما وقع بصره على عبد الملك حتى صاح :

ـــ ها هو ذا .. قد وكل بى جماعة من الغوغاء وأنا خارج من دار أبى معاذ العقيلى .

ووثبت صورة بشار أمام عينى الأصمعى ، غير أنه لم يهتز .. فقد أحس أن ثمة أمرا وراء هذه التهمة العجيبة ، ولقد أقبل على الجند يقول برقة :

ـــ لابد أن يأخذ العدل مجراه .. هذا ما قضى به الله ورسوله ، ولكن هل ثمة ما تعجلون به قبل أن أواجــه متهمى على انفراد وأعرف على الأقل اسمه ؟

قال الجريح :

ـــ أتنكر أبا الشمقمق يا باهلى ؟ والله لا أغفرها أبدا .

قال الأصمعى بهدوء :

ـــ أيرضيك أن ينزل قصاص برجل يقسم أنه لا يحمل لك ضغنا ؟ وماذا اذا اعتدى عليك ثانيــة ممن يريد النيــل منك وأنا بعيد ؟

وتململ الشرط .. ثلاثة من الرماة البخارية الذين أتى بهم عبيد الله بن زياد الأموى الى البصرة منذ قرن تقريبا .. غوغاء وكلت اليهم شرطة البلد ! وكان من الصعب التفاهم معهم ، غير أن الأصمعى كان فى وسعه دائما أن يستهوى الأفئـدة بحديثه فقال :

— أنا أسلم نفسى للشرط يا رجل ، ولكنى أعلم أنه يثقل عليهم أخذ البرىء بالمذنب .

انه يتملّق ..

ولكنها سُنّة الحياة فى بلد أصبـح فيه كل شىء للعبيد ، واستطرد وهو يرى على الوجوه الكالحة معالم رضى :

— يا أبا الشمقمق .. بل يا أبا محمد ، فقد عرفتك من شعرك وان لم أرك قط ، قلت ان مهاجميك كانوا يصيحون وهم يضربونك « خذها من الأصمعى » .

— أجل والله .

— وهل تظن أنى أفعل لو أردت ؟ أترانى أتستر وراء غيرى ثم آمرهم بذكر اسمى ؟

ولغط الجند .. انهم مقتنعون بمنطقه ، وما عليه الا أن يمضى :

— أنت شاعر ، أليس كذلك ؟

— بلى . ويعرفنى أبو دهمان الغلابى فى نيسابور .

— بل نعرفك نحن ، ونعرف أن لك من جماعتك من الشعراء من ينفس عليك لأن غايتكم السؤال .

— تريد أن تقول ...

— أريد أن أقول ان واحدا كمروان بن أبى حفصة قد يجزيه أمرك ، وضع الى جانب هذا أبا معاذ وتلميذه سلما وأبا العتاهية ووالبة ويوسف بن الحجاج والممزق الحضرمى وغيرهم .. وأما أنا فصناعتى غير هذه الصناعة ، فماذا يجعلنى أنفس عليك ؟

ومرة أخرى لغط الشرط ، وأما أبو الشمقمق فقد تهاوى الى الأرض يدفن رأسه بين يديه وهو يقول :

— ويلاه .. ويلاه !

بينما مضى عبد الملك مستطردا :

— والله انى لأعرف فيك طاقة بددتها باستجداء أمثال أبى معاذ ، وكأنى بك صائر الى أن تكون واحدا من الكاغانيين أو العوائين أو المخطرانيين تعيش على الزكورى ليل نهار .

كان يخاطبه على النحو الذى يفهمه ويعرّض فى الوقت نفسه بهذه الطائفة من المكدين الذين ظهروا فى البلد فملأوه متحايلين على خداع الناس لينالوا منهم ما يسميه الحمراء بالزكورى وهو خبز الصدقة يجرى على السائل أو السجين ! على أن الجند رأوا فى احصائه أنواع السائلين تذكيرا لهم بواجبهم فتراشقوا النظرات فيما بينهم ، ثم قال أحدهم لأبى الشمقمق :

— عجّل يا رجل بما ترى فقد رأينا أنه برىء .

قال مغلوبا على أمره :

— انصرفوا أنتم لو شئتم وأما أنا فسألزم أبا سعيد حتى يفرغ من حديث الشعر والشعراء !

الغرفة العليا ، فدخل الأصمعي بالشاعر الى غرفة جانبية مد فيها خوان وضع عليه صحن طباهج وقطع خبز ، ولكن أحدا لم يغب عن سمعه نشيش لحم من مكان قريب ، فقال أبو الشمقمق :

— والله ما في الأرض أكرم منك .

قال الأصمعي وهو يضحك :

— بل أنا بخيل كما يقال الا أن يكون صوت المقلى قد فتح الأبواب أمامي الى الكرم .

قال الشاعر متخابثا وكأنه لم يسمع شيئا :

— ولكن الطباهج فارسي يا أبا سعيد .

فقال الأصمعي :

— بل هو عندنا أيضا ونسميه الصفيف .

وكان الخادم قد دخل باللحم فلم يلبث الا ريثما مضغ الأصمعي مضغتين اثنتين ، ثم أصبح كصحن الطباهج في خبر كان ، فلم يعد بد من أن يحل محلهما التمر مع سمن سلاء وخشكنان محشو بالجوز والسكر ، وهنا أسرع الأصمعي يقول :

— يا أبا محمد الخشكنان نعرفه أيضا ولكن الحمراء تسميه الخشكنانج .. أليس كذلك ؟

قال أبو الشمقمق :

— والله لن أجيب ولن آكل شيئا حتى أقول لك احذر يا أبا سعيد فالقوم يأتمرون بك ، وهم يتهمونك بأمور سوف يطلبك بها السلطان !

١٩

المهدى

لم يجد تحذير أبى الشمقمق ، فقد سيق الأصمعى الى السجن وآخذه يقرأ قول الله « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » .

وقد انتشر هذا النبأ فكان له صداه العميق ، غير أنه لم تمض ساعات قلائل حتى أتى الناس خبر آخر تشاغلوا به . فقد ردد الناعى فى كل الأنحاء أن أبا جعفر المنصور قضى وهو ببئر ميمونة متأهبا للحج ، وكان العام ثمانى وخمسين ومائة والشهر ذا الحجة والسماء تسح لا ينقطع منها ماء .

وسمع الأصمعى وهو فى سجنه أن الربيع بن يونس مولى الخليفة الراحل وصديقه بايع لمحمد المهدى فتبعه الناس . ولكنه لم يحاول أن يشغل نفسه بهذا الأمر لا سيما بعد أن كتب للأمير عيسى بن سليمان يعوذ به ويعتذر ، فلم يجبه . ومع بدايات العام الجديد نمى اليه أن المهدى راح يتعقب الأمويين وأنصارهم ، وقد بدأ بآل زياد فأخرجهم من قريش بعد أن كان معاوية قد استلحقهم

فأدرك أنها النهاية !

الا أنه لم ينقطع عن الكتابة الى الأمير ، ورأى فى آخر الأمر أن يوسط أبا محرز والخليل بن أحمد والأمير سعيد الباهلى ، ثم طلب شفاعة أستاذه وصديقه سفيان بن عيينة المحدث الذى تردد عليه فى مكة والذى ارتفع اسمه بين أهل السواد وأحبه العباسيون .

وما كادت كتاباته تصل الى هؤلاء حتى كان أمره قد انتهى الى المهدى ، فأرسل يستدعيه فسيق الى بغداد مخفورا ، ومثل بين يدى الخليفة وهو متوجس مضطرب لا يعرف كيف يؤدى مراسم الخضوع . ويبدو أن المهدى أحس بضائقته ، لأنه قال له:

— حسبك ، حسبك يا رجل فأنا اليوم للمظالم !

وبوغت الأصمعى ، اذ لم يكن يتصور أن هذا يحدث ، ولكنه حين رأى سفيان بلحيته العظيمة وبجانبه أبو عبيد الله شريك القاضى اطمأن الى أن العدل مقضى ولو كره شانئوه ، ومن ثم راحت عيناه تتقلبان ليشهد وجوها أخرى .. هذا هو الوزير يعقوب ابن داود بن طهمان .. شعوبى لئيم ، والى جانبه يحيى بن خالد البرمكى! هو لم يره قط ولكن ما سمعه عن أوصافه ونعوته لا يرسم أمامه الا تلك الصورة ، ولكن أيطمئن حقا والخليفة بين هذين ؟

والى وراء أبان بن صدقة .. واحد من الذين قد يزجون النصح ، وعن شمال المقعد الذى يتربع عليه الخليفة كان هناك الفضل بن الربيع .. عربى آخر ، ولكنه صغير أمام هؤلاء الذين يملكون حق الكلام ، ثم غلامان رجح أن يكونا الهادى والرشيد..

ولدى المهدى الذى يؤثرهما ويعدهما للأمر العظيم من بعده .

الخليفة شاب يتدفق حيوية وتلمع عيناه ذكاء ، ولكن عينى يعقوب تتفجران شرا ودهاء .

— قلت أنا اليوم للمظالم ، فما بلغنى عنك ؟

وتنبه الأصمعى .. أدرك أنه كان يسبح وضلّ فى التيـــار العظيم ، فأحنى رأسه وهو يقول :

— هو ما ترى يا أمير المؤمنين .. وجه كاسف ولحية رثة وثياب بالية ، وما كنت بالذى أجزى هذا الجزاء على تهمة أنا برىء منها كل البراءة .

قال الخليفة :

— وماذا عن بنى مروان فيما تقول ؟

أجاب الأصمعى :

— قوم راحوا فما لنا بهم سبب ، الا اذا أردتنى يا أميرالمؤمنين على أن أتكلم فيهم بما تريد فترى فيهم ضؤولة ترفع من قدرك .. يا أمير المؤمنين ان بنى هاشم لأكبر من أن ينزلوا هـذا المنزل ، وليس بناقصهم فى رأيهم ولا غامطهم من حقهم أن يقـول عنى المتقولون بما ينال منهم .

وعند ذلك سكت ولم ينبس أحد ، ولكنه لمح فى العيون انتقادا ، وشاهد سفيان بن عيينة يمسح على لحيته البيضاء برفق ، فلم يملك الا أن يمضى قائلا :

— لو رأى أمير المؤمنين أن يأخذنى فلن يجد يدا تمنعنى عنه الا يده ، ولكن البصر بالأرب أولى من الاستسلام للغضـــب ..

فلسنا الى ما يشبهك أرماقنا بأحوج منا الى ما يمسك حشاء فيه يكون النفع اذ تظهر الغاية ، وكذلك ينظر المرء أين يضع نفسه .

ولغطت جماعة وتنهدت جماعة أخرى فأشار المهدى أن يكف ثم قال :

— خلبتنا فصاحتك يا رجل ، ولكنك تدور حيث يحسن الدوران ، ولم تقل قولتك فى آل مروان .

قال الأصمعى :

— أنا لم أذكرهم قط يشهد الله وانما حمل على نفر فى قلوبهم مرض فماذا يرى أمير المؤمنين ؟

وتبسم المهدى ثم قال :

— تسأل عن رأيى أنا ؟ اذهب يا أبا سعيد الى بلدك وانظر فى أمرك على ألا تضع نفسك موضع الشبهة .. فان العاقل ينبغى أن ينظر فيما يؤذيه فيتركه ، وفيما يجدى عليه فيفعله ، وان ابن عيينة ليقسم أنك برىء وأحس أنا من كلامك هذا الا فيما يخرج عنه .. أتفهمنى ؟

قال وقد بدأ جسمه يرتجف :

— ان كان يرضى أمير المؤمنين أن ألزم بيتى لا أبرحه فعلت وان ...

فقاطعه الخليفة محتدا وهدر :

— بل افعل ما تريد ولكن لاتنس أن لنا عيونا ترى وآذانا تسمع !

* * *

وينسل الأصمعي خارجا ...

جندي يسلمه الى جندي ، وهو يضرب في دهليز صخري آونة وفي رحبة ذات طاقات معقودة آونة ، ثم في بساتين تسلمه الى باب سامق رأى الفارس يدلف منه منتصبا ولا يميل ! ومن حول القصر — قصر الذهب — بيوت ليست كبيوت البصرة .. جعلت في سطوحها قباب كانت ترفعها عمد دقاق ، وثمة قبة كبيرة خضراء هي التي كانت تسقف الايوان الذي كان فيه منذ قليل ، وعلى رأس القبة فارس رامح .. انهم يقولون ان هذه تاج بغداد !

أو مدينة السلام ...

وهذا قصر الخلد على شاطىء دجلة الغربي .. النهر هنا لطيف يجري رخاء ، والناس يتزحون تجاهه جماعات ، ومن وراء قصور تبنى ، وسمع أنها ليحيى البرمكي ولأولاده وسراريه .

ثم اختلطت الصور وازدحمت .. القلانس والأقبية حلت محل العمائم ، والغلمان يضعون القراطق ، والعقال ضائع ! والشجر يعانق الشجر ، والنسيم رقيق .

— هذه هي مدينة السلام ؟

— أجل يا أبا سعيد !

والتفت فرأى سفيان بن عيينة . يعتله الفضل بن الربيع ، وكان سفيان لا يزال يمسح على لحيته البيضاء ، ولم ينطق بحرف واحد في حين قال الفضل بصوت خفيض كالهمس :

— هي لهم اليوم ، ولكننا سنمهلهم الى الغد !

٢٠

العـــودة

دخل الأصمعى البصرة على الصباح وعرفه الناس، جبهة عريضة وعينان تشعان بريقا ولحية سوداء تحتضن فما مليئا ، والجبة قاتمة والعمامة بيضاء مضطربة ، وفى القدمين نعلان رخيصان .

وكان منفرج الشفتين يتقلب بروح قرير ، والقوم يحيونه ويهتفون به فى مودة ، الا اذا كانوا من الحمراء فيعبرون أمامه بغير مبالاة يتيهون بقلانسهم تيها وكان هـــو يضـــحك لذلك ويعجب أن يتحول العبيد سادة ، وفى سوق القصارين قامت اليه عجوز كانت مقتعدة عتبة دارها وقالت :

— هأنتذا أبا سعيد !

وحياها ، فأشارت الى رجل قبالتها يضرب فى الطريق خارجا من السوق وقالت :

— ايت ذلك الشيخ فان عنده حديثا حسنا فاكتبه ان شئت .

— الآن .. وأنا عائد من سفر طويل ؟

— انما أخلصت النصيحة وأردت الارشاد لك .

— أحسن الله ارشادك .

وأسرع وراء الشيخ ، وكان فى زى البدو ، يتزيا زيا خشنا

وان يكن نظيفا ، وكان يمشى فى تثاقل فتمكن الأصمعى من اللحاق به قبل أن يختفى فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قال :

— من أنت ؟

— أنا عبد الملك بن قريب الأصمعى .

— ذو يتتبع الأعراب فيكتب ألفاظهم ؟

— نعم ، وقد بلغنى أن عندك حديثا حسنا معجبا رائعا .

— هو ذاك .

— أتنبئنى ؟

— نعم ، فأنا حذيفة بن سُور العجْلانى وُلِدَ لأبى سبع بنات متواليات ثم حملت أمى فقلق قلقا كاد يفلق حبة قلبه من خوف بنت ثامنة ، فقال له شيخ من الحى « ألا استغثت بمن خلقهن أن يكفيك مئونتهن » قال « لا جرم ، لا أدعوه الا فى أحب البقاع اليه ، فانه كريم لا يضيع قصد قاصديه ولا يخيب آمال آمليه » . فأتى البيت الحرام وقال :

يا رب حسبى من بنات حسبى
شَيَّبْن رأسى وأكلن كسْبى
ان زدتنى أخرى خلعتَ قلبى
وزدتنى همـا يدق صـلبى

فاذا بهاتف يقول :

لا تقنطنْ غشيت يا بن سُور
بِذَكَر من خيرةَ الذكور
ليس بمثمود ولا منزور

ممجــد من فعله مشــكور
موجّه في قومـه مذكور

فرجع أبي واثقا بالله جل جلاله ، فوضعتني أمي ونشأت أحسن ما نشأ غلام عفة وكرما ، وبلغت مبلغ الرجال ، وقمت بأمر اخواتي وزوجتهن — وكن عوانس — ثم قضى الله أن سترتهن والدتي ، ثم منّ الله على أن أعطاني فأوسع وأكثر وله الحمد ، وولدت رجالا كثيرا ونساء ، وان بين يدي القــوم من ظهري ثمانين رجـلا وامرأة (١) .

— أهذا كل علمك ؟

— هو حسبي .

— وهل جامعك عليه ذوو الألباب ؟

— ان قصدت هؤلاء الذين يقعدون في الجوامع فلا ، وان كان غيرهم فقد عرفني كثير ، وما وجدت أسـوأ منك طالبا ، تستوقفني ثم لا تعجبك بضاعتي .

وتولى الأعرابي نافرا غاضـبا ، فاتخذ الأصمعي سمته الى المسجد وقد انقبض . غير أن الدروب كانت مكتظة والأسواق عامرة ، فثمة قادمون وذاهبون ، وحمير تحمل الصناديق ، والمراكب تنزلق في روافد النهر الكبير .. المنظر بديع ، ولكنه لم ينل من نفس الأصمعي ! وقد دخل المسجد مبطئا فما راعه الا زحـام لم يكن له به عهد ، وهنا وهنالك رأى أبا عبيدة بكل ما في وجهه

(١) ذو : الذي (يمانية) ، لاجرم : لابد أو لا محالة ، المثمود : كالمنزور أي الذي يعطي بعد الحاج ، موجّه أي ذو جاه وقدر .

من مكر ودهاء ، وعن يمينه تماما ابن الأعرابي حوله عشرات من معارفه .. فيهم يونس بن حبيب مرجع أئمــة المســجد فى مشكلات النحو ، وفيهم الخليل بن أحمد يربت على كتف ابن الأعرابى ويقول له قولا يضحكه ، وشعبة بن الحجاج أحسن من يناظر فى اللغة ، وأبو محرز .. ولكنه فى حلقة آحس من اشارات أصحابها أنهم يتحدثون عن ابن الأعرابى ، ماذا حدث ؟

وكان قطرب أول من تنبّه الى وجود الأصمعى فأسرع نحوه يحتضنه وراح ينادى فى المسجد :

— ها هو ذا جاء .. هذا أبو سعيد !

وأسرع أبو محرز يأخذه بين ذراعيه ، وتبعه غــيره حتى أبو عبيدة ، بل لقد أنشأ هذا يقول :

— أوحشنا والله منك يا أبا سعيد .

وهمس الخليل وهو يقبله :

— ماذا فعل الله بك ؟

— خاب الوشاة باذن الله .

— والناس فى بغداد .

— كأنهم ليسوا منا ، ولكنهم يشتغلون بأعظم مما نشتغل به .

— وما عساه هو يا أبا سعيد ؟

— على الأقل لا يسمعون الى ترهات الأعراب ، اننى وآنا اليكم قابلت واحدا فما راعنى الا حديثه عن ثمانين من ظهره ، وهناك يقيمون العمــائر ويوطدون للغد ، والله لئن قعدنا عن مطاولتهم غلبنا الى الأبد .

وحمل السامعون كلامه محامل شتى .. فالعرب أدركوا أنه ينفس على الشعوبية ، والشعوبية ظنوا أنه يدعوهم الى أن يتعصبوا لبلدهم ، وفريق ضائع يرى أن حسبه أن يعيش .. بينا أخذ ابن الأعرابى يتقدم نحوه فى تردد كأنما يخشى شيئا ، فما وقعت عينا خلف عليه حتى صاح :

— ألا هنأته يا أبا سعيد !

ولم يفهم الأصمعى شيئا لأول وهلة ، فعاد خلف يقول :

— لقد بنى بواحدة منكم .

— منا نحن .. من باهلة ؟

— من جوارى باهلة .

— ومن هى ؟

— انها لباب جارية الأمير سعيد !

٢١
مع التاريخ

ومضت سنوات حدثت فيها أشياء كثيرة .. أهمها بالنسبة للأصمعى اتهامه بالدس لبشار بن برد عند المهدى وعند وزيره يعقوب ، فقد تناقل أهل البصرة أنه أشاع شعرا على لسان أبى معاذ يقول فيه :

بنى أمية هبوا طال نومكم　　ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا　　خليفة الله بين الزق والعود

وكانت النتيجة أن المهدى أخذه أخذ الملحدين ، ووكل به عبد الجبار صاحب الزنادقة فحمله الى البطائح وضربه حتى قضى عليه . ويروون أن بعض الباهليين شهدوا مصرعه بفرح ، وأن واحدا منهم قال لما طرح فى السفينة :

— ليت عين أبى الشمقمق رأتنى حين يقول « ان بشار بن برد تيس اعمى فى سفينة » .

وعلى الرغم من أن أحدا لم يحزن لذهاب بشار ، فقد حرص الأصمعى على أن يعلن حياده المطلق ازاء مصرعه . وراح ينكر بشدة أن يكون له يد فيما حدث ، بل قرر أنه يحمل دائما على

الوشاية وأعلن أسفه لموت شاعر كبير ، ولكن أبا هشام الباهلى كان على نقيضه وأنشد أشعارا فى هجائه رددها العوام .

ومن الأحداث الأخرى استخلاف الحسن بن هانىء بشارا فى مجونه وتكنّى بأبى نواس .. فقد كبر الفتى الجميل وصاحب محمد بن مناذر ومحمد بن بشير والرقاشى وسلما الخاسر وأبان اللاحقى والحسين الخليع مولى باهلة ، واتصل بشعراء الكوفة اللاهين ومنهم مطيع بن اياس وأبو العتاهية وصريع الغوانى ، وتخرّقوا جميعا فى النفقة على الجوارى والغلمان وعلى بواطى الخمر وتسموا بعصبة المجان . فأثاروها فتنة ضج لها الناس ، وقام المعتزلة فى البلد يقاومونهم ويثيرون عليهم السلطان ! ولكن لحسن طالع هؤلاء مات المهدى وتولى الهادى عام تسع وستين ومائة ، ولما كان محبا للفنون وبخاصة الشعر فقد وجد كثير من هؤلاء مطمعا فيه حتى لقد ظفر سلم الخاسر منه بثلاثمائة ألف درهم نظير قصيدة واحدة .

وبقدر ما فرح الأصمعى بسياسة الخليفة الجديدة القائمة على التنكيل بالعلويين ، حزن للأبهة التى أحاط بها نفسه ؛ فقد شهد بعينى رأسه كيف اذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المشهرة والقسى الموتورة ، والى جانب ذلك فتح قصره لابراهيم الموصلى المغنى الشاعر الأديب وأعطاه فى ثلاثة أبيات له أطربته خمسين ألف دينار .

وقامت الثورات ، وكان من الممكن أن يفرح الأصمعى بها ، لولا أنه خشى ازدياد نفوذ الحمراء ، ولولا أن هذه كانت موجهة

ضد وزيره العربى الربيع بن يونس . ولما استتب الأمر قر قراره ، ثم دهش حين ترامى اليه وهو فى حلقته بالمسجد أن أمير المؤمنين قضى فجأة وخلفه أخوه هارون الرشيد ، وقيل اذ ذاك ان ليحيى ابن خالد البرمكى دورا فيما حدث وقيل بل لعبت هذا الدور الخيزران .

ثم ما أسرع ما حمل البريد الى البصرة أمر الخليفة الجديد ، فقد أذيع أن الرشيد قال ليحيى « احكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت وافرض من رأيت وأسقط من رأيت ، فانى غير ناظر معك فى شيء » واذ ذاك قال الأصمعى :

— واضيعتاه !

وكان أبوه قريب قد مات ، ولحقت به زوجته هو تاركة له خمسة أولاد مات منهم ولدان فى سنة واحدة ، وعاشت ثلاث بنات اشترى لهن جارية تقوم على خدمتهن . وأحس كأنما الدنيا تدبر عنه ، بل لقد قوى احساسه بذلك حين تكالب عليه الحمراء فى المسجد وظهر عليه أبو عبيدة ، وهو يذكر ذلك اليوم الذى كان يستريح فيه بالاستماع الى أستاذه شعبة بن الحجاج . وكان أبو عبيدة اذ ذاك قريبا منه على غير عادة ، وراح صوت الأستاذ ينساب قارئا قصيدة فروة بن مسَيْك .

لما جبنوا أنّا نشد عليهمُ ولكنْ رأوا نارا تحس وتسفع

ولم يرتح الأصمعى الى « تحس » وبدا له أن شعبة لابد أخطأ ، فانبرى يقول قبل أن يستطرد :

— انما هى تحش بالشين .

ولم يستأ الشيخ ، فقد كان الأصمعى لا يزال يعامله بأدب جم ، بل كان يستملح ملحوظاته ، ولكنه فى هذه المرة متأكد مما يروى فتطلع اليه قائلا بهدوء :

— هكذا أخذناها عن شيوخنا .

ولم يستسلم الأصمعى ، وكانت لديه مبررات قوية لاعتراضه ، فقال برقة وأبو عبيدة يرقب بعينى صقر :

— اذا جاءت بالسين كما تقول أفادت معنى القتل ، واذا جاءت بالشين أفادت معني الوقود وهو الأصح لمعنى البيت .

ثم أفاض فى هذه المسألة وأسهب ، وأخذ يسوق من الحجج ما أقنع الجميع ، فظهر على شعبة الاستسلام وأطرق قليلا ثم رفع رأسه وقال :

— لو فرغت للزمتك !

وتنفس الأصمعى فى رضى فانبرى أبو عبيدة يقول :

— وممن أخذتها يا أبا سعيد ؟

أجاب الأصمعى :

— من أبى رحمه الله .

فتضاحك أبو عبيدة وصاح قائلا فى سخرية لاذعة :

— أحدّثك بها أم ساقها لسلم بن قتيبة وهو يسايره على فرسه ؟

ونهض واقفا قبل أن يسمع الى جواب ، ويبدو أن شيئا شغله ... ذلك الشاب الذى يقفو اثره ، وسمع الأصمعى من بجانبه يقول :

— انه يحاول أن يوقعه فى حبائله .

— من هو ؟

— أبو نواس !

وأيد مسجدى من الفضوليين هذه القالة ، وقرر أنه مدرك مدى الخطر الذى يتعرض له شاب يوقعه سبخت اللعين . حقا يشاع عن الشاب ما يشاع من انحراف ، غير أن أصدقاءه يزعمون أنه لا يكلف الا بجارية مجهولة ، وهى شابة غضة لم تجاوز بعد السابعة عشرة ولكنها شاعرة ومغنية لا يشق لها غبار .

وتعمق الأصمعى ذلك كله قبل أن يستسلم لفكرة ومضت فى خاطره .. ماذا لو حارب خصمه بالسلاح الذى يلعب به ؟

وأسرع وراء الاثنين ، ثم غاب عن العيون !

٢٢

مع الحسن

دق الأصمعى على باب سليمان بن أبى سهل فى وجل . فهو ان شوهد فى هذه الساعة على مقربة من بيت هذا الزنديق أخذ بتهمة لا قبل له بردّها ، الا أنه كان مضطرا الى ذلك . اذ أعيته كل الحيل فى العثور على أبى نواس ، حتى اذا عرف أنه يقصد سفيان — وهو من عصبة المجان — قرر أنه يتوجه اليه ، ولكن دهشة سليمان برؤيته كانت بالغة ثم لما عرف أن الأصمعى يسأل عن صديقه الحسن قال :

— لقد جعل شربه عندى أياما ثم انصرف على أن يعود .

قال الأصمعى :

— أفتدلنى على مكانه هذه الساعة فأقصده ؟

فأجاب سليمان :

— ومن يدلنى أنا ؟ انه يكتم كل شىء ، غير أننى أعرف أنه وراء جارية رآها فى المربد ففتنته وما عاد يصفو له عيش بسببها .

قال الأصمعى :

— سمها يا رجل .

فهزّ سليمان رأسه وقال :

— لقد أبى أن يعرفنى خبرها لأعاونه عليها وأحتال له فيها ، وفى فجر هذا اليوم تنبهت فاذا هو قاعد متيقظ ، ثم اذا هو يسمعنى أبياتا فى وصفها لم أحفظ منها الا هذا البيت :

فوق القصيرة والطويلة فوقها دون السمينة دونها المهـزول

ولم يرق الأصمعى ما سمع ، فمط شفتيه وقال بازدراء :

— ان كان ما يقول شعرا فيا ضيعة الشعر فى هذا البلد .

فقال سليمان وقد أدرك أنه بدأ يغيظ الأصمعى :

— بل هو الشعر والله ، وأما أن تقفوا عند حوامل والدخول وتذكروا الشيح والقيصوم فهذا شىء لم يعد لنا به عهد .

وقد فطن الأصمعى الى ما يريد ذلك الماجن أن يجرم اليه ، فقال وهو يخفى تبرمه :

— لست بسبيل مذاكرتك أيها الخبيث ولكنى وراء الحسن .

ثم جمع أطراف جبته واندفع الى الباب ، غير أنه ما كان يدلف منه حتى فوجىء بأبان بن عبد الحميد اللاحقى ، ماجن آخر من عصبة المجان ، وكان يسكن لصق أبى عبيدة فقال له :

— هل رأيت الحسن ؟

— انه الآن فى حمى عبد الوهاب الثقفى ، ولو رآه لدكه دكا !

— وكيف ؟

— لقد علق بجاريته جنان ، وهو الآن سكران ينشد الشعر مقبلا ذا الجدار وذا الجدار ، وتناقل القوم خبره وعن قريب يحيق به المكر السيىء !

— يا عجبا !

ومضى لا يلوى على شىء . فقد اهتدى الى صاحبه ، ولكن كيف السبيل الى اقناعه وهو المستهام الذى لا يفكر الا فى جارية الثقفى ، أفيكون ما قصه أبان صحيحا ، أم هى وشاة من وشايات هذا الشاعر الخبيث ؟ ان جنان الجميلة الفاتنة لا تليق بأحد غير أن يكون أميرا ، وقد دربها سيدها على الشعر والغناء وأدّبها . ومحال أن يرضيها الحسن وهو هو من لاكت سمعته الأفواه ، وتبذل ، ووقع فى كل محظور !

ويبدو أن الأمر كان دون ما صوّر صديقه ، لأنه لم يكد يقترب من رصافة البصرة حيث دار الثقفى حتى لمحه يقبل ويدبر ، وقد دنت اليه ثلاث جوار رحن يعبثن به .

— هل أنت الحسن بن هانىء ؟

— أنا أبو نواس المُعَنَّى !

— العاشق الصب ؟

— أى والله !

— لمن ؟

— لمن لا تعلم الا الساعة ، ولكنى رأيتها تقبل من باب الرصافة وسط تماثيل حسان يحففنها وهى تختال تحت قضيب بان .

— انه يقول شعرا .

— ابعدن يا أتتن ، ودعنه لى !

وانفرط عنه النسوة متضاحكات وقد رأين الأصمعى يأخذه

منهن ، ويسوقه أمامه وهو يهمس فى أذنيه بكلام لم يستطعن سماعه . وما مضى طويل وقت حتى كان الشاعر العاشق مفتوح الأذنين ، يقظا الى كل حرف يمس أوتاره مسا .

* * *

وكان موعد الدرس قد أزف ، والقوم أخذوا يتقاطرون الى داخله ، والأصمعى يضع كفه على ذراع أبى عبيدة ويناقشه فيما أخذ به علماء البصرة . وقرر أنه لو ظل علماء الكوفة ينحدرون الى بغداد ويحتضنهم السلطان فلن يكون هناك مكان لواحد من علماء البصرة .

هل المفضل الضبى أكثر علما من خلف الأحمر ؟

وهل الكسائى الكوفى الذى تعلم النحو على كبر بأفضل منه هو ؟

وأبو العتاهية مخنث الكوفة ، أين هو من الحسن بن هانى فتى البصرة وشاعرها ؟

لقد كان للبصرة مجدها . كان لها سلطانها ، ومن واجب علمائها وأدبائها أن يزحموا رجال الكوفة من أجل الحفاظ على هذا السلطان ، فان هم فعلوا ظفروا بالشهرة والغنم ، وان هم قعدوا باءوا بخسران مبين .

وهكذا كان يدور الحديث هادئا .. كأن شيئا لم يحدث بينهما ، واقترب أبو عبيدة من العمود الذى يتخذ مجلسه عنده واذا عيناه تقعان على بيت من الشعر مكتوب عليه فى نحو سبعة أذرع :

صلى الاله على لوط وشيعته   أبا عبيدة قل بالله آمينا

ودارت الأرض بسبخت ، وفأفأ وهمهم ، والتفت الى غريمه وصديقه متوسلا . ولكن هذا كان جامد الوجه حتى كأن شيئا لم يحدث ، فهمس له :

— يا أصمعى ./. استر علىّ ما رأيت وسامحنى قبل أن يقرأه الناس !

وتطلع الأصمعى الى البيت فى برود ثم قال :

— وماذا فيه يا معمر ؟

قال أبو عبيدة :

— فيه هلاكى يا رجل . هلا فعلت قبل أن يزدحم المسجد بطلابه .

وكان الخط على ارتفاع لا يمكن أن تصل اليه يد أحد ، فاقترح أبو عبيدة أن يحمله الأصمى ليصل اليه . ولكن الأصمعى رفض بعنف محتجا بضخامة جثته ، وهنا لم يجد أبو عبيدة مفرا من أن ينحنى ليصل صديقه الى كتفيه فيتمكن من محو هــذا الشعر الوقح ، واذا الأصمعى وهــو يعلوه يبطىء حتى يثقله فيصيح :

— ويحك ، قطعت ظهرى فهل أنهيت ؟

ولا يبادر الأصمعى بالاجابة ، حتى اذا ألح عليه بالسؤال ثانية قالّ :

— أجل يا أبا عبيدة ...

وتطلع الى الناس الذين أدهشهم منظرهما واستطرد :

— ولكن بقيت كلمة واحدة .

— وما هى ؟

— لوط !

— هى والله شر كلمات هذا البيت ، وما أظنك صنعت شيئا حتى الآن .

ويهبط الأصمعى الى الأرض أخيرا ، فيرفع أبو عبيدة وجهه ليرى عشرات العيون ترمقه ، وأكثر من فم يطلق ما شاء من ضحكات .

٢٣

كتاب من بغداد

الطريق الى المربد جميل . والمربد نفسه أصبح جميلا بما أقيم فيه من دور منسقة كثر فيها الشجر والنخيل ، وأصبحت البساتين التى كانت تقطع مسيل وديانه منتجعا لسكان البلد جميعا ، وفى واحد من هـذه البساتين — وكان لبنى حرام — جلسوا .. الأصمعى والنضر بن شميل وسيبويه وعلى بن نصر الجهضمى ومؤرج السدوسى ، وراحوا يخوضون فى أخبار أستاذهم الخليل بعد أن مضى عام على وفاته .

ثم أنشأوا يتذاكرون آمالهم وقد أخذت تأفل على غير ما كانوا يتوقعون ، وبعضهم يحمد صنيع من هاجر من علماء البصرة وشعرائها الى بغداد .. أو الى مدينة السلام ، فقد كان الأصمعى يكره الاسم الفارسى كراهيته لكل ما لا يحمل روح العـــرب وجلدهم ، ولما أفضى الحديث بهم الى الخليفة هارون الرشيد لم يتردد الأصمعى فى أن يقول :

— بل الخليفة يحيى بن خالد البرمكى سادن النوبهار الذى قال له أمير المؤمنين أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك .

قال سيبويه فى وجل وقد كان أصغر الأربعة سنا :

— ألا تركنا هذا الحديث فعدنا الى حديث النحويين ورواة الأخبار والشعراء ، أنا نفسى لم أر غاية النحويين الا كل شعر فيه اغراب وجعلت فى كتابى من ذلك مسائل أعلم ...

وتضاحك المجتمعون وقد تبينوا ما اعتراه من خوف لا يتفق ووفرة شبابه ، غير أن الأصمعى لم يدعه يسترسل وقال :

— دع هذا لمقامه يا أبا بشر .. فنحن ما جئنا لغير اللهو ، والا تفتحت لنا أبواب قد لا تفرغ من تغليقها الا فى غد ، وربما متنا قبل أن يأتى غد جعلت فداك !

وعادوا يضحكون ، ولكن النضر قال :

— ولكنى أرى ما يراه ابن قنبر فان هذه هى الوسيلة التى يمكن أن نصلح بها معاشنا .

قال الأصمعى :

— أما أمر المعاش فهيّن . وما عليك الا أن تصنع صنيع معمر بن المثنى فتحمل متاعك الى البرامكة لتجد فى عطائهم ما يغنيك طول العمر عن جلسة كهذه .

وهنا قال الجهضمى وهو يتطلع الى مؤرج السدوسى :

— وأنت ماذا ترى ؟

فوضع السدوسى يده فى كمه وأخرج تمرة راح يلوكها فى بطء قبل أن يقول :

— سألت لعمرك من لا يسمع شيئا ، فان استزدتنى قلت وأين نحن من ندامى الملوك وسمّارهم ؟

فصاح الأصمعى :

— طلب هذا يسير ما كان الملوك أخيارا ، ولكنك تعلم مما يأتينا من أنباء مَن: يحيى البرمكى ومن جعفر ابنه ، ثم من الفضل الذى يقال انه أخو الرشيد ، ومن موسى رابعهم وكلبهم .. وبعد ذلك ابراهيم الموصلى وابنه وابن جامع ومخارق وعلّويه وبرصوما وزلزل ، سوى الجوارى اللائى يزحمن مجالس العلماء والفقهاء ! أتدرون ماذا كانت النتيجة ؟ رفع الحجر عن العلويين وجعل الحجاز لهم سكنا ، ثم دخل بنو سهل القصر وهم مجوس هذه الأمة ، وشرع جعفر فى بناء دار يدفع فيها عشرين مليون درهم .. وانكبتاه!

أما مؤرج فلم يشأ أن يسمع الى هذا كله وقام يعدو موليا ، فلم يجد سيبويه الا أن يحذو حذوه فخطف نعليه ونهض مبتعدا وهو يردد :

— اللهم رحمتك !

وبقى النضر والجهضمى ، لا لأنهما يستروحان حديث السياسة وانما لأنهما يحبان حديث الأصمعى . بل لقد كانا يريان أن نزعته الأموية ربما مستهما هما بما لا يبغيان ، ولكن عذوبة صوته ورقته حين تصفو نفسه وطرافة النادرة التى شهر بها .. كل أولئك كان ينسيهما المهالك التى تحفّ به ، ويبدو أن الجهضمى كان يفكر فيما عساه يخفف من غلوائه فقال له :

— اسمع يا أبا سعيد . الحق أن يحيى البرمكى شخص كامل على رغم كل ما ترميه به من نقائص ! انه جدير وايم الله بهذه المكانة التى سما اليها ؛ فهو أمين سديد الرأى ، عالم أديب ،

يدير الدولة كلها فيحسن الادارة ، ولو كان وطد العزم على اهلاك الأمة لما وكل الشورى للفضل بن الربيع وهو هو من نعلم فى تعصبه للعرب وكراهيته للفرس والموالى كافة !

فضحك الأصمعى بمرارة ثم قال :

— البرمكى أمين .. هذا لعمر الله كل العجب ، فان يكن فهو أمين أمانة العبد الذى يتحين الفرص .

قال الجهضمى :

— بل صادق فى أمانته يا أبا سعيد .

وهنا تدخل النضر بعد فترة صمت طويلة وقال :

— ان بعض القوم لا يؤمن بالمولى الأمين ، ويتخذ مما يقدم عليه زط البصرة ونبطها مسوّغا لتأكيد هذا الايمان ، وفى رأيى أن الخيزران أم الرشيد وسيدة القصر وهى تتعامل مع آل برمك جميعا انما تصدر عن ثقة مطلقة بهم والا لكانت نهت ابنها عن أن يعهد ليحيى بكل شىء حتى ديوان الخاتم .

قال الأصمعى باصرار عجيب :

— هذا هراء .. لقد اطلعت اليوم فقط على أحد كتب الخراج انه باسم يحيى بن خالد ، ولم يصدر قط كتاب كهذا الا عن أمير المؤمنين .. انها بوادر كارثة يدفعنا اليها يحيى وأولاده الثلاثة ولا نملك الا أن نسأل الله اللطف بنا وبأولادنا .

فقال النضر وهو يتذاكر حديثا من أحاديث الرسول :

— لا طيرة وخيرها الفأل .

قال الأصمعى :

— ليست طيرة ولكنه الحرص والبصر بالموضع ، فانما تصير المغانم كافة الى تعمق الأمور وبنا الى هذه حاجة قوية . فنحن لم نوضع قط موضع غنى وخفض وانما موضع حذر وحرص .

فزفر الجهضمى بشىء من التأمل والتفكير ، ثم أمسك بعود جاف قضمه قبل أن يقول :

— كل شىء مثل هذا العود اليابس مهما نصطرع عليه ، فان أخذنا بما تراه أبا سعيد وجب أن نرحل الى بغداد .. مدينة السلام كما تحب أن تسميها ، فلعلنا نستطيع أن نفعل شيئا وهذا أول أسباب الحرص والبصر بالموضع .

وعند ذاك ظهر رجل من قرب وهو يحجل ، وفى يده كتاب ، ولم يلبث أن قال حين وقع بصره عليهم دون أن يقصدهم :

— يا ذو الجلال والاكرام هل لى بحمى بنو حرام .

فتضاحك الاثنان ثم انبرى الأصمعى يخاطبه :

— هكذا يا رجل .. ما اسمك ؟

أجاب :

— ليث بن سليمان الأسدى .

فانطلق الأصمعى يقول مرتجلا :

ينـــادى ربَّـــه باللحن ليث

لذاك اذن دعـــاؤه لا يجـــاب

وعاد يضحك ثانية ، بينما أخذ الرجل يتفرس فيه مشدوها مغيظا وهو يتململ فى قبائة وتتدلى خصلات من شعره الأســـود أسفل قلنسوته المستطيلة ، فلما هدأت الفورة صاح قائلا :

— ولكنى لم أدع ولم أسأل وانما أبحث عما يسمونه بالأصمعى ، وقد قيل لى أنه فى هذه الناحية .

وهب الأصمعى واقفا ، وتلقف الرجل بين ذراعيه وهو يقول :

— هلم يا رجل ماذا وراءك ؟

— أريد الأصمعى .

— هو بعينه أمامك .

— أنت ؟

— ومن سواى ؟

— اذن خذ .. هذا كتاب الفضل بن الربيع وهو يقرئك السلام من بغداد !

وسرعان ما دفع اليه بالكتاب ثم استدار على عقبيه ومضى مسرعا وهو يحجل فيثير منظره السخرية والضحك ، وبينما راح الجهضمى والنضر يتبعانه مبتسمين أخذ الأصمعى يطالع الكتاب ثم لم يلبث أن قال وهو يدفع به اليهما :

— دعوة عرجاء يحملها أعرج كفانا الله شر العرج !



الباب الثاني

في بغداد

١

الغريب

انتهت كل أسباب المقاومة فى نفس الأصمعى !

كان يرى المتربة وهو سيد نفسه خيرا من غنى يأتيه وهو ذليل ، الا أن هذه القاعدة لم تكن لتثبت الى الأبد ، فالسلطان يضيق عليه ويده ضاقت عن أن تكفى كل حاجاته ، ووجد من لم يبل بلاءه يحيا فى رغد دون أن يسلك مسالك الزلل . فكان معنى هذا أن التزمت لا يلزمه دائما قصدا سويا ، ومن ناحية أخرى أخذت رسائل الفضل بن الربيع — بعد أن ماتت الخيزران سند يحيى البرمكى عام ١٧٣ وتولى عنها أمر الخاتم — تأتيه تباعا من دار السلام . تدعوه ، وتزين له آفاقا أوسع يلقن فيها تعاليمه ، وترزقه الرضى عن نفسه والجاه والنشب ! فان أضفنا الى هذا أن الشعوبيين نقلوا ميدان المعركة الى بغداد فشاع ثَمّ فساد ، وانحطت قيم ، وانهارت تقاليد ، وهان العربى وغُلب.. قام حافز يحفزه الى الرحلة ، وتبينت الغاية التى ينبغى أن يحددها !

أجل ..

وكانت أعوام ثلاثة قد انقضت منذ ولى الرشيد الخلافة ،

وحملت السفينة الكهل الذى راح يفكر كيف له أن يخطب ود الملوك .

غادر البصرة وفيها بناته الثلاث متزوجات ، وأطلق العبد الذى قام على خدمته .. فقد كان من رأيه أن الاسلام يدعو الى العتق لا الى الاتجار بالرق ، ولم يدّع كرها لبلده كما فعل أبو عبيدة وابن الأعرابى وسلم الخاسر وأبان اللاحقى ، ثم لم يوطن عزمه على ألا يعود اليه قط .

غادرها وفى نفسه كمد شغله طول طريقه ، فلم يملأ عينيه بالرياض والديارات والمباقل والكروم ، ولم يستروح رقة الهواء وطيب العطور . لا ولم يسمع الى غناء الملاحين ، فما ختم مطافه الا على دموع الشجن ، فلقد أحس أنه مضيّع ، وخيل اليه أنه لم يقدّم شيئا كبيرا خلال السنوات الخمسين التى فرت فى صراع وتحصيل وعراك .

كان فاشلا .. تردده وهوجه كانا يدفعان به دائما الى الفشل ، ولم يكن قط أكثر شعورا بالفشل منه وهو يشاهد أسوار بغداد العريضة وقبابها الصفر . وعبر الباب الكبير فأفضى الى رحبة مرصوفة بالحجر كان يجب أن يقطعها ليصل الى الباب الثانى لدار السلام ، فلما مرّ منه واجهته العمائر والدور والمنائر والقصور .

كل شىء قد تغيّر ..

وما أبعد الفرق بين المدينة اليوم وبينها يوم سيق اليها مقيدا

من قبل ! أكان يظن أنه عائد اليها يدفعه أمل كهذا الأمل الذى يحدوه ؟

والناس يملأون الساحات والطرقات .. عشرات بل مئات ، وحمير تخب وبراذين تخطر ، والجمال مع ذلك تلوذ بالجدران ! هذه هى بقايا ما للعرب فى بغداد ، واختفى كل أثر لهم .. حتى العمائم الا قليلا ، وانتشرت القلانس على الرءوس ، ولبس المشايخ الطيالس السود ، وتقرطق الغلمان بقراطق الجوارى اللائى كن يرحن ويغدون فى دلال .

وهم يقولون بعد ذلك ان بغداد هى الحلقة التى تصل بينه وبين القدم .. كيف وأمير المؤمنين الشاب الذى يقال انه يصلى مائة ركعة فى اليوم يتسرى بعشرين من هؤلاء ويسمع الى ابراهيم الموصلى لأنه أول من وقع الايقاع بالقضيب ، والى علّويه الذى حرف القديم كله ولا يغنى الا النغم الفارسى يصاحبه برصوما الزامـــر ؟

ويقولون انه يقتفى آثار المنصور الا فى بذل المال .. مرحى مرحى ! وأين ما جاء هو من أجله ؟ ألهذا اللهو أم ليمدح فى شعر فصيح فيجزل له العطاء ؟

وحملته قدماه الى الكرخ .

انها أوسع محلات البلد .. منظمة ، وتتفرع شوارع ، وفى كل شارع تجارة معينة ، وتمتد الشوارع حتى تخرج من الســور فتكون محلة عظيمة يضيع فيها أىّ شىء كما هو ضائع .

وزار الرصافة فى الجانب الشرقى ، فلاحظ كثرة العسكر ،

خراسانيين وأساورة وفيهم بعض العرب . وشاهد الجامع وصلّى فيه ، وتفرج على دار الوزارة البرمكية شمالى الرصافة حيث الشماسية .. المحلة الرسمية ومنها تصدر الكتب والأحكام .

وهكذا أصبح الجانب الغربى لنهر دجلة قطعة حياة نابضة ، وفى الوسط على ما قدر وروى الرواة المسجد الجامع .. كمسجد البصرة ، تحيط به دواوين الدولة وعشرات بل مئات من القصور ، وكلها فى مأمن من غدر بلاد فارس وخراسان مع أن كل شبر منها لا يخلو من فارسى أو خراسانى .

هذا هو العجب !

ودار الفضل بن الربيع . أفينزل فيها أم يقصد دار الأمير سعيد الباهلى أم يرتاد خانا أم ينفق ليله هذا فى المسجد كأنه واحد من مسجديى البصرة ؟ أيقيض الله واحدا من معارفه حتى وان يكن أبا عبيدة نفسه . ولكن محال ، فالناس ها هنا لا يعرفون أحدا ، والغريب غريب حتى يعرف مستور البلد .

٢

الفضل بن الربيع

يمتد الطريق على نهر طابق فى اتساع مريح ، وعلى جانبيه الأشجار تحجب دورا تزهى مبتسمة ، وطرق هو واحدا من هذه الدور بعد أن دلف من السور متئدا مترددا ، فلقيه عبد" أسلمه الى عبد آخر عدل به الى ردهة هفافة مفروشة الصحن مُلَبَّسة الحيطان بالوشى المنمنم ..

وأخذ بالأبهة البادية وسأل نفسه « اذا كانت هــذه حال ابن الربيع فما يكون أمر الخليفة أو أمر وزيره يحيى » ولم يكن الا قليل حتى طالعه الفضل مهللا وهو يقول فى مزح يشبه الجد :

— قد كلمت فيك شاعرا من باهلة ليهجوك ما دمت لا تريد أن تجعلنا تتزود منك .

فقال وقد داخله شىء من القلق :

— أما أن أهجى عندك فحاشا ، ولكن من الشاعر ؟

أجاب الفضل بن الربيع :

— أخاف ألا تنشط له ، على أنه من خلعاء بغداد ، وخاض فيك مع أبى العتاهية شيئا .. والله انهما ليقدرانك !

قال الأصمعى :

— كأنه الحسين بن الضحاك .

فضحك الفضل ثم قال :

— والله انه هو .. يا غلام !

وكان قد صفق فدخل الغلام .. مولى أسود عليه ثياب موشية مرتفعة ، وعمامة صفراء فقال له :

— ادْعُ بالمائدة .

فمُدّ سماط وضع عليه خبز سميذ وبقل وجدى مشوى ، ثم لم يزل الخدم يضعون ويرفعون والأصمعى دهِش يقول فى قراراته :

— يا سبحان الله ما تصنع الحداثة بأهلها !

وبادره الفضل يقول :

— هذه أكلة عربية ، نعقبها بأكلنا ها هنا . هات السمك المشوى يا غلام .

ولكن الأصمعى لم يكن قد تأهب لهذا فصاح :

— هلا أعفيتنى فلا أصيب الا الحلواء !

وانطلق الفضل بن الربيع يضحك ، ثم دعا بطبق فيه بزماورد[1] ورطل نبيذ فوثب الأصمعى صائحا :

— معاذ الله ! ألى أنا هذا الشراب ؟

وانفجر الفضل يضحك ثانية :

— طلبت والله ثالثا يؤنسنا فلم أر أحق بذلك من هذا الرطل، فبحياتى بادرْ فأصِبْ منه قليلا .

(١) نوع من الحلوى يشبه ما يسمى فى مصر « لقمة القاضى » .

قال :

— محال يا سيدى قد والله أفعل أىّ شىء الا هذا ، فاجلس أنت وخذ شرابك وأما أنا فسأنصرف .

قال الفضل وهو لا يزال يضحك :

— الى أين ؟

أجاب :

— الى حيث لا يطالعنى شىء من هذا . سأقصد الأمير سعيد ابن سلم الباهلى قال الفضل :

— لن تنزل الا عندى حتى أهيىء لك بيتك الخاص . اطمئن يا أبا سعيد ، فما فى الرطل ما يسكر وانه لم يختمر ، ومع ذلك فهاتوا له الفواكه .

وجىء بتفاح وريحان وألوان أخرى راح الأصمعى يصيب منها وقد راح يرقب الخدم يحملون بقايا المائدة حملا ، ثم كان أن دخل شاب عليه طيلسان أبيض وسراويل وشى مسدول ، وفى يده عود مزخرف . فقبل يد الفضل واتخذ جلسته على مبعدة وهو يمـد أصابعه يلمس بها الأوتار ، ولم تكد الأنغام تنساب حتى دخلت جارية فيها ملاحة لباب يوم كانت شابة غضة مثلها ، وقد انفلتت خصلات من شعرها الحريرى على كتفيها ، رآه خلل الشال الذى كان ينسدل على قدّها فى دلال ، وانتفض لها قلبه ولكنه أحجم . فقد مضى العهد الذى يخفق فيه القلب ، وسمع بين الغناء ودقات قلبه صوت الفضل يأتيه من بعيد :

— ألا قلت شيئا يا أبا سعيد ؟

قال الأصمعى وقد داخله النشاط وهزته الأريحية :

ـــ والله انها لمعان تدور فى نفسى ولن أطلقها الا هكذا . اسمع يا سيدى :

يا رب خــود من بنات الأحــرار
من آل كسرى فى ذرى الزندالوار
يستنّ فى مفــرقها مسك الفــار
كأنهــا من جســد فى الأعطــار

وسأتمها طويلة حتى أكون عندك شاعرا ، فما أسهل ذلك عندى ، ولكن ما لهذا أتيت .

وأشار الفضل الى خدمه فانصرفوا ، وأغلق عليهما الباب ، واستدناه كأنما يوشك أن يفضى له بسر خطير وقال :

ـــ أرأيت ما رأيت يا أبا سعيد ؟

أجاب :

ـــ فيه ما فيه يا سيدى ، وانما الأمر بعد ذلك ...

فقاطعه قائلا :

ـــ لا شىء والله ، ولكن فكرت أن يحيى يقعد هذا المقعد ويقعد معه ظرفاء بغداد وعلماؤها فتجتمع القلوب على بنى برمك وتسلب حق أمير المؤمنين .

ولم يفهم الأصمعى شيئا فمضى الفضل يقول :

ـــ سترى عندى نفرا من ظرفاء بغداد ، ستراهم يقصفون ، وستقابل نفرا آخرين من الشعراء ، وستجمع لى علماء البصرة بعد اذ استأثر يحيى وأولاده بعلماء الكوفة . أتدرى ما كان ؟

هز الأصمعى رأسه فقال الفضل :

— على بن حمزة الكسائى يقوم على تأديب محمد بن أمير المؤمنين وقد أدب أمير المؤمنين نفسه ، واليزيدى يؤدب أخاه عبد الله ، ومحمد بن الحسن الشيبانى القاضى صاحب أبى حنيفة يتصل بالبرامكة ، وسهل بن هارون أديب بغداد الكبير يلوذ بجعفر البرمكى ، وسلم الخاسر يقصد الفضل أخاه الكبير . كل رجال الفكر والأدب ، كلهم يجتمعون مع خصومنا يا أبا سعيد ، والله لن تقوم لنا قائمة حتى يكون عندنا مثل ما عندهم ، وها نحن أولاء نريدك ونريد يونس بن حبيب و ...

وقاطعه برفق قائلا وهو كالشارد :

— لم تحدثنى عن أبى عبيدة ولا عن ابن الأعرابى

قال الفضل :

— اسحاق بن ابراهيم الموصلى يسعى من أجلهما عند أمير المؤمنين ، وذكرتك أنا عنده .

فصاح الأصمعى :

— يا سيدى الله الله .. فما أرجو أن أكلفك شططا ، فان أمير المؤمنين لو شاء لطلبنى !

قال الفضل :

— يا أبا سعيد ، للملوك سجيات أخطرها جهلهم بمن يجب أن يستعان به ، فان لم يجهلوا ألهتهم الحاجة العارضة ، وعندى أن التعرض لهم بالذكر غنم وغناء ، ولهذا فلتكن قريبا حتى أدخلك عليه ، ومن غد ان شاء الله أعقد بينك وبين حجاب القصر مودة اذ

ما أكثر ما يطلبون من لف" لفك فى ساعات الليل أو أطراف النهار .

وتفكر الأصمعى قليلا ثم تهانف قائلا :

— ان نفسى تحدثنى بأشياء كثيرة هنا ، غير أنى لن أحجم عن شىء قط .

ونهض يشد من جسمه فبدا متدفق النشاط ، ولم يكن فيه شىء يدل على أنه فى الخمسين .. حتى شعر رأسه احتفظ بسواده ، ولكن الفضل تعرض لهندامه قائلا :

— كل شىء فيك حسن .

— حتى وجهى ؟

— حتى وجهك .. الا ثيابك يا أبا سعيد ، غير أنى سأهديك من عندى شيئا ، فالقصر غير ما اعتدت أن تنتاب ، وحسبك أن ترى خادما واحدا فيه لتلقى بكل ما ترتديه ! وأما جعفر البرمكى فغاية فى الأناقة ، والى جانبه الفضل أخوه لا يضع الا أفخم الأكسية ويخلع أغلى البرود ويهدى أثمن الطيالس ، ولو علم أبوهما يحيى بأن مناسج الحرير بالشام ستخرج مثل ما يهديه لمنع ورود كل ثوب منها .

فقعد الأصمعى وهو يقول :

— ان هذا الرجل عجيب حقا .

قال الفضل :

— بل داهية ، يعطينى الحجابة لأنه يعرف أن أمير المؤمنين يريدها لى ولكنه يكل أمر الوزارة للفضل ، ويتودد الى سيدة القصر زبيدة أم جعفر وهو يدرك تماما أنها تكرهه ولكنه يعلم أن

الرشيد يعلق بها ، ويريد أن يقدم للخليفة أبا عبيدة فيخشى سلاطة لسانه وشعوبيته فيؤخره الى أن تأتى ويطلب منى أن أستدعيك لأقدمكما معا للرشيد .

واشرأب الأصمعى بعنقه وهتف :

— واذن فالأمــر مبيّت بينكما .. ويلاه مما يجرى وأنا لا أدرى !

قال الفضل :

— ولكنى لن أفعل .. سأمنع دخوله القصر ما ظللت أعيش ، وأما أنت فاستعد لأقدمك للبرامكة فأنت مدعو مع أبى عبيدة على مائدتهم !

٣

الفـــرج

وتعرف الى حراس القصر وصار لهم مؤنسا .. فقد قدمه اليهم ابن الربيع ، ووكل به اسماعيل بن صبيح كاتب الفضل البرمكى وعين الفضل بن الربيع عليه ، وبلغ بما استعمل به مودتهم مكانا بينهم ؛ فكان يرتادهم فينفق عندهم الساعات مؤملا . يطلع عليه الجوارى الناهدات فيعجب ، ويناغى ، وينشد الأشعار مما يحفظ وما لا ينسى ، ثم يستغفر الله !

وهناك رأى أبا عبيدة وقد احتفت به جارية من هاتيك تضع قباء وشى ، وعلى رأسها قلنسوة رقيقة ، ويحيط خصرها زنار أخضر ، وفى رجليها نعل مدبجة الدروز وتمسك بيدها عود خيزران .

— ما هذه أبا عبيدة ؟

— جارية الفضل تستدعينى له .

— سهّل الله لك بها المتعذر من اللقاء .

— ولماذا بها يا أبا سعيد ؟

— هل أنت أعمى ؟ والله ما هى الا طالع سعد يكون على الدرك معينا .

وعلى هذا جرت الأحوال أياما لا يرى جديدا ، الا يوم حضر مأدبة الفضل بن يحيى البرمكى فى قصره الفخم . ولقد احتفى به الرجل وحيّاه أخواه جعفر وموسى ، وطيبا خاطره ، غير أنه لحظ مدى ما يولى به أبو عبيدة من ترحيبهم .

وأدرك أن الأسرة حذقت الأخذ والعطاء ، والملاينة والمهادنة ، وأجادت أساليب الاستهواء . وكانت المائدة فاخرة حقا ، جيء فيها بأطعمة لم يسمع بها ، ثم اذا بين يديه سمك كنعد وكامخ ، فالتفت الى معمر وقال كالهامس :

— كل من هذا يا أبا عبيدة .

وزحزح طبق الكامخ تجاهه فانتفض ، ولم يملك الا أن يصيح بصوت لفت اليه نظر الفضل وأضحكه قبل أن يخرج .

— والله العظيم ما فررت من البصرة الا من الكامخ والكنعد!

* * *

وخرج هو أيضا وقد أوجس خيفة ، واتجه من فوره الى قصر الخلد يطرق أصحابه الحراس وقد طاولته الغايات بما كان يصير به الى ملالة ، وأنشأ يقول :

وأى فتى أعير ثباتَ قلب	وساع ما تضيق به المعانى
تجاذبه المواهبُ عن اباء	ألا بل لا تواتيه الأمانى
فرب معرَّس للناس أجلى	عن الدَّرك الحميد لدى الرهان
وأىٌّ فتى أناف على سُمُوٍّ	من الهمات ملتهب الجَنان
بغير توسُّع فى الصدر ماض	على العزمات كالعضب اليمانى

ولم يبعد أن خرج خادم وقد تقدم الليل وتربع الأرق بين عينى الرشيد ، وصاح الخادم :

— هل بالحضرة أحد يحسن الشعر .

فوثب الأصمعى واقفا وهو يصيح :

— الله أكبر . رب قيد مضيق قد فكّه التيسير للانعام ، أنا صاحبك ان كان صاحبك من طلب فأدمن أو حفظ فأتقن .

فتقدم الخادم يأخذ بيده وهو يقول :

— ادخل . ان يختم الله لك بالاحسان لديه والتصويب ، فلعلها تكون ليلة تعوّض صاحبها الغنى .

قال :

— بشرك الله بالخير !

ودخل كالمبهور فواجه الرشيد فى البهو جالسا كأنما ركب البدر فوق أزراره جمالا والفضل بن يحيى الى جانبه ، والشمع يحدق به على قضب المنابر ، والخدم فوق فرشه وقوف .

وقف به الخادم حيث يسمع تسليمه ثم قال :

— سلم على أمير المؤمنين .

فسلم بصوت عذب فرد ، ثم استطرد قائلا دون أن يتطلع نحوه:

— ينحى قليلا ليسكن روعه ان وجد للروعة حسا .

فقعد فى مكانه حتى سكن جأشه ، ثم تجرأ وقال :

— يا أمير المؤمنين ، اضاءة كرمك وبهاء مجدك مجيران لمن نظر اليك من اعتراض أذية له ، أيسألنى أمير المؤمنين فأجيب أم أبتدىء فأصيب ، بيمن أمير المؤمنين وفضله .

وتقدم فلمح الفضل يتبسم له ، ثم قال فى صوت عميق :

— ما أحسن ما استدعى الاختبار واستهل به المفاتحة ، وأجدر به أن يكون محسنا . والله يا أمير المؤمنين لقد تقدم مبرزا محسنا فى استشهاده على براءته من الحيرة ، وأرجو أن يكون ممتعا .

فاضطجع الرشيد وقال فى هدوء :

— أرجو .. اذن !

فدنا نحوه ورآه يتفرس فيه ، وكانت عيناه عميقتين نفاذتين ، ثم قال :

— شاعر أم راوية ؟

أجـاب :

— راوية يا أمير المؤمنين .

فتساءل الرشيد قائلا :

— لمن ؟

فأجاب الأصمعى :

— لذى جِد وهزل بعد أن يكون محسنا !

قال :

— والله ما رأيت أوعى لعلم ولا أخبر بمحاسن بيان فنقتـه الأذهان منك ، ولئن صرتُ حامدا أثرك لتعرفن الفضل متوجها اليك سريعا .

قال الأصمعى :

— أنا على الميدان يا أمير المؤمنين ، فيطلق أمير المؤمنين من عقالى مجيبا فيما أحبه .

قال الرشيد :

— قد أنصف القارة من راماها . ولكن ما معنى المثل فى هذه الكلمة بديا ؟

فأجاب الأصمعى :

— ذكرت العربُ يا أمير المؤمنين أن التتابعة كانت لهم رماة لا تقع سهامهم فى غير الحدق ، وكانت تكون فى الموكب الذى يكون فيه الملك على الجياد البلق بأيديهم الأسورة وفى أعناقهم الأطواق ، تسميهم العرب القارة .. فخرج من موكب الصغد فارس معلم بعذبات سود فى قلنسوته قد وضع نشابته فى الوتر ثم صاح « أين رماة الحرب » قالوا « قد أنصف القارة من راماها » والملك أبو حسان اذ ذاك المضاف اليه .

وسكت الأصمعى ليتعرف أثر حكايته ، فقال الرشيد :

— أحسنت . أرويت للعجاج ورؤبة شيئا ؟

أجاب :

— هما يا أمير المؤمنين يتناشدان لك بالقوافى وان غابا عنك بالأشخاص !

فمد يده تحت فراشه وأخرجها برقعة راح ينظر فيها ، ثم قال :

— أسمعنى « أرقنى طارق هم طرقا » لرؤبة .

فتنفس الأصمعى الصعداء ومضى فيها مضى الجواد فى سنن ميدانه ، تهدر بها أشداقه حتى اذا صار الى امتداح بنى أمية تذكر موقفه وثنى عنان لسانه الى امتداحه المنصور فى قوله « قلت لزير

لم تصله مريمه »[1] ولم يخف ذلك على الرشيد فقال :

— أعن حيرة أم عن عمد ؟

أجاب :

— بل عن عمد تركت كذبه الى صدقه فيما وصف به المنصور من مجده وهنا تدخل الفضل قائلا :

— أحسنت بارك الله فيك . مثلك يؤمل لهذا الموقف !

قال الرشيد :

— ارجع الى أول هذا الشعر .

فأخذ من أوله حتى صار الى صفة الجمل فأطال ، فقال الفضل:

— مالك تضيق علينا كل ما اتسع لنا من مساعدة السهر فى ليلتنا هذه بذكر جمل أجرب ؟ صر الى امتداح المنصور حتى تأتى على آخره .

وأحس الأصمعى ببغض عارم يجتاحه وتمنى لو قال شيئا يؤلم به هذا الوزير الأعجمى ، ولكن الرشيد أعفاه حين قال له :

— اسكت .. هى التى أخرجتك من دارك وأزعجتك من قرارك وسلبتك تاج ملكك ثم ماتت ، فعملت جلودها سياطا يضرب بها قومك ضرب العبيد !

ثم قهقه ومضى قائلا فى سخرية :

— لا تدع نفسك يا فضل والتعرض لما تكره .

فلم يجد الفضل الا أن يقول مستخزيا :

— لقد عوقبت على غير ذنب والحمد لله .

(١) زير : زير نساء وحريمه : علم لامرأة .

فقال الرشيد :

— أخطأت فى كلامك هـذا أيضا يرحمـك الله فلو قلت « واستغفر الله » قلت صوابا وانما يحمد الله على النعم .

ثم صرف وجهه الى الأصمعى الذى أحس سعادة غامرة وقال :

— ما أحسن ما أديت فى قدر ما سئلت .. أسمعنى كلمة عدى ابن الرقاع فى الوليد بن يزيد بن عبد الملك « عرف الديار توهما فاعتادها » .

فقال الفضل :

— يا أمير المؤمنين ، ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه لاستماع الكذب ؟ لم لا تأمره أن يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفى آبائك.

قال فى ضيق :

— ويحك ! انه أدب ما يخطب أبكاره بالنسب وقلما يعتاض عن مثله ، ولأن أسمع الشعر ممن يخبره وشغلته العناية به عمره أحب الىّ من أن تشافهنى به الرسوم ، وللممتدح بهـذا الشعر حركات ترد عليك فلا تصدر من غير انتفاع بها ، ولا أكون أول مستن طريقة ذكر لم تؤدها الرواية .

قال الفضل والأصمعى يرقب ويسمع هذا الجدل المثير :

— قد والله يا أمير المؤمنين شاركتك فى الشوق وأعنتك على التوق .. يا أصمعى احد بنا ليلتك منشدا ، هذا سيدى أمير المؤمنين قد أصغى اليك مستمعا فمر ويحك فى عنان الانشاد ، فهى ليـلة دهرك لن تنصرف الا غانما .

وشعر الأصمعى بالفرح ، وتذكر أبا عبيدة وقد خلفه على المائدة

يحدّث شقيقي الفضل ويسمر معهما ، واستمع الى الرشيد يقول:
— أما اذا قطعت عليّ ثانية فأحلف لتشركني في الجزاء ، فما كان لي في هذا شيء لم تقاسمنيه !

قال الفضل :

— قد والله يا أمير المؤمنين وطنت نفسي على ذلك متقدما فلا تجعلنه وعيدا .

قال الرشيد :

— ولا أجعله وعيدا .

فقال الأصمعي متماكرا :

— الآن ألبس رداء التيه على العرب كلها . اني أرى الخليفة والوزير وهما يتناظران في المواهب لي .

وانطلق ينشد مستعرضا صورة أبي محرز وصورة أبي عمرو ابن العلاء ، وصورا أخرى لشعراء ولرواة شعر حتى اذا بلغ الى قوله :

تزجي أغن كأن ابرة رَوْقه
قلم أصاب من الدواة مدادَها

استوى الرشيد جالسا وقال :

— أتحفظ في هذا شيئا ؟

فأجاب مبتسما :

— نعم يا أمير المؤمنين قال الفرزدق لما قال عدي « تزجي أغن كأن ابرة روقه » قلت لجرير « أي شيء تراه يناسب هذا تشبيها » فقال جرير « قلم أصاب من الدواة مدادها » فما رجع

الجواب حتى قال عدى « قلم أصاب من الدواة مدادها » فقلت لجرير « ويحك لكأن سمعك مخبوء فى فؤاده » فقال جرير « اسكت ، شغلنى سبك عن جيد الكلام » .

فقال الرشيد :

— مرَّ فى انشادك .

فمضى الأصمعى وقد أحس أنه ملك الزمام حتى بلغ الى قوله:

ولقد أراد الله اذ ولاكها من أمة اصلاحها ورشادها

فقال الفضل :

— كذب وما بزّ .

قال الرشيد :

— ماذا صنع اذ سمع هذا البيت ؟

فأجاب الأصمعى :

— ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه قال لا حول ولا قوة الا بالله !

قال الرشيد :

— مرّ فى انشادك .

فمضى حتى بلغ الى قوله :

تأتيه أسلاب الأعزة عنوة عصبا وتجمع للحروب عتادها

فقال الرشيد :

— لقد وصفه بحزم وعزم لا يعرض بينهما وكلّ ولا استذلال .. فماذا صنع ؟

أجاب الأصمعى :

— يا أمير المؤمنين ذكرت الرواة أنه قال «ما شاء الله» .

قال الرشيد :

— أحسبك وهمت .

فقال الأصمعى متوجسا :

— يا أمير المؤمنين أنت أولى بالهداية فليردنى أمير المؤمنين الى الصواب .

قال :

— انما هذا عند قوله :

ولقــد أراد الله اذ ولاكها   من أمة اصلاحها ورشادها

ثم استطرد قائلا :

— والله ما قلت هذا عن سمع ولكننى أعلم أن الرجل لم يكن يخطىء فى مثل هذا .

قال الأصمعى :

— وهو والله الصواب .

فقال الرشيد :

— مر فى انشادك .

فمضى حتى بلغ الى قول الشاعر :

وعلمت حتى لا أسائل واحدا   عن حرف واحدة لكى أزدادها

فقال الرشيد :

— وكان من خبرهم ماذا ؟

فقال الأصمعى :

— ذكرت الرواة أن جريرا لما أنشد عدي هذا البيت قال

« بلى والله وعشر مئين » فقال عدى « وقر" فى سمعك أثقل من الرصاص » هذا والله يا أمير المؤمنين المديح المنتقى فقال الرشيد :

— والله انه لنقى الكلام فى مدحه وتشبيبه .

فتدخل الفضل قائلا :

— يا أمير المؤمنين لا يحسن عدى" أن يقول :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأعظم النـاس أحلاما اذا قدروا

فقال الرشيد :

— بلى .. قد أحسن اذ يقول فى الوليد :

للحمد فيه مذاهب" ما تنتهى ومكارم يعـلون كل مكارم

ثم التفت الى الأصمعى وقال :

— ما حفظت له فى هذا الشعر شيئا حين قال :

أطفأت نيران الحروب وأوقدت نار قدحت براحتيـك زنادها

فقال :

— ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه حك يمينا بشمال مقتدحا بذلك ثم قال « الحمد لله على هبة الانعام » .

وهز الرشيد رأسه ثم قال :

— أرويت لذى الرمة شيئا ؟

فأجاب الأصمعى قائلا :

— الأكثر يا أمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— والله انى لا أسألك سؤال امتحان وما كان هذا عليك ،

ولكننى أجعله سببا للمذاكرة ، فان وقع عن عرفانك شيء فلا ضيق عليك بذلك عندى ، فماذا أراد بقوله :

مُمِرٍّ أمرَّت متْنَه أسدية   يمانية حلاَّلة بالمصانع

فقال الأصمعى :

— وصف يا أمير المؤمنين حمارا وحشيا أسمنه بقل روضة تشابكت فروعه ثم تواشجت عروقه من قطر سحابة كانت فى نوء الأسد ثم فى الذراع منه .

فقال الرشيد :

— أصبت ، أفترى القوم علموا هذا من النجوم بنظرهم ، اذ هو شيء قلما يستخرج بغير السبب الذى رويت لهم أصوله أو أدتهم اليه الأوهام والظنون ؟ فالله أعلم بذلك .

قال الأصمعى :

— يا أمير المؤمنين ، هذا كثير فى كلامهم ولا أحسبه الا عن أثر ألقى اليهم .

قال الرشيد :

— قلما أجد الأشياء لا تثيرها الا الفكر فى القلوب ، فان ذهبت الى أنه هبة الله ذكرهم بها ذهبت الى ما أدتهم اليه الأوهام.. ومع ذلك أرويت للشماخ شيئا ؟

فأجاب الأصمعى وهو يستعد لامتحان جديد :

— نعم يا أمير المؤمنين .

قال :

— يعجبنى منه قوله :

إذا رُدّ من ثَـنْى الزِّمام ثَنَتْ له   جِرانا كخوط الخيزران المموج

فقال الأصمعى مؤمنا :

— يا أمير المؤمنين هى عروس كلامه .

قال الرشيد :

— فأيها الحسن الآن من كلامه ؟

أجاب :

— الرائية .

وأنشده أبياتا منها ، فقال :

— أمسك ، أستغفر الله ثلاثا .. أرح قليلا واجلس ، فقد امتعت منشدا ووجدناك محسنا فى أدبك ، معبرا عن سرائر حفظك .

ثم التفت الى الفضل قائلا :

— لكلام هؤلاء ومن تقدم من الشعراء ديباج الكلام الخسروانى يزيد على القدم جدة وحسنا ، فاذا جاءك الكلام المزين بالبديع جاءك الحرير الصينى المذهب ، يبقى على المحادثة فى أفواه الرواة . فاذا كان له رونق صواب ، وعته الأسماع ولذ فى القلوب ولكن فى الأقل منه . يعجبنى مثل قول مسلم فى أبيك وأخيك الذى افتتحه بمخاطبة حليلته مفتخرا عليها بطول السرى فى اكتساب المغانم حيث قال :

أجدك هل تدرين أن رب ليلة   كأن دجاها من قرونك ينشر
صبرت لها حتى تجلت بغـرة   كغرة يحيى حين يذكر جعفر

أفرأيت .. ما ألطف ما جعلها معدنا لكمال الصفات ومحاسنها !

يا أصمعى اننى أجد ملالة ولعل أبا العباس يكون الآنَ أنشط لذلك ، وهو لنا ضيف فى ليلتنا هذه فأقم معه مسامرا له .

ونهض فتبادر الخدم فأمسكوا بيده حتى نزل عن فرشه ، ثم قدمت النعل فلما وضع قدمه فيها جعل الخادم يسوى عقب النعل فى رجله فقال له :

— أرفق ويحك .. حسبك قد عقرتنى !

فقال الفضل :

لله در العجم ما أحكم صنعتهم ! لو كانت سندية ما احتجت الى هذه الكلفة .

قال الرشيد محتدا احتدادا أعجب له الأصمعى وحمده :

— هذه نعلى ونعل آبائى رحمة الله عليهم ، وتلك نعلك ونعل آبائك .. لا تزال تعارضنى فى الشيء ولا أدعك بغير جـواب يمضك .. يا غلام على بصالح الخادم فقد أمرته بتعجيل ثلاثين ألف درهم للأصمعى فى ليلته هذه !

قال الفضل للأصمعى وهو يتبع الرشيد بعينيه حتى اختفى :

— لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ولا يأمر فيه أحد غـيره لدعوت لك بمثل ما أمر به أمير المؤمنين ، وانى أدفع لك مثلها الا ألف درهم وتصبح من غد فتلقى الخازن ان شاء الله .

٤

القافلة تسير

كان الغد المامة بآفاق المجد قبل أن يقتحمها ويأخذ منها قسطه المقدر ، ويستذل فيها الزمان ! وعجب للظروف التى هيأت له كل أسباب الفرج فجأة ، فلما جلس الى مائدة الفضل بن الربيع فى بستان قصره والى جانبه نخب من رجالات العصر — فيهم أبو عبيدة وأبو بكر النحوى والجهضمى وسلم الخاسر الشاعر الغنى تلميذ بشار — كان كمن كلل بالغار ؛ فهو موضع كل عين وقصد كل متحدث . ثم وصل رسول من قبل الحسن بن سهل يدعوه هو والحاضرين دعوة ضيافة ، بعد أن يأذن الفضل بن الربيع .

وقد استقبلت الدعوة والضيف فى حديث عن عالمى البصرة ، وانهم ليجهلون أو يعلمون ما يثور فى نفسيهما من أحاسيس . فاستمهلوا الرسول الى غد ، ومضوا فى التعداد والحصر ، فاذا الى جانب كل رسالة رسالة ، ومع الكتاب عند الرجل صنوه عند الآخر ، فكأنهما فرسا رهان .

يقدم أبو عبيدة كتاب الخيل وكتاب الابل وكتاب فعل وأفعل وكتاب المصادر وكتاب الأضداد ، فيقدم الأصمعى كتاب الخيل

وكتاب الشاة وكتاب فعل وأفعل ، ويزيد فيقدم كتاب الهمزة وكتاب المقصور والممدود وكتاب الصفات ثم كتاب اللغات .

ويذكر أبو عبيدة أن له كتاب الشعر والشعراء وجمع شعر امرىء القيس ، فيعلن الأصمعى أن عنده كتابا فى معانى الشعر وكتابا فى الأراجيز فضلا عن أنه جمع أيضا شعر امرىء القيس .

ويقول أبو عبيدة انه وضع مؤلفات فى اعراب القرآن ومعانى القرآن وغريب الحديث ، فيسلم الأصمعى بأنه لا ينحو نحو زميله فيما يتصل بكتاب الله ولكنه ألف كتابا فى غريب الحديث ، والأمر على أية حال لا يعده فضلا لأنه لا يزال على الدرب ولم يسلم الراية بعد ، وفى الطريق كتب عن الأمثال وهذيل وعنترة . بل انه بالنسبة لعنترة بالذات يضع فيه سجلا كبيرا لم يفرغ الا من جزئه الأول مع أنه مشتغول به منذ سنوات طوال ، وليس فى هذا الاعتراف قصور منه ولكنه اقرار بفداحة المسئولية .

ثم سكت الرجلان ، وسكت الضيف ، يرسمون أمامهم المرحلة الشاقة التى قطعاها قبل أن يقعدا قعدتهم هذه متوجين بالاكبار . ولكن الهوى لا يفتأ يسأل أيهما السابق ، أهذا العربى الفصيح الجرىء الذى يأسر ويطرب ويحكى فيأخذ بمجامع القلوب أم المولى المثقف الذى ان تمكن خاض فى أخبار الأولين والآخرين ؟

لم يكن ثمة سبيل الى هـذا ، غير أن الفضـل يلتفت الى الأصمعى فجأة ويسأل :

— تقول ان لك كتابا فى الخيل يا أبا سعيد ؟

— هو ذاك .

— كم هو ؟

— مجلدة واحدة .

وهمهم الحاضرون ، وأرتج على الفضل . فقد كان يظن أنه آخذ بشيء كبير يروع به هذا الذى يعتد به الموالى ويكسر به نفوسهم ، ثم تبين أنه ان لم يسأله السؤال نفسه أظهر تحيزه للعربى فلم يجد بدا من أن يتوجه اليه سائلا ليجيب فى تيه كبير :

— خمسون مجلدة !

ويرتفع الصياح ، ويبدو كأن الأصمعى غلب على أمره . ولكن الفضل بن الربيع يسرع فيشير الى فرس كان يتسكع بين أشجار البستان قريبا منهم ويقول لأبى عبيدة :

— قم الى هذا الفرس وأمسك منه عضوا عضوا وسمّه .

فتراجع أبو عبيدة قائلا :

— لست بيطارا ، وانما هذا شيء أخذته عن العرب !

وأسرع الفضل يلتفت نحو الأصمعى ، وهو يعلم أنه يقدر على ما عجز عنه أبو عبيدة ، ويقول له :

— قم يا أصمعى وافعل أنت ذلك .

فقام خفيفا كعادته وأكب على الفرس يأخذ بأذنيه ويمسك بناصيته ،ثم شرع يذكر اسم كل عضو مستشهدا على ما يقول بشعر يحفظه حتى بلغ حافر الفرس والمجتمعون فى ذهول ، حتى اذا انتهى صاح الفضل :

— خذ الفرس فهو لك !

وانفض المجلس ، فخرج الأصمعى يمتطى صهوة الفرس ،

وأبو عبيدة راجل يتميز غيظا ويستشعر الهوان . غير أن هــذا الاحساس تضاعف حين التقيا فى اليوم التالى عند الحسن بن سهل، وكان قد سبقهم اليه بعض ضيف أمس . ولما لم يكن الحسن قد فرغ من عمله المقرر فقد انصرف عنهم بعض الوقت ينظر فى رقاع الناس ويوقع عليها ثم يدفعها الى الخازن ، حتى قضى فى خمسين رقعة وعاد الى ضيوفه يقول :

— قد فعلنا خيرا ونظرنا فى بعض ما نرجو نفعه من أمور الناس والرعية ، فلنأخذ الآن فيما نحتاج اليه .

ثم راحوا يفيضون فى ذكر الحفاظ فعرضوا للزهرى وقتادة وغيرهما ممن يشهد لهم بدقة الرواية وسعة الدراية ، وهنا قال أبو عبيدة فى خبث :

— ما الغرض أيها الأمير فى ذكر من مضى وبالحضرة ها هنا من يقول انه ما قرأ كتابا قط فاحتاج الى أن يعود فيه ولا دخل قلبه شىء وخرج عنه !

وأسرع الأصمعى يقول :

— انما يريدنى بهذا القول أيها الأمير ، والأمر فى ذلك على ما حكى وأنا أقرب اليه .. قد نظر الأمير فى خمسين رقعة وانى لأعيد ما فيها وما وقع به على كل رقعة رقعة .

ودهش الضيف ، ولم يملك الحسن الا أن يأمــر بالرقاع فأحضرت ، فقال الأصمعى :

— الرقعة الأولى عن ضيعة بسكة شيخ بن عميرة تحيفت فخربت ، وصاحبها زيد بن منصور الثقفى ، ووقع له الأمــير

بتأجيل خراجها الى العام المقبل بعد حذف العشر الذى يؤخذ بعد النصف .

ونظر فى الرقعة فاذا هو لم يكذب فيها شيئا ، فلما كانت الرقعة الثانية لم يتمهل الأصمعى ليفكر بل قرر ما فيها مسرعا بين بصر الحاضرين ودهشهم . وهكذا مرّ فى أربعين رقعة ونيف ، فوثب اليه نصر بن علىّ الجهضمى وصاح :

— أيها الرجل .. ابق على نفسك من العين !

٥

أول درس

وبينما كان يحيا هذه الحياة ، راح أبو عبيدة يتوارى حتى عن بلاط البرامكة ، وحرص هؤلاء على أن يقرروا — بتقربهم اليه هو — أن شيئا لم يفجعهم فى أبى عبيدة ، وان داهمه الأصمعى لم تدهمهم قط .. فجعفر البرمكى يذكره للرشيد ، ومروان بن أبى حفصة شاعر القصر يلهج بتفوقه ، ويعقد معه أواصر الصداقة اسحاق بن ابراهيم الموصلى بل يوافقه على كثير من آرائه فى الشعراء قديمهم ومحدثهم على حد سواء .

وكان أبو يوسف القاضى الذى اعتاد أن يجعل مجلس الغناء عند الخليفة الى درس وعظ تسيل فيه الدموع ، يجد فيه سندا لأنه كان ينصرف عن هذا الضرب من الحياة .

وشهد الأمير سعيد الباهلى أن العلم اذا لم يقصر على ابن عمه — يعنى الأصمعى — ولم يختص به فقد أصاب الذكاء كله والحفظ كله ، وليس لذلك منشأ الا أرومته ، أليس هو من باهلة ؟

قد يضحك هذا وقد يثير ، الا أن المجتمع الذى يقبل على تمرد الغرائز ويشجع اللهو كان يفسح السبيل لأكثر من عالم

كالأصمعى .. فهو يعيش فى تناقض خطير ، ومن ثم لا عجب أن تكون هناك جماعتان من المتفرجين على هذا الكهل الشاب وهو يتسلل الى قلب الرشيد ، احداهما تخشاه لأن له ميولا تعتبر معاول هدم لما يشيدون من صروح ، والأخرى تدعو له لأنه كسب لأرض جديدة فى ميدان المعركة التى شنتها الشعوبية .

واشتد الهرج والمرج بعد أيام فى بلاط الرشيد بالرقة ، فقد كان كل من فيه ينتظر بفارغ الصبر امتحانا جديدا لعالم البصرة . وأحس الأصمعى أنه يوشك أن يرتجف برغم شجاعته ، غير أنه كان شديد التلهف على لقاء منافسيه وحاسديه ، ولم تصدمه رؤيته لأبى عبيدة ولا للمفضل الضبى ولا للكسائى بل شعر على العكس بأن وجودهم قد يفيده على نحو من الأنحاء .

ولم يخيب هو ظنون منتظريه وشاديه .. لقد كانت ثقته بالغة ، وراعهم منه بساطته وخفته ، وشحوب جلده وعيناه الحادتان ، وبادره الرشيد يقول مبتسما :

— يا أصمعى كيف أنت بعدنا ؟

فأجاب وهو ينظر نحوه :

— والله ما لاقتنى بعدك أرض يا أمير المؤمنين .

فتبسم الخليفة ولم يقل أحد شيئا ، حتى اذا حان وقت الرحيل الى بغداد وهم هو بالانصراف مع المنصرفين استبقاه الرشيد وصاح :

— يا غلمان خذوا علينا الباب وأعدوا الطعام .

ثم أخذ بيد الأصمعى وأدخله فى مجلس آخر فاذا مائدة قد

نصبت وعليها كل ما لذ وطاب ، وشرع الستيرات من نواح شتى بألوان من الغناء الرصين ، غير أن الرشيد يقول له فجأة :

— ما معنى قولك « ما لا قتنى أرض » يا عبد الملك ؟

فأجاب :

— ما استقرت بى أرض كما يقال فلان لا يليق شيئا أى لايستقر معه شيء .

فتبسم الرشيد وقال بهدوء :

— هذا حسن ولكن لا ينبغى أن تكلمنى بين يدى النـاس الا بما أفهمه ، فاذا خلوت فعلمنى .. فانه يقبح بالسلطان أن لايكون عالما لأنه لا يخلو اما أن أسكت واما أن أجيب ، فاذا سكت فيعلم الناس أنى لا أعلم اذ لم أجب ، واذا أجبت بغير الجواب فيعلم من حولى أنى لم أفهم ما قلت .

وأحس الأصمعى انه أخطأ فانقبض ، غير أنه وهو يرى انه يتعلم أشياء جديدة يفرضها عليه الوضع الجديد أدرك أن هـذا الخليفة الذى يروون عنه ما يروون أكثر النـاس حبا فى التعلم والافادة . فأطرق وهو يتمتم بكلام كأنه يعتذر ، فقال الرشيد :

— لندع هذا يا عبد الملك فأنا وجهت اليك بسبب جاريتين أهديتا الى قد أخذتا طرفا من الأدب وأحببت أن تبور ما عندهما وتشير فيهما بما هو الصواب عندك ...

وصمت قليلا ثم صاح بغلمانه :

— ليمض الى عاتكة فيقال لها أحضرى الجاريتين .

فحضرت ومعها الجاريتان ، وتبين الأصمعى من حديث عاتكة

مع الرشيد أنها على قدر مدهش من الثقافة، غير أنه أخذ بجمال الجاريتين وانشأ يتفرس فيهما وهما تغضان عنه النظر، فلما أشار الرشيد اليه أن يبدأ معهما قال لاحداهما :

— ما اسمك أنت ؟

فأجابت :

— لباب !

هكذا ببساطة، فاذا الجارية التى ملأته اعجابا تثير فيه كوامنه، ويرى فيها ذكرى قديمة، وكان أمرا صبيانيا حقا أن يهتنر ويستسلم للحظة ضعف، فلما تطلع نحوه الرشيد مستفسرا قال لها وهو يريد أن يترفق بها :

— فما عندك من العلم .

قالت :

— ما أمر الله تعالى به فى كتابه ثم ما تنظر فيه من الأشعار والآداب والأخبار .

فأنشأ يسألها عن حروف من القرآن فأجابته كأنها تقرأ فى عينيه الجواب، ثم سألها عن النحو والعروض والأخبار فما قصرت، فصاح :

— بارك الله تعالى فيك فان كنت تقرضين من الشعر فأنشدينا شيئا ! فاندفعت فى هذا الشعر

يا غياث البلاد فى كل محل ما يريد العباد الا رضاكا
لا ومن شَرَّفَ البلاد وأعلى ما أطاع الإله عبْدٌ عصاكا

فاتجه الأصمعى بقوله للخليفة :

— ما رأيت امرأة فى مسك رجل مثلها !

وسأل الأخرى وقد فتر ، الا أنه كان أقسى عليها قليلا فبدت آمام الجميع دونها ، فقرر ذلك ثم آضاف :

— الا أنها ان ووظب عليها لحقت لباب .

فقال الرشيد على الفور :

— فلتصلح هذه التى وصفها بالكمال لتحمل الىّ الليلة ، وأما هذه فتأخذها عاتكة .

وهب واقفا يهمس لأحد خدمه بشىء فانصرفت النساء ، وأراد الأصمعى أن يمضى فقال له الرشيد :

— انتظر يا عبد الملك فأنا ضجر ، وهأنذا أجلس أحب أن أسمع حديثا أتفرج به .

فقال الأصمعى :

— لأى الحديث يقصد أمير المؤمنين ؟

فأجاب :

— لما شاهدت وسمعت من أعاجيب الناس وطرائف أخبارهم.

فانطلق الأصمعى يقول :

— كان صاحب لنا من البدو أغشاه وأتحدث اليه ، وقد أتت عليه ست وتسعون سنة أصح الناس ذهنا وأجودهم أكلا وأقواهم بدنا ، فغبرت عنه زمانا ثم قصدته فوجدته ناحل البدن كاسف البال متغير الحال فقلت له « ما شأنك ، أأصابتك مصيبة ؟ » قال « لا ! » قلت « فمرض عراك ؟ » قال « لا ! » قلت « فما سبب هذا الذى أراه بك ؟ » .

فقال : « قصدت بعض القرابة فألفيت عندهم جارية قد لاثت رأسها وطلت بالورس ما بين قرنها الى قدمها وعليها قميص وقناع مصبوغان وفى عنقها طبل توقع عليه وتنشد :

محاسنها سـهام للمنـايا مريشـة بأنواع الخطـوب
برى ريب المنون لهن سـهما يصيب بنصـله مهج القلوب

فأجبتها :

قفى شفتى فى موضع الطبـل ترتعى
كما قد أبحت الطبل فى جيدك الحسن
هبينىَ عودا أجوفا تحت شَنَّة
تَمتَّعُ فيما بين نحرك والذقن

فلما سمعت الشعر منى نزعت الطبـل ورمت به فى وجهى وبادرت الى الخباء ، فلم أزل واقفا حتى حميت الشمس على مفرق رأسى لا تخرج ولا ترجع الىّ جـوابا فقلت أنا والله معها كما قال الشاعر :

فوالله يا سلمى لطـال اقامتى على غير شىء يا سُليمى أراقبه

ثم انصرفت سخين العين قرح القلب ، فهذا الذى ترى من التغير هو من عشقى لها » .

وسكت الأصمعى بانتهائه من قصة البدوى ، فقال الرشيد ضاحكا :

— ويحك يا عبد الملك ابن ست وتسعين سنة يعشق ؟

فقال الأصمعى :

— قد كان هذا يا أمير المؤمنين .

فنادى يستدعى الفضل ، فلما مثل قال له :

— أعط عبد الملك مائة ألف درهم .

وكانت مفاجأة مذهلة ، ثم كان أن فوجىء ثانية وهو ينصرف. اذ أقبل عليه خادم يصحب جارية تحمل شيئا فى يدها وتقول :

— أنا جارية لباب وهى تقرأ عليك السلام وتقول لك ان أمير المؤمنين أمر لى بألف دينار وهذا نصيبك منها .

وتناول منها ما تحمل فاذا المال ألف ، واذا هو منشرح الصدر، ويسمعها وهى تمضى عنه تقول :

— هى تقول لن تخليك من المواصلة بالبر أبدا .

٦

على غير موعد

انسجم الرجلان معا .. الرشيد والأصمعى وكلاهما طامح غنى بمواهبه ، واغتبط الفضل بن الربيع حين وجد رجلا من غير الحمراء يحتفظ على الرغم مما يدبر له فى الخفاء بمكانة رفيعة فى القصر ظهر فيها على كل من الكسائى مؤدب محمد واليزيدى مؤدب عبد الله ، وكان هذان الرجلان على قدر كبير من العلم ولكن يعوزهما دائما اخلاص الأصمعى وحضور بديهته .. هما حفظا ليبهرا سامعيهما ، وحفظ الأصمعى ليؤدى رسالة ، وكان الرشيد على علم تام بذلك الفرق !

ويعلم أيضا أن سميره ومعلمه أقل الناس غرورا وأزهدهم فى التأنق حتى رمى بالبخل . والأصمعى من جانبه الذى كان يتوقع أن يراه ماردا ضخم الجثة كخادمه سرور يكتشف فيه انسانا رقيقا شديد الاحساس بحاجة الغير ، ثم يضعف أمام الكلمة الطيبة ، وذلك أمر كان يكلفه كثيرا .

لقد انتهك يحيى البرمكى وأبناؤه أوضاعا كثيرة فى المجتمع ، فلم ير فى فعلهم ما يضير ، بل كان يدعو لهم بالتوفيق والسداد . ولولا ما كان يأخذ به نفسه من حزم يدعوه اليه ابن الربيع لأشفى

على الهلكة والفناء ، ولكن الله حافظه ما كان يعمل لخير هذه الأمة .

كان الرشيد يرى فى آل برمك مبعث رضى ، وكان الأصمعى وهو ينظر بعينه وعين ابن الربيع يرى فيهم أداة هدم تنتظر اللحظة الحاسمة .

وكان الرشيد الانسان الكريم يكبرهم ويتحدث عنهم بعطف، وكان الأصمعى يحذرهم ويحصى خطواتهم ، ويحجم عن مجالسهم ما كان هناك سبيل الى الاحجام . قال مرة « اننى لا أستطيع أن أستقر على رأى فيهم ، ولكن من المؤكد أنهم شياطين » .

وكانت مناقشاته مع الفضل بن الربيع تتمخض عن نتائج عجيبة ، غير أنها لم تمنعهما من أن يصانعاهم ثم يضعا عيونا لهما عليهم ، وقد يكون العين لكاتب أو لحارس أو لجارية من جواريهم !

وهكذا تمر الشهور والسنون .

وذات يوم يجلس الخليفة الى أصحابه وينتظر الأصمعى فلا يدخل ، ويتحدث المتحدثون فى الشعر فيسأل الرشيد عن صدر هذا البيت :

ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه .

فلم يعرفه أحد ، ويحاول الجميع عبثا أن يشحذوا أذهانهم ، حتى اذا غلبوا على أمرهم راحوا يتساءلون :

— أين الأصمعى ليجيب ؟

أجل أين الأصمعى ؟ ويسأل عنه الرشيد ، فينبرى اسحاق الموصلى قائلا :

— انه مريض ، وأنا أمضى اليه فأسأله .

ويطرق الخليفة مليا ثم يقول :

— احملوا اليه ألف دينار لنفقته واكتبوا فى هذا اليه .

وأعد المال فحمله رسول مع السؤال فى كتاب ، قاصدا دار الأصمعى .

فرد هذا الجواب على رقعة يقول فيها « أنشدنا خلف لأبى النشناش والنهشلى :

وسائلة أين الرحيل وسائل
ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه

الأبيات .. » غير أنه لا يمضى الا قليل على رجوع الرسول حتى يدخل هو بنفسه متماسكا وفى عينيه آثار سهاد ، فيقبل الرشيد عليه حفيا ويدنيه منه ، ويروح هو يتفقد أهل المجلس . فاذا هم جعفر البرمكى ، وابن الربيع ، وأبو يوسف القاضى ، وأبو عبيدة ، والكسائى ، واليزيدى ، والعباس بن الأحنف الشاعر ، وغيرهم ممن يعرف وممن لا يعرف .

أكان من الضرورى أن يقبل فى هذه الساعة ؟

انه مريض حقا ، ولكن اجتماع هذه النخب فى تلك الساعة ينبغى ألا يفوته ، ومن ثم شد عزمه وتأهب لكل طارىء . فلم يكن الا لحظات حتى أدرك فيما كانوا يتحدثون ، فتناول طرف الحديث منهم وقال :

— قال أبو عمرو بن العلاء « أفصح الشعراء ألسنا وأعربهم أهل السروات وهن ثلاث ، وهى الجبال المطلة على تهامة مما يلى اليمن : فأولها هذيل وهى تلى الرمل من تهامة ، ثم علية السراة الوسطى وقد شركتهم ثقيف فى ناحية منها ، ثم سراة الأزد أزد شنوءة وهم بنو الحرث بن كعب بن الحرث بن نصر بن الأزد » .

وسكت ليستريح ، الا أن أبا عبيدة أحس أنه تنكب الجادة فقـال :

— ليس هذا ما نريد يا أصمعى ، وأنا أقول افتتح الشعر بامرىء القيس وختم بابن هرمة .. فالشاعر امرؤ القيس !

فقال يونس :

— ولكنى أرى أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد .. انما هو كلام وأجودهم كلاما أشعرهم ، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول لو كان مكانه غيره كان أجود .

قال أبو عبيدة :

— لست أرى هذا تماما فالشاعر انما كان يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك اذا حارب أو شاتم أو فاخر ، حتى كان العجـاج أول من أطاله وقصـده وشبب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب عليها واستوصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعل الشعراء بالقصيد ، فكان فى الرجـاز كامرىء القيس فى الشعراء وليس هو أشعر الشعراء .

وهنا يتدخل الرشيد ويقول فى مزح :

— أتقولون هذا والأصمعى لا يتكلم ؟ انه والله شيطان الشعر !

فقال :

— سلونى أجب .

قال جعفر :

— قل لنا أبا سعيد أى بيت تقوله العرب أشعر ؟

فأجاب مسرعا :

— الذى يسابق لفظه معناه .

وسأل الكسائى :

— وماذا تقول فى شاعرين يتفقان فى المعنى الواحد ولم يسمع أحدهما قول صاحبه ؟

أجاب :

— عقول الرجال توافت على ألسنتهما .

ثم أخذ الأسئلة على هذا النحو تتعاوره فيجيب وينشد ، حتى يعلن الرشيد أنه فضلا عن حفظه الشعر يقوله فيبدع حتى يعجز بعض الشعراء ، وهنا يحس العباس بن الأحنف كما لو أنه قصد بهذا التعريض فيقول :

— يا أمير المؤمنين قد عملت شعرا لم يسبقنى الى معناه أحد

ثم أنشد :

اذا ما شئت أن تبصر ... شيئا يعجب الناسا
فصور ها هنا فوزا ... وصور ثم عباسا
ودع بينهما شبرا ... فان زاد فلا باسا

فان لم يَدْنُوَا حتى ترى رأسيهما راسا
فكذبه .. وكذبها بما قاست وما قاسى

فتطلع الرشيد الى الأصمعى فقال على الفور :

— يا أمير المؤمنين قد سبق اليه .

فقال له :

— هات !

فأنشد :

لو أن صورة من أهوى ممثلة
وصورتى لاجتمعنا فى الجدار معا
اذا تأملتنا ألفيتنا عجبا
الفان ما افترقا يوما ولا اجتمعا

وبهت العباس ولكنه صاح قائلا :

— والله يا أمير المؤمنين وحق رأسك ما سمعت بهذين البيتين.

فأعرض الرشيد عنه يسمع الى مشكلة أثارها أبو يوسف القاضى .. فهل يقال أمات بدل أمهات أم أن الصواب واحدة منهما ، فقال اليزيدى :

— الأمهات للأدميين والأمات للبهائم .

فقال الأصمعى :

— معاذ الله أما سمعتم .

قوّال معروف وفعّاله عقّار مثْنَى أمهات الرِّباع

ثم راح ينشد فى أمات الآدميين وأمهات البهائم ، حتى قال الرشيد :

— حسبك .. حسبك !

فصاح الرشيد :

— أزيده لو كان يريد وانما كان ينبغى أن يسأل فى غير هذا يا أمير المؤمنين .

فالتفت أبو يوسف اليه وقال :

— فى أى شىء مثلا ؟

فأجاب :

— فى الفرق بين عقلت القتيل وعقلت عنه .

وسكت ولم ينبس أحد ، فهز أبو يوسف كتفيه وقال له بهدوء :

— قد كنت أظنك للشعر فقط ، أما أنك تتصدى لما قد يزيدنا غناء فافعل باذن الله .

فقال الأصمعى وهو يبتسم برفق :

— عقلت القتيل اذا أديت ديته وعقلت عنه اذا ألزمته دية .

واضطجع الرشيد مرتاحا مسرورا ! ولكن الأصمعى وهو يتفقد الوجوه ليرى وقع كلامه لمح العباس بن الأحنف لا يزال كاسفا وأحسن كأنما الدموع تريد أن تطفر من عينيه فخشى أن يكون سببا فى حرمانه من عطاء الخليفة فاتجه اليه قائلا :

— أتعفو يا أمير المؤمنين !

أجاب :

— ما كان للعفو سبيل .

فقال وهو يشير تجاه العباس :

— صدق والله ابن الأحنف وأنا عملت البيتين الساعة !

وضحك الرشيد حتى استلقى وضحك المجتمعون ، ولكن الكسائى كان طوال هذه المدة صامتا فلما عنّ له أن يخوض فيما يخوض فيه القوم قال للخليفة :

— جاء دورى أنا يا أمير المؤمنين فأسأل الأصمعى .

فتساءل الرشيد :

— فيم يا علىّ ؟

فأجاب :

— فى الشعر .

فصاح الخليفة :

— يا على اذا جاء الشعر فاياك والأصمعى .

فقال الأصمعى :

— بل أسأله أنا فى اللغة .. أتدل على معنى قول الراعى .

قتلوا ابن عفّان الخليفةَ محرِما
ودعا فلم أر مثله مخذولا

فتضاحك الكسائى بسخرية وقال :

— كان محرما بالحج .

قال الأصمعى :

— فقول الشاعر

قتلوا كسرى بليل محرما
فتولى لم يمتع بكفن

هل كان محرما بالحج أيضا ؟ خذها عنى قوله الأول محرما أى فى

حرمة الاسلام ، ومن ثم قيل مسلم محرم أى لم يحل من نفسه شيئا يوجب القتل ، وقوله محرما فى كسرى يعنى حرمة العهد الذى كان له فى عنق أصحابه .

* * *

وانصرف أهل المجلس مودّعين ، حتى اذا كانوا على الطريق فطن أبو عبيدة الى أن الأصمعى لا يركب الا رجليه فصاح :

— وأين فرس الفضل يا أبا سعيد ؟

فأجاب :

— والله انه ليكلفنى ما لا أطيق فاشتريت بثمنه ثلاثة حمير .

فقال :

— وأين هى ؟

فأجاب :

— وجدتها جعلت فداك على ما قالت ابنة الخس عازبة الليل وخزى المجلس فلا لبن فيحتلب ولا صوف فيجتز ، فبعتها لأنتفع بثمنها !

٧

ولىّ العهد

دخل الحجرة على الأصمعى فاذا هو شخص رآه قبل .. منذ بعيد ، من هو ؟ ليث الأسدى ، أليس كذلك ، وأين كان ؟ وراح يخرج من صدره قرطاسا كهذا الذى بعث به ابن الربيع اليه وهو فى البصرة .. ولكن عينيه ، هاتين العينين العميقتين الداكنتين ، انهما تنبئانه عن ..

— من أنت يا ليث ؟

فقال :

— أنت هو من تخاطبه .

قال الأصمعى :

— ولكنك شخص آخر ، قل !

فضحك ليث وصاح :

— ما عليك منه ، ألك قبله دين فتريده أم ....

فقاطعه الأصمعى :

— أنت اسماعيل بن صبيح ، أجل هو أنت مهما تحجل أمامى وتغير من هيأتك .. فما وراءك ؟

واسماعيل هذا كاتب فى ديوان البرامكة .. مولى من الموالى

ولكنه ينحرف عن بنى جلدته ، ويكره يحيى بن خالد منذ حاول أن يؤخر النوروز ليوافق موعد الجباية نضج المحصول ، فرأى اسماعيل فى هذا عودة للمجوسية واساءة للاسلام ، وكان أول من فاتح ابن الربيع فى هذا الأمر واذاعه فى الحرم .. فأرغت أم جعفر وأزبدت ، وأثارت بنى هاشم !

قال اسماعيل :

— كان يجدر بى أن أتصل بابن الربيع ولكنه مع الخليفة فى رحلة الصيد وصحبهما الفضل قبل أن يسافر الى خراسان ، ولكن جعفرا أخاه يدبر شيئا قد يحسن بابن الربيع أن يبلغه عن طريقك ، فقد لا يتاح لى أن أراه قبل أن تراه أنت لأنى راحل من غد .

ولم يكن الأصمعى يتوقع كثيرا ، فمد يده الى اسماعيل يريد أن يأخذ القرطاس ، ولكنه لم يقدمه وقال :

— مهلا يا أبا سعيد مهلا ، فقد ينبغى أن تعلم أولا أنه صورة من كتاب أرسله جعفر البرمكى لصنائعه فى البلاد يحضهم فيه على ما جئت من أجله .

فتقبل الأصمعى هذا الكلام بلا تعليق وقال :

— ثم ماذا ؟

أجاب أسماعيل :

— ثم ينتهى الأمر الى عبد الله بن مراجل !

وصمت . فأحس الأصمعى أن وراء هذا الكاتب شيئا خطيرا ، والحقيقة أنه وان لم يخبر بما يدبر جعفر البرمكى فقد أيقن أن مجرد ذكر اسم الأمير عبد الله بن مراجل — جارية الرشيد

الفارسية التى أصبحت زوجه — ينطوى على مؤامرة ترمى الى الاطاحة بنفوذ بنى هاشم الممثل فى محمد الأمير الصغير ابن زبيدة.

واستخلص أنه مهما يكن لون المؤامرة فهى لا يمكن أن تخرج عن اغراء الرشيد على أن يبايع بولاية العهد لابنه عبد الله ، مع أن النية كانت متجهة دائما الى أن يبايع لابنه محمد .. كان هذا معروفا على الرغم من أن الرشيد نفسه كان يتوسم النجابة فى عبد الله ويقول برغم صغر سنه :

— والله انه لجدير بهذا الأمر ، ولكن أين أنا من آل هاشم الميامين ؟

وقال الأصمعى فى ألم :

— ألم يمكنك ايفاد رسول الى ابن الربيع يا رجل ؟

فمال اسماعيل الى أمام وهو قبالته وهمس :

— ليس ايفاد الرسول بالأمر اليسير يا أبا سعيد ، والا فما الذى دعانى الى أن آتيك متنكرا أمام عيون البرامكة ؟ ومع ذلك فقد بلغت وسأرحل غدا مع سعيد الحرشى لنجبى بقايا خراج الموصـل .

قال الأصمعى شاردا :

— أتعلم بهذا أم جعفر ؟

أجاب اسماعيل وهو يقدم القرطاس :

— أكبر الظن لا .

وانصرف ، فوجد الأصمعى نفسه فى دوامة ، ورأى آماله توشك العاصفة أن تقتلعها وقد ظل سنوات يرعاها ويسهر عليها .

فان يكن الفضل البرمكي يكتب مثل هذا الكتاب (وفضه ليقرأ ما جاء فيه) فلا بد أن تكون هناك كتب أخرى نبعث بها نحن لرجالنـا .

وابتسم فى مرارة وهو يرى نفسه يتكلم بلسان الجمـاعة العربية .. سلم الباهلى ويزيد بن مزيد الشيبانى والفضل بن الربيع وأم جعفر زبيدة وأخوها عيسى بن جعفر ، ثم بنى هاشم أخوال الأمير محمد .

فهل ثمة سبيل الى واحد من هؤلاء ؟

هل من سبيل ؟

ولكن .. ثم تذكر لباب ، لباب التى امتحنها للرشيد ومنحته الألف ، أليس من الممكن أن تعينه على الوصول الى أم جعفر أم تراها تكيد له فتتصل بمراجل وتفسد التدبير كله ؟ ومع ذلك فكيف السبيل اليها بدورها ؟

وفكر فى عون حاجب الفضل بن الربيع .. فقد يستطيع أن يصل الى لباب بزوجه أو بجارية تعرفها زوجه فالأمر سـيان ، الا أنه رأى السلسلة تتعقد الى حد بعيد ، ويصبح الأمر الى حرم الرشيد أعصى عليه من الوصول الى الرشيد نفسه ، وقال لنفسه ان العقبة الكبرى أن الفضل البرمكى يستأثر بعقل أمير المؤمنين كما يستأثر جعفر بقلبه .

لكن الأصـمعى مـال أخـيرا الى التحفظ فى تخـوفه ، وأخذ من جديد يقلب وجوه الرأى حتى انتهى الى ضرورة مفاتحة اليزيدى .. فقد يستطيع أن يدله على شىء يخدم تلميذه الذى

يوشك أن يطاح به ، فسعى اليه فى الجامع ولكنه لم يجد منه ما كان يطمع فيه وأنشأ يجيب اجابات غامضة . وكل ما قدره فى هذا الصدد أنهم — يقصد البرامكة — يعملون فى الوقت الحالى على حماية عرش الرشيد بعد أن بدأ الخوارج ضرباتهم فأرهقوا يزيد بن مزيد ، وفى الوقت نفسه أخذ الروم يتحركون جهة الثغور فقال الأصمعى :

— ان هذا لا يعنى جديدا .

قال اليزيدى :

— ماذا تقصد يا أبا سعيد ؟

فأجاب الأصمعى :

— ان هذا الذى يتمسك أمام العامة بأسباب العدل حتى يظفر بقلوبهم وتعلقوا هم به ، لأكثر شرا عليهم من الخوارج والروم .. ان هؤلاء الذين اجتمعوا حول دار يحيى بن خالد يصيحون له حتى أثاروا الرشيد فصاح « بارك الله عليه وأحسن جزاءه » هؤلاء لن يجدوا منه غدا الا الهلاك الكبير .

تعسا لك .. تعسا لك !

ومضى عنه منكسرا يفكر ثانية ، غير أن تفكيره لم يصل به الى شىء . ومضى يوم ويومان وأسبوع ، ثم رجع الرشيد فلم يلبث الأصمعى أن طير النبأ لابن الربيع ، وفى المساء عقد أول اجتماع خاص فى القصر بشأن ولاية العهد .. سمع الأصمعى أم جعفر نفسها تتكلم فيه من وراء الستار !

وفى الاجتماع الثانى دعا الرشيد يحيى بن خالد واستشاره

فحبذ عقد البيعة للابن الأكبر — عبد الله — غير أن الفضل ابن الربيع كان له بالمرصاد فلم يلبث أن أشار عليه باعطاء العهد لمحمد ويلقبه الأمين — وينتظر حتى يكبر ويكبر أخوه عبد الله ، ومتى ظهرت الفوارق بينهما عقد الولاية ثانية للصالح منهما .

وأعلن نبأ الاتفاق فكان رجحانا لكفة العرب ، واعتبروا عام ١٧٥ نصرا على الشعوبية لهج به كل الشعراء ، حتى هؤلاء الذين آثروا آل برمك بمدائحهم . وكان سلم الخاسر — شيخ الشعراء اذ ذاك — قد أنشد :

قد وفق الله الخليفة اذ بنى
بيت الخليفة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده
شهدا عليه بمنظر وبمخبر
قد بايع الثقلان فى مهد الهدى
لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر
وليته عهد الأنام وأمرهم
فدمغت بالمعروف رأس المنكر

فتبعه كثيرون .. بل فوجىء الأصمعى بالشاعر نفسه يمدح الفضل بن الربيع بلا مناسبة فى قصيدة يذكر فيها أنه جبر الاسلام يومَ وَهَى ، وأنه بنى رواق مجد مده على العباس ! وقدم أبو العتاهية

من الكوفة وأبو نواس من البصرة يسهمان فى العيد ويملآن غبطة سماء بغداد .

وفى هذه الأثناء يعود سعيد الجرشى من الموصل ، ويوافى باب الرشيد بمال عظيم . فيأمر بصرفه على الناس ، وتكون ثمة مقارنة ما يعطيه هو وما يعطيه آل برمك !

٨

يوم الشبع

وحج الرشيد فحج معه الأصمعى ، وكان فى موكب اجتمع فيه الحرم وأقطاب الجد والهزل .. يضع حلة جميلة ويركب برذونا من برازين الخلافة ، ولم يكن أحد أقرب الى الخليفة منه .. فلا يكون ثمة منتجع الا روى فيه الأصمعى خبرا أو أنشد شعرا ، ولا تأتى ليلة الا ملأها سمرا ونوادر .. يتردد بها صوته ، فتهفو اليه الأسماع .

فهو مرة يصطنع لهجات البدو الذين يحكى عنهم ، وهو يقع على أصطلاحات القبائل التى يعرض لها ، وهو مرة أخرى يكاد يغنى الشعر الذى يلقيه فيثير اعجاب الجميع حتى كبار الشعراء الذين كانوا فى الموكب كسلم وأبى العتاهية ، وقد فطن الرشيد الى هذه الظاهرة فقال :

— الأصمعى أعذب من تحدث وأنشد .

وقد كان هذا سببا فى تحريك ضغينة السمار عليه ، وفى مقدمة هؤلاء اسحاق الموصلى الذى كان يحاول عبثا أن يباريه فى المذاكرة ، وهو مع ذلك يخلو به ليناشده القصيد ويحفظ عنه !

وتم كل شيء فى الحج على النحو المرسوم ، غير أن شيئين وقعا فكانا نشوزا فى تلك الرحلة السهلة .

أولهما امساك يحيى البرمكى بحاجات الحرم فضيق عليهن وأثار بتضييقه زبيدة ، وقد اشتكت الى زوجها فاستدعاه وهو عاتب فقال له يحيى بهدوء :

— أمتهوم أنا فى حرمك يا أمير المؤمنين ؟

قال الرشيد يجيبه :

— لا والله ولكن ..

فقاطعه يحيى بحنان رقيق وهو يقول :

— لا تقبل قولها علىّ ودعنا الى ما هو أهم ، فقد تمت بيعة أهل خراسان للأمين .. هكذا أرسل ولدى الفضل هذه الساعة !

وأما الشيء الثانى فقد كان أكثر ايلاما على قلب الأصمعى من غيره ، وتذكر به أول درس تلقاه على يد الرشيد فى مخاطبة الملوك . واعتبر أنه قد يكون درسا ثانيا يلقى فيه ما يفيد وان يكن فيه ما يبعث على الأسى ، سأله الرشيد عن مسألة فأسرع يقـول :

— على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين .

فصاح :

— أسقطك الله على رأسك !

وكانت قاسية ضحك لها أهل المجلس ، فأحس الأصمعى أنه أشبه بالطائر لا يستطيع أن يغرد الا وهو خارج قفصه ، وما كان ما يرسله الا بعض ما ينبغى أن يرسل .. حقا تفتحت له أبواب

المؤانسة ، وحقا تمكن من قلوب الجميع ، غير أنه فى حاجة الى أن ينطلق فكان أن تخلف عن الموكب فى البصرة .

ومضى عام قضاه فى التحصيل والتأليف والتردد على المسجد يعقد فيه مثل حلقاته الأولى ، وزار بناته ثم التقى بابن الأعرابى فسأله عن أهله فلم يشف غليله بشىء ، ولكن رسولا يفد عليه من مدينة السلام ويقول له :

— أمير المؤمنين يأمر بحملك على دواب البريد .

فجهز على الفور وحمل اليه ، وما دخل يسلم عليه بالخلافة حتى أومأ اليه أن يجلس وهو يقول :

— لا حسن لدنيا لا يكون فيها مثلك يا أصمعى .

غير أنه لاحظ أن جعفر بن يحيى قد رفع كل أسباب التكلف بينه وبين الرشيد حتى راح يتكلم باسمه ، وأدرك أنه غلب عليه غلبة لا تخفى على أحد ، فتوجس حتى انصرف النـاس فقال الرشيد لهما جزلا :

— الآن اكتملت بكما سعادتى .. ألا تريان !

وأخرج كيسا فاذا هو ملىء بدنانير نقش عليها اسم جعفر ، فتوهجت عينا البرمكى وأمسك بقطع النقد ينظر فيها بامعان . ثم خرج وهو يبدى اعتذاره ، وأما الرشيد فقد قال :

— انه كريم حلو المعشر ، بعكس أخيه الفضل .. انه الفضل حاكم متسلط ولكنه يصلح حال الرعية وقد أمر باشعال القناديل فى المساجد .. انه عاد من خراسان ، وسينفق هنا أياما .

كان يتكلم بسرعة ، كطفل استخفه الطرب ، ولكن الأصمعى

استشعر أنه قلق ولم يكن أدل على ذلك القلق من قوله فجأة :

— ألا تحب أن ترى وندى محمدا وعبد الله ؟

فأجاب قائلا :

— بلى يا أمير المؤمنين .

فدعا بهما فأقبلا غلامين صغيرين يسلمان على أبيهما بالخلافة ، ثم جلسا بأدب . فأمره الرشيد بمطارحتهما الأدب ، ففعل . حتى اذا انقضى بعض الوقت قال الرشيد :

— كيف ترى أدبهما ؟

فأجاب :

— يا أمير المؤمنين ما رأيت مثلهما بذكائهما .

فضمهما الى صدره وأمرهما بالذهاب ، ثم التفت نحوه وفى عينيه عبرة وقال :

— يا أصمعى .. كيف بهما اذا ظهر تعاديهما وبدا تباغضهما ووقع بأسهما بينهما حتى تسفك الدماء ويود كثير من الأحياء لو أنهم كانوا موتى ؟

فلم يجب لأنه لم يكن يعرف ما السبيل الى الاجابة ، الا أنه أصبح على يقين أن أشياء كثيرة حدثت فى القصر خلال العام الذى أنفقه فى البصرة ، وأن أمير المؤمنين لا يهنأ بما يهجس فى نفسه من هواجس . فلما تكلم كان يريد أن يقطع فترة الصمت لا أكثر ، ولذلك كان سؤاله الرشيد يبدو غريبا .

— وهل بينهما شىء يا أمير المؤمنين ؟

وهز الرشيد رأسه وهمس :

— انهما يكرهان بعضهما البعض .. يبدو أن هناك أيدى تحرك فيهما الضغينة ، ربما كانت أم جعفر وربما كانت الأخرى ولكنى قررت شيئا لن أعدل عنه .. ان الفضل نفسه يرى ما رأيت ، وقد أجمع العام الماضى كلمة الخراسانيين على الأمين .

وفجأة تغير الرشيد .. طفح وجهه بشرا ، وهب واقفا وهو يصيح :

— ليحفظهما الله ، وأما نحن فلنطعم شيئا .

وسرعان ما نادى على غلامه فقدم اليه فالوذجة فى صحن كبير، فالتفت الى الأصمعى قائلا :

— يا عبد الملك

فخف اليه يقول :

— لبيك يا أمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— حدثنى بحديث مُزَرِّد أخى الشمّاخ

فقال الأصمعى :

— نعم يا أمير المؤمنين . ان مزردا كان رجلا جشعا نهما ، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزّاد عليه وذلك مما يضرّيه ويحفظه . فذهبت يوما فى بعض حقوق أهلها ، وخلفت مزردا فى بيتها ، فدخل الخيمة فأخذ صاعين من دقيق وصاعا من عجوة وصاعا من سمن . فضرب بعضه ببعض وأكله ، ثم أنشأ يقول :

ولما مضت أمى تزور عيالهـا
هجمت على العِكْم[1] الذى كان يُمْنع
خلطت بِصَاعَىْ حِنْطةٍ صاعَ عجوة
إلى صاع سمن فوقها يتريَّع[2]
ودلَّلتُ أمثـالَ الأثافىّ كأنها
رؤوس رُخَالٍ[3] قطّعت لا تجمّع
وقلت لبطنى أبشرى اليومَ انه
حِمَى أمِّنـا مما تفيـد وتجمع
فان كنت مصفوراً[4] فهذا دواؤه
وان كنت غرثانا[5] فذا يوم تشبع

وما انتهى الأصمعى من انشاده حتى استضحك الرشيد وراح يمسك بطنه ويستلقى على ظهره ، ثم قعـد فمدّ يده بصحن الفالوذجة وقال :

— خذ .. فذا يومُ تشبعُ فيه يا أصمعى !

---

(١) العكم : العدل أو الغرارة .

(٢) يتريع : يكثر ويطفو .

(٣) رخال : الرخال بالضم ويكسر جمع رخل وهو الانثى من أولاد الضأن .

(٤) مصفورا : يقال صفر صفرا اجتمع فى بطنه الصفار وهو الماء الأصفر يجتمع فى البطن وقيل الدود .

(٥) غرثانا : جائعا والغرث والغارث الجائع .

٩

إسحاق الموصلى

وعلى هذا النحو سارت حياته ... يركب مع الخليفة اذا ركب ، ويصحبه فى رحلاته للصيد ، ويلم معه بالرقة ، ويشاركه فى نزوله ببعض الثغور . وفى أثناء حروبه مع البيزنطيين كان لا يملك الا أن يدعو بأن يكلل مسعاه فى سبيل الله بالظفر ، فقد كان مفتونا بحماسته وبشبابه وبقدرته على أن يقدم للعرب كل شىء برغم كل ما ينتقص منه فى بعض الأحيان .

أما ضعفه ازاء جعفر فلثقته المفرطة فيه ، حتى لقد عجزت زبيدة نفسها عن منعه من مواصلته ، بل ان يحيى البرمكى يقدم عليه ويتكلم معه فى شأن ابنه المدلل فيقول :

— يا أمير المؤمنين انى أكره مداخل جعفر ، ولست آمن أن ترجع العاقبة علىّ فى ذلك منك ، فلو أعفيته واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك ، لكان أحبّ الىّ وأولى بتفضيلك وآمن عليه عندى !

وأما موقفه من البيزنطيين فقد كان يغذى فى الأصمعى تيه العربىّ المتمكن المتسلط وكثيراً ما ربط انتصارات الخليفة التى كانت تتوالى على الشهور والأعوام بانتصارات عنترة .. ذلك

الشاعر الفارس الذى تسوّد العرب فى جاهليتهم وهزم الفرس والروم جميعا ، وان يكن مدّ لأولاء وهؤلاء يد العون أحيانا .

على أن الأمر فيما يبدو لم يكن ليسير هكذا رخاء ، فقد لحظ أن جعفراً نفسه — وقد رأى وشائج القربى بينه وبين سلم الباهلى وروابط الصداقة بينه وبين ابن الربيع — بدأ يميل عنه ويغرى آل برمك به ، وأحس أن مخلب القط فى يد البرمكى هو اسحاق ابن ابراهيم الموصلى .

والحقيقة أن ذلك الرجل وان يكن مغنيا فى المحل الأول فقد كان قادرا على الشعر يقوله ويحفظه ويردده أمام الرشيد ، ثم يصدر بعد عن ثقافة واسعة تدهش الخليفة وتربطه به . وبدأت المنافسة بينه وبين الأصمعى بداية عجيبة ، مَن مِن الرجلين أقدر على تصيد دراهم أمير المؤمنين ؟

دخلا يوما عليه وهو حزين يفكر فيما جره عليه ولداه ، فحادثاه وراحا يرويان له من الطرائف ما يملأ عليه فراغه . ثم فتح الله على اسحاق بقصيدة ، لعله كان قد أعدها قبل فأخذ ينشدها حتى قال :

وكيف أخاف الفقر أو أعدم الغنى
ورأى أمير المؤمنين جميل

فقال له الرشيد :

— لا تخف ان شاء الله !

وأمر له بخمسين ألف درهم ، ثم راح يصف شعره قائلا :

— لله در أبيات تأتينا بها وما أشد أصولها وأقل فصولها !

فصاح اسحاق :

— وصفك والله يا أمير المؤمنين لشعرى أحسن منه ، فعلام آخذ الجائزة ؟

فضحك الرشيد ثم قال :

— اجعلوها لهذا القول مائة الف .

فدهش الأصمعى ، ولم يحاول أن يصنع شيئا خشية أن يفسره الخليفة بأنه يطمع فى عطاء . غير أنه أدرك منذ هذه الساعة أن خصمه الذى يصدر ببعض ما يصدر به أبو عبيدة أحذق منه فى تصيد الأموال .

ويخرج اسحاق ويحكى الحكاية متشفيا أو كالمتشفى ، ثم يتطوع بحكاية أخرى يزعم فيها أن الأصمعى حكاها له حين دخل على الرشيد بعد وعكة والرشيد فى الفرش منغمس كما ولدته أمه فقال له :

— يا أصمعى من أين طرقت اليوم ؟

فأجاب :

— احتجمت يا أمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— وأى شىء أكلت عليها ؟

فقال يجيبه :

— سكباجة وطباهجة .

فعاد الرشيد يسأله :

— هل تشرب ؟

فأجاب :

— نعم يا أمير المؤمنين :

اسقنى حتى ترانى مائلا　　وترى عمران دينى قد خرب

فصاح الرشيد بخادمه :

— يا مسروق ، أى شيء معك ادفعه للأصمعى .

ولم يحدث شيء من هذا اطلاقا ، أولا لأن الأصمعى نفسه لا يشرب الخمر ، وثانيا أنه لا يمكن أن يرى الرشيد وهو عريان، ولا يريد بالتالى أن يظهره مزريا بالدين داعيا غيره الى تعاطى ما ينهى عنه الله ، ولكنها فرية أو وشاية أو شيء ثقيل تعود أن يجابه به من اسحاق حتى يكون له فى كل يوم شأن جديد . ولقد تعود الأصمعى بعد ذلك أن يفسر الوضع على أساس أنه ايعاز من جانب جعفر ، وقرر أن يجعل للمعركة ميدانيها الشخصى والقومى ؛ فهو يحارب اسحاق لأنه بعض صنائع آل برمك وصورة من صور الحمراء ، وهو يحاربه أيضا لأنه يريد أن يظفر به عند الخليفة . ومن ثم دأب على أن يتحين الفرص ليوقع به كما يوقع هو به ، ولكن ايقاعه به لم يكن مما يدمر ، لأنه لم يكن يجد منه ما يجعله يعنف معه كثيرا .

وقد حدث أن خاض فيه اسحاق ، ثم سمع أن الأمير أبا ربيعة زاره فى بيته ، فاستهداه واستمنحه مالا ؛ فلما أرسل اليه الأمير بما طلب بعث اسحاق اليه يقول :

أليس من العجائب أن قردا　　أصيمعَ باهليا يستطيل

ويزعم أنه قد كان يفتى　　أبا عمرو ويسأله الخليل

اذا ما قال : قال أبى .. عجبنا لما يأتى به ولما يقول
وما ان كان يدرى ما دبير أبوه اذا سألت وما قبيل
وجلله عطاء الملط عارا تزول الراسيات ولا تزول
نصحت أبا ربيعة فيه جهدى وبعض النصح أحيانا ثقيل
فقل لأبى ربيعة اذ عصانى وحاد به عن القصد السبيل
لقد ضاعت برودك فاحتسبها وضاع الفص[1] والسيف الصقيل

فما كان من الأصمعى الا أن استشاط غضبا ، ولم يجد بدا من أن يحذو حذو اسحاق فينشد قصيدة يقول فيها :

أئن تغنيت للشرب الكرام ألا
رد الخليط جمال الحى فافترقوا
وقيل أحسنت فاستدعاك ذاك الى
ما قلت ويحك لا يذهب بك الخرق
وقيل أنت حسانُ الناس كلهمُ
وابن الحسان فقد قالوا وما صدقوا
فما بهذا تقوم النادبات ولا
يثنى عليك اذا ما ضمك الخرَق

* * *

وفى هذه الأثناء يبعث اليه الفضل بن يحيى فيظن ظنونا ويرى أنه — وهو الذى لم يكن يسيغ الانتصار الا مقرونا بالسماحة — قد آن له أن يخرج عن هذا المبدأ فيعلن تحديه للفضل نفسه .

(١) الفص : ملتقى كل عظيمين ، وحدقة العين ، والفص أيضا أصل الأمر وحقيقته .

ولم يكن فى الحق يعوزه السلاح ، غير أن هذا البرمكى يستطيع بدهائه أن يقلب ميزان القوى ، فكان لابد أن يكون متأهبا لكل خطر يبدر منه .

على أنه لم يكد يدخل عليه حتى يتلاشى كل ما أعده ، وتضيع حماسته فيفتر اذ يقول له الفضل :

— يا أصمعى هل لك زوجة ؟

فلما هز رأسه يغمغم أن لا ، عاد الفضل يقول :

— فجارية ؟

فأجاب :

— جارية مهنة .

فقال الفضل وهو يتفحصه :

— فماذا تقول فى جارية أخرى نظيفة أهديها لك ؟

فتعجب الأصمعى وأخذ يفكر هل ثمة شرك ، وهل تراه يعبث به ؟ ولماذا يريد أن يصله بعطائه وأخوه يصله بكيده ، أهى هدنة ؟ قال بعد أن فكر وفكر :

— والله انى لمحتاج الى ذلك .

فأمر الفضل فاذا جارية تخرج عليهما ، ساحرة حلوة ، فلا تكاد تقف أمامهما حتى يخاطبها قائلا :

— قد وهبتك لهذا .

ويلتفت نحو الأصمعى ويقول مستطردا :

— خذها يا أصمعى .

وهنا يحدث ما لم يتوقعه أحد ، فقد انفلتت الجارية مولية وأنشأت تبكى ثم تقول :

— يا سيدى أى ذنب جنيت حتى تدفعنى الى هذا مع ما أرى من قبح صورته ؟

وفجع الأصمعى . فهو قبيح كما يعرف ، ولكن هل الى هذا الحد يهون بقبحه عند هذا البرمكى ؟ وفكر فى أن يعاتبه ، وفكر فى أن يلقنه درسا فى احترام العربى ، ثم فكر فى أن ينصرف الى قصر ابن الربيع يستشيره فيما يصنع ، غير أن ما وقع بعد ذلك دفعه الى مشكلة جديدة اذ انبرى الفضل يقول :

— يا أصمعى ، هل لك أن أعوضك منها ألف دينار ؟

ما معنى هذا ؟

اذن لم يكن الفضل يسخر منه ، فهل تراه يريد أن يمكر ؟ ولكن لماذا .. لماذا هو بالذات ؟ وسمع الفضل يعيد السؤال فأجاب قائلا وهو جامد الوجه :

— ما أكره ذلك

فدفع اليه المال والجارية تنصرف ، حتى اذا أحس أن نفسه قد هدأت سمع الفضل يقول فى صراحة وصدق :

— يا أصمعى انى أنكرت من هـذه الجارية أمرا فأردت عقوبتها بك ثم رحمتها منك !

وضحك فوجد الأصمعى نفسه — لأمر ما — يشاركه ضحكه وقد ارتفع الى مستوى مزحه ويقول :

— فهلا أعلمتنى بذلك قبل مجيئى اليك ؟ انى لم آتك حتى

سرحت لحيتى وأصلحت عمتى . ولو عرفت الخبر لصرت اليك على هيئة خلقتى ، فوالله لو رأتنى كذلك لما عاودت شيئا تنكره منها طوال حياتها !

* * *

وانصرف ووجهه ضاحك ، ولكنه كان يغص ويطوى أعماقه على ما لا يحب أن يبديه .

١٠

عواصف

أظلت سحابات الخوف هذا المجتمع واضطرب لها الأصمعى

ففى العام السادس والسبعين بعد المائة بدأت فتنة أحد العلويين ، هو يحيى بن عبد الله أخو النفس الزكية . يقدر هذا العلوى أن الديلم يستطيعون أن يمدوا له يدا فيستقر بينهم ويثيرهم على الخليفة ، فتكون حريبات واغارات ، ثم تعد الجيوش الكبار يقودها غَزّاء لا يشق له غبار .

يغتم الرشيد ويحزن الأصمعى له ، بل لعله يحزن أن يرى من يبسط سلطانا يسفه السنة ويحط من أهلها الأبرار ، وينسى حزازاته أو مداعباته مع اسحاق ولا يرجو الا أن يوفق الفضل البرمكى فيما كلفه أمير المؤمنين .. وكان قد جهز بخمسين ألفا من جنود الركن الأشد !

وقد رأى فى هذا القدر ما يغنى عن التفكير فى أية هزيمة ، غير أنه لم يلبث الا قليلا حتى سمع أن البرمكى الداهية يكاتب العلوى ويبذل له الأمان .. باسم أمير المؤمنين ، والى هذا الحد هان الرشيد ، فما عسى أن يحدث وقد قرر شيئا رأى تنفيذه حفظا لعرشه ؟

لقد بذل الأمان وعليه خطه وأشهد عليه الأكابر .. وعادالرجلان فأثنى علــى البرمكى وأكرم العلوى ، فكان قيل وقال واشتد اللغط .

الحزب العربى يهجس ويهمس ، وابن الربيع يروح ويجىء ، ويقدم أبو البخترى القاضى على الخليفة ويقول « هــذا أمان منتقض من وجوه » فينصب الفضل البرمكى نفسه للذود عن العلوى . وراح يرد حجج المحتجين وينفذ آراءهم ، ولكن الخليفة يتوسط بعد أن يمزق كتاب الأمان ويكل أمر العلوى للفضل .

وهنا يأتى دور الأصمعى فيخوف وينذر ، فتقوى عند الرشيد الشكوك فى العلوى ويطلب العلل عليه ثم يتتبعه ويرصد له ، فلا يصل أمره الى شىء حتى يأتيه الفضل بن الربيع بخبر رهيب .. فقد أطلق البرمكى سراح العلوى وبعث به الى الحجاز ، فيقبض عليه من جديد وتكون نهايته فى أحد السجون ببغداد .

لقد قام ليث الأسدى أو اسماعيل بن صبيح بمهمته خير قيام ، ولكنه لم يستطيع أن يكشف لابن الربيع مزيدا ؛ فقد سافر الفضل الى خراسان منكسرا ورحل أخوه جعفر الى مصر فبدا أن آل برمك هدأوا . وظن الأصمعى اذ ذاك أن الدنيا عادت تقبل عليه بادبارها عن هؤلاء الذين يدسون له ، وقدر أن صراعه مع اسحاق انتهى الى الأبد .

الا أنه كان واهما ، فقد رجع جعفر .. الخليفة لم يستطع أن يبعده عنه طويلا ، ثم رجع الفضل فجمع له وامر الشعراء بمدحه

وسأل الخطباء أن يذكروا فضله ، وانبرى اسحاق الموصلى يمدحه قائلا .

لو كان بينى وبين الفضل معرفة
فضل ابن يحيى لأعدانى على الزمن
هــو الفتى الماجد الميمون طائره
والمشترى الحمد بالغالى من الثمن

برجوعهما عاد الصراع من جديد ، واشتدت عرامة اسحاق ووطأته ، وبدأ يلمح بضرورة استدعاء أبى عبيدة من البصرة بحجة أن الأصمعى يكرر نفسه وانه يتوسل للبقاء فى القصر باهداء كتبه للبرامكة على رغم سوء نظرتهم اليه .

ولكن الرشيد لم يكن يريد أى تغيير فى بلاطه ، وسافر الى الرقة مصطحبا الأصمعى وسائر حاشيته من العلماء والشعراء ، وفى الطريق يسأل الخليفة :

— هل حملت شيئا من كتبك يا أصمعى ؟

أجاب :

— نعم .. حملت منها ما خف حمله !

فعاد الرشيد يسأل :

— كم حملت ؟

فأجاب :

— ثمانية عشر صندوقا .

فصاح الخليفة دهشا :

— هذا لما خففت فلو ثقلت كم كنت تحمل .

ومن الرقة انحدر الى الحجاز فحج بيت الله ليخطف الموت مروان بن أبى حفصة .. وكان الأصمعى يؤثره ويكاد يفضله على أبى العتاهية مع أن هذا — برغم شعوبيته — يصرح بولائه المطلق للسياسة العربية التى ينتهجها الفضل بن الربيع .

* * *

هذا بلاء الأصمعي عن قومه فى هذه العواصف الهوج ، وليس يضيره أنه لم يكشف عن تدبيره لأحد سوى ابن الربيع ، فلكل مذهبه فى التفكير . ولعله كان يرى أن ينتصف قومه من البرامكة عن طريق الايماء والثلب ، فذهب ينفخ فى سمع الرشيد هونا ويحيط صنيعه بسياج أقيم على أن الحذر مع الأغراب أولى من الشك فى الأعراب .. فالله هو الذى جعل الجنسين كلا الى سبيل ، ولن يلتقيا الا على حرب تدمر أو أحقاد تشمر !

ومن وراء أولاء وهؤلاء أعداء الثغور البيزنطيون .. يقضون المضاجع ويحملون الفوادح ، فيكتب العرب صفحات تهز الأصمعى فيدون ولا يمنعه من التدوين الا ما يقع عادة بينه وبين اسحاق ، وفى أحد الأيام يذهب الى ابن الربيع بقصره ويقول :

— يطمعنى فضلك أن أطلب اليك التوسط لدى جعفر ليكف عنى ، فانى لو كنت قادرا لكذبت كما يكذب هو على .

وكان الفضل بن الربيع يعلم تماما أن صديقه من الذين يكرهون أن يورطوا أنفسهم بكذب ما .. بل هو يتعفف الى حد أنه يأبى أن يروى شعرا فى هجاء أحد ، ويتمشى هذا مع منهجه

العلمى المتزمت ، فلا يروى ما يشك فيه ويحاول أن يختار الصحيح من الحديث الشريف ثم يتوقى تفسير القرآن الكريم .

كان ابن الربيع يعلم ذلك ، ويعلم أيضا أن قوة ما لاتستطيع أن تدفعه الى أن يزور أو ينحل أو يفتئت ، ولهذا آثر أن يوغر صدره على جعفر نفسه — وقد شهد كيف كان الأصمعى يضيق بمسلكه — ليستفزه ويبعث فيه ما هو خامد ، فقال له :

— يا أبا سعيد .. والله ما أدرى ما يحرك البرمكى عليك الا أن يكون ذلك حسدا منه على ظفرك بقلب أمير المؤمنين ، وقد أجمع على أن يقصيك .. وما تتبع اسحاق الموصلى لك الا من توجيهه هو وتدبيره ، غير أن المهم هو أن أم جعفر تجمجم ضده وترى ان استبداده بالخليفة يقصى الأمين عن الموضع الذى وضعناه فيـه .

قال الأصمعى :

— هذا الشيطان الذى أهديت له « النوادر » والذى دفعت الى أن أمدحه ...

وسكت يفكر ، وابن الربيع كان يفكر أيضا ، وعن له أن يردد أمامه الأبيات التى لهج فيها بذكر جعفر .

اذا قيل من للندى والعلى   من النـاس قيل الفتى جعفر

ثم راح يتصور هذا البرمكى الخبيث وهو يخلو بالرشيد فيرسم الصورة قاسية أمام الأصمعى ، بل يبعد فينقل له كلاما والكلام مؤذ .. خطير .. يسىء الى أم جعفر والى ولدها ، ويشيد بمراجل وبذكاء ابنها عبد الله ، ويؤذن بتحول الرشيد عن الأمين

ينتزع منه البيعة انتزاعا ، فيضمحل النفوذ العربى الذى يمثل تيار الحفاظ على المجد المؤثل .

— هذا الشيطان الذى .. الذى .. دعنا منه فوالله لا أسكت عنه وسأكشف عن تدبيره لأمير المؤمنين ، ولكن ألا ترى أنه يفرط فى سبى لو علم بتدبيرى عليه ؟ يالله .. ما هذه الحيرة التى تنتابنى كلما هممت بشىء أحفظ فيه حياتى ؟

قال الفضل بن الربيع :

— الأرض ممهدة أمامك يا أصمعى وأم جعفر التى طار طائرها تمد لك يدها وستجد من الخليفة أذنا تسمع ، فقل له كل شىء .. صارحه بأنه فقد سلطانه وأفقر بنى هاشم وأذل العرب ! قل له ان قصور البرامكة مفتوحة للخلعاء والماجنين .. تراق الخمور فيها حتى الصباح ، ويحكون الحكايات عن مزدك ومانى، ويتندرون علينا ، وينشد فيهم أبو نواس وابن مناذر والحسين بن الضحاك الخليع الباهلى .. الباهلى يا أصمعى ، ألا تسمع ؟

ولم يطق الأصمعى أكثر من هذا ، فهرول الى داره كالمحموم ثم خرج الى الجامع ولسانه يدور بأبيات يقول فيها :

اذا ذكر الشرك فى مجلس ‏ ‏ أضاءت وجوه بنى برمك

وان تليت عندهم آية ‏ ‏ أتوا بالأحاديث عن مزدك

وتكلم كثيرا مع خلصائه ، فلم يكن الا يوم واحد بعد ذلك حتى دعى الى قصر الخلد فظن أنه مأخوذ ولكن الرسول طمأنه .. فالخليفة يريد أن يسمر بعد أن فض مجلس النظر ، فلما وصل

راعه أن يجده قلقا يقعد مرة ويضطجع أخـرى وتدمع عيناه ، وما وقع بصره عليه حتى قال له برقة :

— اجلس !

فجلس الأصمعى وهو لا ينبس ولكنه ينتظر الاذن بالكلام فلما قال له الرشيد :

— أرأيتنى أبكى ؟

قال :

— نعـم !

فقال الرشيد :

— أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا .

ثم دفع اليه بورقة كانت فى يده وهو يقول ويكاد ينشج :

— اقرأ !

فاذا فى الورقة شعر لأبى العتاهية .. شعر حزين يهدد بالموت ويسأل عن الملوك الذين ذهبوا ، واذا هو يقول :

— يا أصمعى كأنى والله أخاطب بهذا الشعر دون الناس ولكن ..

وصمت فجأة وقد راحت دموعه تتساقط فتغنى عن كل كلام ، فلما ملك أيده أنشأ يقول بصوت رهيب :

قلد أمـور عباد الله ذا ثقـة   موحد الرأى لا نكسا ولا برما

وأدرك الأصمعى على الفور ماذا يريد بقوله هذا .. ماذا يعنى ، فلم يكن عبد الله ابنه الأكبر الا ذا الثقة وموحد الرأى ؛ فقد كان الأمين على عكسه ضعيفا هينا ، يصدر عن ولع بالمجون

ويتصرف بنزق بحيث يبدو كما لو أن الفضل البرمكى يغريه بذلك اغراء .

وكان العام ١٨٢ هـ .. وقد كبر الأخوان ، وصار من الضرورى أن يفصل أبوهما ليقرر من منهما أحق بالبيعة . ولما حاول الأصمعى أن يقول شيئا يؤخر به ما يعتزمه ارتج عليه ، ثم ضاعت الفرصة نهائيا حين جيء بيحيى بن خالد وخاض مع الخليفة فى حديث ولاية العهد ، وحينما سأله الرشيد بقوله :

— من ترى من الأخوين أحق بالبيعة ؟

تطلع الى الأصمعى ثم قال :

— أأشير عليك يا أمير المؤمنين وهذا جالس ؟

وثار الأصمعى ولكنه لم يملك الا أن يتأهب للخروج فيشير اليه الرشيد بأن يكتفى بالتنحى ، فيدلف من باب قريب ينتظر وليس بينه وبين الرجلين الا ستار يُسمِع القليل ولا يُرِى الملامح. وقد سمع هو بعض المناجاة حتى مضى الليل واذا الأمور تتضح ، ثم يخرج على الصباح الى دار الفضل بن الربيع ليقول له فى جزع:

— لقد انتهى الأمر وغدا أو بعد غد يبايع لابن مراجل !

١١

الحصـــــاد

وبويع لعبد الله بعد الأمين ولقب بالمأمــون ، وولاه أبوه خراسان . ولما سلمه الى جعفر البرمكى انتقل به من رحبة الخلد الى قصره الخاص ليبعد به عن بطش زبيدة ، فقد بلغه ثورتها عليه وعلى أبيه وسائر اخوته ، وسمعها تصيح فى الرشيد ذات يوم :

— أنت غريق فى بحر عميق من مودتهم !

ومنذ ذلك الحين وقصر الخلد يضطرب بالشائعات ، وتحاك فيه المؤامرات . وأعلن الأصمعى عداءه الضارى لآل برمك دون تردد فاتهموه بالغدر والجحود ، ولما سمع أمير المؤمنين يقول عن عبد الله المأمون :

— والله ان فيه حزم المنصور ونسك المهدى وعزة نفس الهــادى .

قال :

— ووالله انه ليثيرها حربا تعينه عليها الحمراء وما أراه يفى لأخيه الأمين !

واختلف العلماء كما لم يختلف أحد .. فاليزيدى وأبو عبيدة وابن الأعرابى والفراء وسيبويه مع المأمون ، والكسائى يقف

موقف الأصمعى باعتباره مؤدب الأمين ، وأبو محرز خلف الأحمر ويونس بن حبيب وأبو زيد سعيد الأنصارى والجهضمى والنضر ابن شميل ومؤرج السدوسى لا يجادلون فى مسألة البيعة الا من حيث تكون المصلحة . ثم لا يلبث أن ينعى خلف ويعقبه يونس بن حبيب ثم بعض الأعراب الذين كانوا يلمون بقصر الخلد ، فتضعف الجبهة العربية ولا تجدى المحاولات التى يبذلها كل من الفضل بن الربيع وزبيدة وجعفر بن موسى لأنقاذ ما يمكن انقاذه .

ومما زاد الأمر سوءا أيثار الأمين للشاعر أبى نواس يجمعهما الشباب وحب المجون ، فى حين عجز بوق زبيدة — وهو أبو العتاهية — عن تقوية الحزب العربى .

والرشيد يمضى فى سياسته لا يبالى بشىء ، حتى لقد ظهر أنه استراح نهائيا من المشكلة بعد أن نصب ابن مراجل وليا لعهد الأمين ثم ولى ابنه القاسم ولى عهد للمأمون ولقبه المؤتمر ، ولم يخص أحدا من المتعاركين بمودة لتعصب ما وانما لحب مبرأ من الهوى . فقد كان أبا قبل كل شىء ويريد الخير لولديه جميعا ، وقد رأى الخير فيما أقدم عليه !

أما مجالس السرور ومجالس السمر فقد كانت مليئة أبدا ، والخزائن مفتوحة للمجتهدين . بل لقد شغل الخليفة بالعلم والشعر حتى لم يعد يشعر أنه واقع بين شقى رحى ، وعبثا حاول الأصمعى أن ينبهه ، ثم أسقط فى يده حينما رأى أنه يشهد مجالس السرور طوال أيام الشتاء وهو فى ثوب واحد مع جعفر البرمكى.

وخيل للأصمعى لأول مرة فى حياته أنه أصبح أعجز من أن

يقدم شيئا ، بل لعله أحس لأول مرة أيضا أنه شاخ وان يكن لا يزال فتى الروح عامر القلب بالأمل . وقد سأله الرشيد ذات يوم أن يحدثه حديثا يفرحه فشعر بأنه لا يقدر على شيء ، فقال كمن يراوغ :

— بل أحدثك يا أمير المؤمنين حديث العجز .

فتساءل الرشيد :

— وما هو لعمرك ؟

فانطلق يقول :

— بلغنى عن بعض العرب فصاحة ، فأتيته فوجدته يخضب فقال « يابن أخى ما الذى أقصدك الىّ ؟ » قلت « الاستئناس بك والاستماع من حديثك » قال « يابن أخى قصدتنى وأنا أخضب والخضاب من مقدمات الضعف ، ولطالما فزعت الوحوش ، وقدت الجيوش ، ورويت السيف ، وقريت الضيف ، وحميت الجار ، وأبيت العار ، وشربت الراح ، وجالست الملاح ، وعاديت القروم وعلوت الخصوم ، واليوم — يابن أخى — الكبر وضعف البصر تركانى من بعد الصفو والكدر كحال القائل :

شيبُ نعاله كيما نُسَرَّ به
كهيئة الثوب مَطْوِيًّا على خِرَق

فكنتُ كالغصن يرتاح الفؤادُ به
فَصِرْتُ عوداً بلا ماء ولا ورق

صبراً على الدهر إن الدهر ذو غِيَرٍ
وأهلُه منه بين الصفو والرَّنق

فأطرق الرشيد مليا ثم مد يده تحت الوسادة وأخرج بدرة وهو يقول :

— يا أصمعى ان حدثتنى ثانية بحديث فى العجز فأضحكتنى وهبتك هذه البدرة !

وأدرك الأصمعى على الفور أن الرشيد يحاول اغراءه فى الوقت الذى يحتاج فيه فعلا الى مثل هذه البدرة ، فتفكر قليلا ثم قال :

— نعم يا أمير المؤمنين .. بينا أنا فى صحارى العرب فى يوم شديد البرد والريح اذا أنا بأعرابى قاعد الى أجمة قد احتملت الريح كساءه فألقته على الأجمة وهو عريان فقلت له « يا اعرابى ما أجلسك ها هنا على هذه الحال ؟ » فقال : « جارية واعدتها يقال لها سلمى أنا منتظر لها » فقلت له : « فهل قلت فى سلمى شيئا ؟ » قال : « نعم » . قلت له : « أسمعنى لله أبوك ! » قال : « لا أسمعك حتى تأخذ كسائى وتلقيه علىّ » . فأخذت الكساء وألقيته عليه فأنشأ يقول :

لعل الله أن يأتى بسلمى ‌ ‌ ‌ فيبطحها ويلقينى عليها
ويأتى بعد ذاك سحاب مزن ‌ ‌ ‌ يطهرنا ولا نسعى اليها

واستضحك الرشيد حتى استلقى على ظهره كعادته دائما كلما استخفه الطرب وقال :

— خذ البدرة لا بورك لك فيها !

على أن سرور الخليفة لم يعد يرضيه كما كان يحدث من قبل ،

وزاد الطين بلة تحدى بعض تلاميذه له كالجرمى متابعة لاسحاق الموصلى ، وقد سأله الجرمى ذات يوم مختبرا اياه :

— كيف تصغر مختار ؟

فأجاب الأصمعى وهو معلمه فى اللغة :

— مخيتير !

فصاح الجرمى :

— أخطأت ، انما هو مخيتار .

ولم يملك الأصمعى الا أن يقرّ بخطئه ، غير أنه أراد فى المجلس نفسه أن يقتص لنفسه فسأل :

— اذن قل لى كيف تنشد هذا البيت :

قد كن يخبأن الوجوه تسترا فالآن حين بدون للنظار

أو بدأن .. ؟

فقال الجرمى :

— بدأن .

— أخطأت ، انما هو بدون أى ظهرن .

وأما الموصلى فقد بلغ من تحايله عليه والعبث به أنه أنشده يوما أبياتا جاء فيها :

هل الى أن تنام عينى سبيل ان عهدى بالنوم عهد طويل

غاب عنى من لا أسمى فعينى كل يوم وجدا عليه تسيل

ان ما قلّ منك يكثر عندى وكثير ممن تحب قليل

والحق أن الأصمعى أعجب بهذه الأبيات اعجابا بالغا فسأل :

— من صاحبها جعلت فداك ؟

فأجاب ببساطة :

— هى لأحد الأعراب .

فانطلق الأصمعى يرددها حتى حفظها ، وهنا قال اسحاق :

— أقول الحق انها بنت ليلتها .

فاستشعر الأصمعى حرجا غير أنه قال :

— لا جرم فان أثر التوليد فيها بيّن .

فانفجر اسحاق صائحا :

— ولا جرم فان أثر الحسد فيك ظاهر !

وتركه ليجتمعا عند الفضل بن الربيع على توزع وبلبلة وسوء ظن ، ولكن الأصمعى الذى كان قد تأهب ليثأر منه يجد المصادفة وحدها تدبر له ما يريد ، فقد كان اسحاق ينشد ابن الربيع أبياتا فى وصف الفرس أخذها فى ساعات الصفاء من الأصمعى ، فلما انتهى قال له الأصمعى :

— هات بقيتها .

فاضطرب الموصلى وسأل دهشا :

— أولها بقية ؟

أجاب الأصمعى :

— أجل لها بقية .

قال اسحاق وقد تألقت حبات العرق على جبينه :

— ولكن ألم تقل انه لم يبق شىء منها ؟

فصاح الأصمعى :

— بل بقى منها عيونها .

ثم انطلق بصوته العذب ينشد بعد اسحاق ثلاثين بيتا كأنما كان يكتمها عنه لمثل هذا اليوم .

وهكذا ، أو على هذا راحت الأيام تمر بين حلو ومرّ ، وان كان مرها مما لا يحتمل . ولكنه — وقد قرر أن يخوض معركة الحمراء الى النهاية — أبى أن يعود الى البصرة مع أنه نصح بذلك مرة وهدد مرارا ؛ فلقد أجاد الكر والفر ، وحذق أساليب التدبير ، فلم يكن بد من أن يبقى ليظل مرتقبا عن كثب ما يأتى به الغد .

١٢

بداية النهاية

سافر الرشيد الى الرقة للاستجمام واصطحب معه الأصمعى ، وكان العام عام قحط وجفاف . فلم يكد الليل يقبل حتى أمطرت السماء فاستبشر الجميع وفرح الخليفة نفسه وقال لسميره :

— أعندك شىء بمناسبة نزول المطر يا أصمعى ؟

فقال الأصمعى يجيب :

— عندى ما أقوله ولكننى أخشى أن يسمعه جعفر بن يحيى .

فضحك الخليفة لأنه كان يعلم ما بين البرامكة كلهم وبين الأصمعى ، ولكنه كان يرى أنهم جميعا كل الى هدف خاص فلا يحق لهم أن يحجبوا عنه ما يسره ؛ فعلى الواحد منهم حين يكون فى مجلس أمير المؤمنين أن ينسى حزازاته ويفعل ما يؤمر به ، ولهذا عجب أن يظهر الأصمعى هذا الخوف وهو فى حضرته فعتب عليه وصاح :

— هات ما عندك .

فصاح الأصمعى :

— انه مع ذلك حديث أعرابى ، وأنا أنقله ؛ فقد حدثنى قال :

أصابتنا سنة مجدبة وعندنا رجل غنى وله كلب ، فجعل الكلب يعوى جوعا فأنشد صاحبه يقول :

تشكّى إلى الكلبُ شدةَ جوعه وبى مثلُ ما بالكلب أو بىَ أكثر
فقلت لعل الله يأتى بِغَيْثه فيُضْحِى كلانا قاعداً يتأمّر
كأنى أميرُ المؤمنين من الغِنَى وأنتَ من النُّعْمَى كأنك جعفر

فأغرق الرشيد فى الضحك وقال :

— قاتله الله من أعرابى .

قال الأصمعى :

— لوى عنه عذاره !

فدهش الخليفة وبدا عليه أنه لم يفهم ما يرمى اليه الأصمعى ، فأهنف ببطء ثم قال :

— الآن يحق لك تعليمى فما معنى ما تقول ؟

أجاب الأصمعى :

— أعنى أن الأعرابى عصا أبا الفضل جعفر فلم يطعه ورماك رحمت أمير المؤمنين بما لا يرمى به الا المتهم ، ومن استرعى الذئب فقد ظلم !

فصرخ الرشيد قائلا :

— هو مثل آخر يا أصمعى ؟

قال الأصمعى :

— والثالث أن البغاث بأرضنا يستنسر ، وأقولها يا أمير المؤمنين مرة أخيرة أحق الناس بالتدبير العقلاء الأبرار ومن لا يحمل

الأمانة قادرا عليها فاستصلح بما أوتى من ذلك ما استطاع من أمر الرعية حق عزله .

فتساءل الرشيد قائلا :

— أنت تعنيهم يا عبد الملك .

قال الأصمعى :

— أنا أعنى أن فيهم شرا الى جانب ما يكشفون عنه من فضل ، ولكن أبا الفضل وأخاه الفضل لا أراهما الا كمبتغى الصيد فى عرّيسة الأسد .

فقال الرشيد :

— عدنا الى الأمثال يا أصمعى : مرة هم البغاث ، ومرة فيهم الحمق حتى يطرقوا حمى الليث ، فوالله ما أدرى الى أين تسير بى وقد سددت علىّ المسالك ؟

قال الأصمعى :

— اسمع هذه النادرة أولا يا أمير المؤمنين . كان ثمة أعرابى طويل قبيح خطب امرأة فقيل له « أى ضرب تريدها ؟ » قال « أريدها قصيرة جميلة فيأتى ولدنا فى جمالها وطولى » فتزوج امرأة على تلك الصفة ، فجاء ولدها فى قصرها وفى قبحه !

فهز الخليفة رأسه وهمس :

— الآن فهمت .

قال الأصمعى :

— أنت والله يا أمير المؤمنين كمن يدبر تدبير الأعرابى وقد حسبت فيك قصورا فتركت لهم يصنعون الكمال ، ولو أنصفت

يا أمير المؤمنين استبدلت عزمك بعزمهم فترى أن ما كان لك أتاك وما كان عليك لا يدفعونه عنك .

فاستضحك الرشيد وقال :

— أنت تكرههم يا عبد الملك ؟

فقال :

— والله لا أكره الا ما أراه فيهم مِنْ صَبَاً .

فصرخ الرشيد :

— أتكفرهم يا رجل ؟

قال الأصمعى :

— لا والله ، ولكنى أنقل لك ما أسمع . فان سألتنى عن تجربتى أنا معهم قلت فيهم الباغى اذا فعل والعياب اذا سمع ، ثم اننى رأيت واعظهم غير محقق لما يرويه ، بل قد يسوق ما يبعث فى النفس شكا . انهم يا أمير المؤمنين مولعون بالتكاثر !

وكعادة الرشيد دائما كلما حزبه أمر أطرق ، ومن حيث انتهى الأصمعى أخذ يفكر وان كادت سوابق الأيام لتميل به الى غير ما ينبغى أن يفكر فيه . فالأمور تنعقد والأحداث تتوالى ، وعرف هو ميول قصره وفيه زبيدة وأخوها والفضل بن الربيع وهذا العالم البصرى الذى لا يملك فكاكا مما شد نفسه اليه ليظل على الولاء الأصيل . ولكن الحقيقة أنه هو مسلوب واستنسر البغثان فى أرضه ، فكم تكون الكارثة لو صحا يوما فرأى نفسه على غير ما يجب أن يكون !

ان العجب آفة الانسان ، وقد ملىء البرامكة عجبا .. يتيهون

على الخلق ويعطونهم على أساس أنهم أصحاب الأمر ، ولعلهم اذا هموا ظنوا أنهم الغالبون ولا يستطيع أحد صدهم . فالى أين يسيرون ؟

* * *

وقرر فى عام ١٨٦ أن يحج وقد اعتزم أمرا ، فخرج الى الأنبار ومنها الى المدينة فأعطى عطاء باسمه ، وقدم كل من الأمين والمأمون عطاء . ثم سار الى مكة وأعطى أهلها ، فكان مجموع ما أنفقه ألف ألف دينار وخمسين ألفا .

والحق أن وصول الرشيد الى مكة قد دبر على نحو ضمن اجتماع كل الفقهاء والعلماء والقواد والقضاة . وشهد الأصمعى الخليفة وهو يكتب كتابا أشهد فيه على الأمين وطالبه بالوفاء لأخيه الكبير ، وكتب كتابا آخر أشهد فيه على المأمون وطالبه بالوفاء لأخيه الأمين . وعلق الكتابين فى الكعبة ، وأشهد الناس على ذلك كله ، ولما انتهت مراسيم الاشهاد وانصرف الى شئونه قال الناس بعضهم لبعض :

— قد ألقى بينهما شرا وحربا !

١٣

ثورة الرشيد

تطورت الأمور بسرعة مذهلة ، فقد بعث الفضل بن الربيع للأصمعى ، فاذا عنده اسماعيل بن صبيح . وقدم له ابن الربيع كتابا قديما بخاتم جعفر بن يحيى الى أخيه موسى البرمكى يأمره فيه بالتوجه الى الحجاز لاصطحاب يحيى العلوى الى خراسان والدعوة له فيها .

— ولماذا هو معك وكان المفروض أن يكون عند موسى البرمكى ؟

لقد كان هــذا أول ما تبادر الى ذهن الأصمعى ، فلما سمع اسماعيل بن صبيح ذلك قال يجيبه :

— يا أبا سعيد ، لقد تطورت مسألة العلوى بسرعة لم يستطع فيها أحد من البرامكة ان يسبق الأحداث ، ومن ثم عدل جعفر وأمرنى باعدام الكتاب فنسيته فى مكتبتى ، على أنى أقول صادقا ان الفضل كان لايرى رأى جعفر على الاطلاق !

قال الفضل بن الربيع :

— لا يعنينا ما يراه الفضــل أو أخوه أو أبوهما فالخيانة مبيتة ، ولولا رحمة الله لكنا هلكنا من سنين . والعجيب بعد هذا

أن على بن عيسى بن ماهان اتهم موسى هذا اتهامات لم تبقه فى السجن طويلا ، ألا كم كنا غافلين ! ان ابن ماهان الذى ظلم الخراسانيين وعسر عليهم وأخذ أموالهم أكثر أمانة عندنا من هؤلاء الذين يدعون الرفق ويدعون الى السماحة والدعة .

وفى هذه اللحظة الخطيرة يدخل السندى بن شاهك — صاحب الشرطة — ويسر لابن الربيع بشىء ثم يخرج متعجلا ، ويلحظ الأصمعى أن عينى ابن الربيع تأتلقان جزلا ثم يسمعه يقول :

— ألا تدريان ؟ ان أمير المؤمنين يطلب الى ابن شاهك أن يتأهب للقبض على البرامكة وحجز أموالهم ، وستعجل هذه الرسالة بالأمر فينتهى كل شىء ، ترى ماذا حدث ونحن فى غفلة ؟

وخرج اسماعيل بن صبيح فى زى ليث الأسدى وهو يحجل ، وتبعه الأصمعى على أن يذهب ابن الربيع مساء الى القصر بعد أن يتخذ عدة تدبيرات معينة . ولكن الأصمعى لا يكاد يستقر فى داره حتى يأتيه رسول من قبل الخليفة ، فيسرع الى قصر الأنبار — خارج بغداد — ليرى ثمة حركة غير عادية ، وكان جبرائيل بن بختيشوع — الطبيب الخاص — فى مخدع الخليفة . ولم يكد يستقر المجلس بالأصمعى حتى فتح الباب عن يحيى البرمكى يدخل فى وقار ويسلم ، فيتطلع اليه الخليفة ببرود ثم يرد ردا ضعيفا ، ويعود فيقبل على جبرائيل يسأله فى صوت كظيم :

— أيدخل عليك منزلك أحد بغير اذن ؟

قال جبرائيل :

— لا !

فقال الرشيد :
ـ فما بالنا يُدْخَلُ علينا بغير اذن ؟
وأحس يحيى الذى اتخذه الخليفة أبا أنه مقصود بهـــذا التعريض ، فقال برفق :
ـــ يا أمير المؤمنين ما ابتدأت ذلك الساعة ولكن أمير المؤمنين خصنى به حتى أن كنت لأدخل وهو فى فراشه مجردا حينا وحينا فى بعض ازاره ، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ، فاذا قد علمت فانى سأكون عنده فى الطبقة التى يجعلنى فيها .
واستحيا الرشيد وأطرق على حين استشعر الأصمعى رثاء نحو الرجل المسن . فهو فيما يبدو أكثر اخلاصا من ولديه وأعظم وفاء ، ولكنه فيما يدبر أمير المؤمنين مأخوذ بجريرتهما ، على أنه لم يكن الا ريثما التقط الرشيد أنفاسه ليرتفع صوته مرددا :
ـــ ما أردت ما تكره ، ولكن ....
وسكت دفعة واحدة فقال البرمكى :
ـــ ماذا يا أمير المؤمنين ؟
فصرخ الرشيد :
ـــ لقد ورد من فارس ستة آلاف ألف درهم فطلبت منها ألف ألف فكرهته على يا أبت ، واليوم أطلب من جعفر عشرة آلاف درهم فيقول لا توجد عندى دراهم ، فما معنى هذا ؟
وسكت قليلا ليسترد أنفاسه ثم استطرد صارخا :
ـــ يا مسرور ، ماذا رأيت فى دفاتر الديوان ؟ قل له : انهم نهبوا مالى وذهبوا بخزائنى .. أرأيت ؟

ولم يتحمل يحيى الموقف فقد كان عليه عصيبا ، واعتــذر بشيخوخته وانسحب ولكن الرشيد لم ينقطع عن صياحه ومضى يقول :

— أغنيناهم وأفقروا أولادنا ، وليس لأحد من أولادنا ضيعة من ضياعهم . قل لجعفر هذا يا جبرائيل !

وخرج ابن بختيشوع ، وقد أراد الأصمعى أن يتبعه الا أن الخليفة أمسك به وهو يقول :

— تريث يا أصمعى فأنا حزين فى هذا اليوم ، فهل قرأت علىّ من شعر العتاهى أو استدعيته لينشدنا ما نعتبر به .

قال الأصمعى :

— بل أقرأ عليك ما لا يزهدك فى الحياة وان يكن حزينـا كنفسك الحزينة يا أمير المؤمنين .

فقال الرشيد :

— وما هو يا أصمعى ؟

فانطلق يقول :

— دخلت بعض مقابر الأعراب ومعى صاحب لى ، فاذا جارية على قبر كأنها تمثال وعليها من الحلى والحلل ما لم أر مثله وهى تبكى بعين غزيرة وصــوت شجى ، فالتفت الىّ صاحبى فقلت « هل رأيت أعجب من هذه ؟ » قال « لا والله ولا أحسبنى أراه ». ثم قلت لها : « يا هذه انى أراك حزينة وما عليك زى الحزن » ، فأنشأت تقول :

فان تسألانى فيم حـزنى فاننى
رهينةُ هذا القبر يا فَتَيان
وإنى لأستَحْيِيهِ والتُّرْبُ بيننا
كما كنتُ أستحييه حين يرانى
أهابك إجلالا وإن كنتَ فى الثرى
مخافةَ يوم أن يسوك لسانى

ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول :

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بى
بالا ويكثر فى الدنيـــا مواساتى
قد زرت قبرك فى حَلْى وفى حُلَل
كأننى لست من أهــل المصيبات
أردت آتيــك فيما كنت أعــرفه
إن قد تُسَرّ به من بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عَبْرَى مولَّهَةً
عجيبةَ الزىِّ تبكى بين أموات

واتبه الأصمعى فاذا عينا الرشيد تذران الدمع واذا لحيته الكثة مخضلة وهو ينشج ثم يقول :

— والله لقد شغلتنى بمصابها عن مصابنا فلك منى الجزاء !

١٤

النكبة

وفى الصباح صدرت أوامر — لم تنفذ — بالعودة الى قصر الخلد ، وسمع الأصمعى من ابن الربيع أن الرشيد يبيت أمرا بعد اطلاعه على كتاب جعفر البرمكى . بدليل أنه أمر ابن شاهك بمراقبة الرصافة للقبض على دور البرامكة حالما تصدر أوامره فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار .

ومضى النهار دون وقوع ما يريب ، ولكن الليل لم يكن فى هذا اليوم بالذى يغرى الأصمعى بنوم هنىء . فقد راح يتقلب في مضجعه ما تقلب ، ثم أغمض عينيه على هاجسة فزعت رؤياه ؛ فكان ينتفض لأقل ركز ، وتخيفه الحركة العارضة . ثم لم يدر أطال الوقت أم قصر وهو يقظان نائم ، ولكنه يتنبه بغتة على صوت فاذا عيناه شاخصتان وقلبه واجف .

أكان هناك أمر ما ؟

أكان ثمة ما يخشاه ، ففيم القلق ؟

هذا صرير باب ، وهذا صوت جاريته العجوز ، وصوت آخر غليظ ينصت له الأصمعى ، ثم ينهض لا يكاد يمس الأرض بقدميه ويندفع الى الخارج فيعلم أن الرشيد يوجه اليه هذا الرسول الماثل

أمامه . ولقد هم أن يرتاب ، والساعة ساعة يرتاب فيها البرىء ، ولكن الرسول يقول بهدوء :

— أمير المؤمنين يطلبك للمسامرة فعجل له .

ويثوب الى وعيه هونا ما ، ثم يلتف بعباءته وينتعل نعليه ويسعى الى برذونه وقد قصد أن يلقى النجح ويظفر بالرضى . وكل شىء هادىء ، والظلام لا ينفرج عن بصيص ، وبغداد العظيمة راقدة !

ويصل الى الأنبار ثم يخب ببرذونه تجاه القصر الذى كان على الرشيد أن يبرحه أمس ، ويلبث قليلا على الباب الضخم ريثما يفتح الحارس له ، فما تبين طلعته حتى صاح به :

— عجل يا أبا سعيد فقد انصرف مسرور منذ ساعة !

ولم يفهم شيئا ، ولكنه تبين فى لهجة الحارس شيئا فاضطرب ، ووجد نفسه فجأة يحاول عبثا أن يذكر ذنبا ما ، وجعل يظن الظنون وقد تصور أن تدبيرا كشف عن رأسه القبيح فاذا هو نفسه مقتول ، فلما دفع الى باب الخليفة وفتح له وجده يتكىء على وسادة حمراء وهو مطرق وعيناه مخضلتان .

حدّق فيه وأطال ، ورفع الرشيد رأسه ليأمره بالجلوس ثم يعود الى اطراقته يطبق جفنيه علي دمعتين من دموعه ، وكأنما يجهد فى أن يحبسهما فلا يرى الأصمعى ضعفه ، ثم استوى على قدميه وهو يهتف :

— يا عبد الملك !

وأخذ الأصمعى وارتجف ، ثم اشرأبّ اليه بعنقه وهو يرجو

أن تخسف به الأرض قبل أن يلفظ حرفا واحدا فيطيح به ، وقال :

— لبيك يا أمير المؤمنين !

ويخفض رأسه فى غير اطمئنان والخوف يكاد يعصف به ويعصف بالأرض والجدران وهذه الطنافس وتلك الستر التى تتحرك كأنما وراءها من يرصده . وينظر ثم ينظر ، وعندما يطول الصمت يشعر كأنه يترنح ترنحَ المتثاقل العليل ، فيمدّ بصرا كليلا نحو الرشيد ، فيراه متألق العينين ثم يفتح فمه وينشد :

لو أن جعفر خاف أسباب الردى
لنجا بمهجته طِمِرٌ مُلْجَمُ
ولكانَ حَذَرَ المنون بحيث لا
يرجو اللحاقَ به العُقَابُ القشعمُ
لكنه لما تَقَارب يومه
لم يدفع الحدثانَ عنه منجِّمُ

وفى اللحظات التى كان يلقى فيها الكلمات الأخيرة من الأبيات أشار الى يساره فاذا شىء لم ينتبه اليه مغطى بمنديل . كأنه طست أو كأنه قدر من قدور البصرة الكبار ، وفهم أن أمير المؤمنين يطلب اليه رفع ذلك المنديل ، فتقدم ومدّ يده ثم ردها ، فقال الرشيد :

— اكشف عما فى الطست يا أصمعى .

ويمضى الرشيد يردّد عبارته تلك فى أسى يشوبه شىء من التهديد ، فينتزع الأصمعى المنديل ثم يصرخ وهو يرتد الى وراء. فقد رأى فى الطست رأس جعفر البرمكى !

— أرأيت هذا يا أصمعى ؟

سؤال شعر كأنه يأتيه من غور سحيق وصوت الخليفة يقطر به مرارة ، ويداه ترتفعان الى عينيه كأنه يريد أن يحجب عنه الرؤية القاتلة ، فيهز رأسه وهو لا يجد لسانا مطاوعا على الاجابة ، فيسمعه يقول ثانية بصوت رهيب :

— الحق بأهلك يا بن قريب .

فتقهقر الى الباب دون أن ينبس ، ولم يَنفرِخ رَوْعُه (١) الا وهو على الباب الخارجي فانفلت يعدو وقد نسى برذونه ، ولما تذكره وهو فى منتصف الطريق أبى أن يعود خشية أن يؤخذ . غير أنه راح يفكر بأناة فبدا له كأن الخليفة أراد باستدعائه أن يكشف عما كان من نتائج تعريضه هو بجعفر ودسه لأهله . ربما ، وربما أحب أن يروى للناس هذه الأبيات التى أنشدها له حتى يدرك من يدرك أنه لم يكن غافلا ، وانما كان ينتظر تقارب اليوم الرهيب !

وسرعان ما وجد نفسه ينظم أبياتا ، وهـو يسـأل عن بقية البرامكة ، وقد انتهى الى أن النكبة لابد أن تكون قد امتدت اليهم . أفلم يكونوا ضالعين مع جعفر ، أو كان هو ضالعا معهم ؟ الأمر على أية حال يهيج هائجه الشعر ، فليقل اذن :

أيها المغرور هَلْ لكْ   عبرة فى آن بَرْمَكْ
غرهم عق قدر اللـــه حساب الهَشْتَمَرّكْ

---

(١) أى لم يذهب عنه الرعب .

وعلى باب بغداد وكان الضحى قد ارتفع أحاط بما خفى عنه ، فقد كان الناس يرددون أن ابن شاهك أوقع بالبرامكة جميعا وساق الى الرشيد كلا من يحيى وابنه الفضل وهما مكبلان ، فدخل داره وهو لا يزال ينظم حتى انتهى بهذا البيت

عبرة لم ترضها أنـــــت ولا قبلُ أبٌ لكْ

* * *

فهل لحق الأصمعى بأهله ؟

لقد تردد ...

ثم قرر أن يبقى وقد ظن أنه ظافر بكل شىء ، وتصور أن وجه الرشيد قد خلص له بعد أن تولّى الفضل بن الربيع الوزارة . ولكن اسحاق يكيد له علنا ، ويحاول أن يفسد بينه وبين الخليفة ، ويذكر بأبى عبيدة من جديد !

بل يجرؤ فيضع مرتبته عند ابن الربيع نفســه ، ويغرى به ويصف بخله ، ثم ينشده أبياتا يقول فيها :

عليك أبا عبيــدة فاصطنعه فان العلم عند أبى عبيــدة
وآثره وقدمــه عليــه ودع عنك القُرَيْدَ ابن القريده

كان ذلك سنة ١٨٨ على وجه التحديد ، وقد وفد أبو عبيدة فعلا على بغــداد فى هذه الأثنــاء ورحب به الفضــل ، فرأى الأصمعى أن دوره فى دار السلام قد انتهى فشمر للرحيل وهو يغص ويكتم فى أعماقه اللواع .

الباب الثالث

العودة إلى البصرة

١

الرجــل الحزين

قال ثعلب « قدم الأصمعى بغداد وأقام فيها مدة ، ثم خرج منها يوم خرج وهو أعلم منه حيث قدم بأضعاف مضاعفة » .

تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٧

* * *

وقال « قيل للأصمعى : كيف حفظت ونسى أصحابك ؟ قال : درست وتركوا » .

المزهر ٢ : ٣٠٣

* * *

وقال التوزى « خرجت الى بغداد فحضرت حلقة الفراء فرآيته يحكى عن الأعراب ، ويحتشد بشواهد ما كان أصحابنا يحفلون ببعضها ، فلما أنس بى قال لى : ما فعل أبو زيد ؟ قلت : ملازم لبيته ومسجده وقد أسن ! فقال : ذاك أعلم الناس باللغة وأحفظهم لها ، ما فعل أبو عبيدة ؟ قلت : ملازم لبيته ومسجده على سوء خلقه ! فقال : أما انه أكمل القوم وأعلمهم بأيام العرب ومذاهبها ، ما فعل الأصمعى ؟ قلت : ملازم بيته ومسجده . قال : ذاك أعلمهم بالشعر وأتقنهم للغة وأحضرهم حفظا » .

وقال أبو الطيب اللغوى « ولم ير الناس أحضر جوابا وأتقن لما يحفظ من الأصمعى ، ولا أصدق لهجة منه » .

مراتب النحويين ٤٨

* * *

والحق أنه ظل حافظا ، ولم يؤثر تقدم سنه — وقد بلغ الخامسة والستين — فى ملكاتها فيضعفها ، الا أن يكون احساسه الدائم بالفتور نتيجة طبيعية لكل ما حدث . وكان البصريون الذين عرفهم قد تفرقوا أيدى سبأ ، باستثناء قلة ما فتئت تلاحقه بكيدها، وعلى الرأس أبو عبيدة وقد ضعف وشاخ . وحاول ابن أخيه عبد الله أن يتصدى له فكان ينهاه ، كما عاتب ابن اخته أحمد بن حاتم الباهلى لأنه تعرض له ببعض شرّ .

وقد كان البيت الذى استقرّ فيه قرب المسجد الجامع ، والذبول الذى يحط على حجراته ، وذلك الشيب الذى وخط شعره ، والحسرة التى تفزعه بمرارتها كلما عصفت به الذكرى .. كان ذلك كله منسجما أعجب الانسجام مع القتامة التى ترين على البصرة وكان عهده بها مشرقة غضة نابضة بالحياة !

وألقى بنفسه فى مهاوى الكآبة ، وراح يجتر خواطره ويألم لخوالجه ، وحدث تلاميذه كثيرا عن الأمل الذى يضيع . وحينما كان ينصرف الى البيت ، يأخذ نفسه بالكتابة يريد أن يتم ما فاته ؛ فسجل فى الشعر أمورا ، وأضاف الى نوادره نوادر ، ثم أخذ ينظر فى كتاب المفضل الضبى وهو يفكر فى خطة تصل المرء بما فيه .

وكان فى مروره بالمربد قد رأى أبا حاتم السجستانى فاستدناه،

واستروح هو دعوته .. وقد رأى الأصمعى فيه سندا ما أرادت الحمراء أن تدبر وتكيد ؛ فهو من جشم العربية ، وهو فى حال كحاله .. انقباضا وملالة من العيش ، وطاقة مغمورة وتريد أن تنبثق باللغة والأخبار والشعر ، فضلا عن أنه يتقن العروض الذى وضعه أستاذه الخليل .

وقد كان جلوس السجستانى الى حلقة الأصمعى اعلانا عن مكانة الرجل ، فتحلق حوله كثيرون منهم الرياشى والتوزى وأبو عبيد القاسم وعمر بن شبّةَ والجُمَحِى والترمذى . بل لقد عاد الجرمى فجلس اليه معتذرا فلقى منه ترحابا وكرما ، وأفرد القوم أماكن للشباب الطلعة فظهر شاب صغير عريض أسمر متورم الجفنين ، ولكنه كان جم الذكاء .. اسمه عمرو بن بحر ويطلقون عليه الجاحظ ، ولم يكن الأصمعى يهش له كثيرا لأنه كان معتزليا ، ويبدو أنه أحس ذلك تماما لأنه أخذ يتقول عليه ، ويوم شوهد الأصمعى يركب حمارا هزيلا أشاع عنه ما أشاع من أسباب البخل ، ولكن الأصمعى الذى كان يزهد فى متاع الدنيا لم يلتفت الى هرائه قط !

ولقد بدأت متاعب الأصمعى الحقيقية — منذ عاد الى البصرة — بعد قراءته كتاب أبى عبيدة « مجاز القرآن » وصادف أن كان أبو حاتم فى حلقته فسمعه يملى بيتا لأحد الهذليين وقع فى آخر قصيدته وهو :

حتى إذا أسلكوهم فى قُتَائدة
شلاّ كما تطردُ الجَمّالةُ الشُّرُدا(١)

ويقول أبو عبيدة فيه : هذا كلام لم يجىء له خبر ومثله قول الله عز وجل « ولو أن قرآنا سيّرت به الجبال أو قُطّعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا » . فجاء أبو حاتم الى الأصمعى وأخبره بذلك فاستشاط غضبا وقال :

— أخطأ ابن الحائك وانما الخبر فى قوله « شلا » كأنه قال « شلوهم شلا » ولكن اصبر .. فانى أظنه كما قال لأن أبا الجُودِى الراجز أنشدنى :

لو قَدْ حداهُنّ أبو الجُودى
بِرَجَزٍ مُسْحَنْفَرِ الروِى
مستوياتٍ كنوى البَرْنى (٢)

فهذا كلام لم يجىء له خبر ، ومع ذلك فلماذا يقحم القرآن وهو ليس بأهل له ؟ انه فى مجازه يفسر برأيه !

سمع أبو عبيدة بكل ذلك فركب حماره ومر بحلقة الأصمعى فى المربد — وقد تعود ذلك — فنزل عن حماره وسلم عليه ، ثم جلس يحادثه كأنما لم يأت من أجل شىء معين ، وفجأة صاح :

— يا أبا سعيد ما تقول فى الخبز ؟

---

(١) قتائدة : موضع ؛ الجمالة : أصحاب الجمال ؛ يقول حتى اذا أسلكوهم هذا الموضع شلّوهم شلا .

(٢) مسحنفر : ممتد ؛ البرنى : ضرب من التمر أصفر مدوّر واحدته برنية .

أجاب :

— هو الذى تخبزه وتأكله !

فقال أبو عبيدة :

— آه .. فسرت كتاب الله برأيك قال الله تعالى « انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا » .

قال الأصمعى :

— هذا شىء بان لى فقلته ولم أفسره برأيى .

فقال له أبو عبيدة :

— وهذا الذى تعيبه علينا كله شىء بان لنا فقلناه ولم نفسره برأينا .

ثم لم ينتظر أكثر من هذا ، وقام الى حماره فركبه ، فقال الأصـــمعى :

— ألم يبلغه ما قال الفراء بدار السلام ؟ قال لو حمل الىّ أبو عبيدة لضربته عشرين فى كتاب المجاز !

٢

شذرات في اللغة

قال المبرد « كان أبو زيد صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعى فى النحو ، وكان أبو عبيدة أعلم من أبى زيد والأصمعى بالأنساب والأيام والأخبار ، وكان للأصمعى يد غراء فى اللغة ، لا يعرف فيها مثله وفى كثرة الرواية » .

نزهة الألبا ١٥٢

* * *

لقد كان يحرص الحرص كله على أن تظل اللغة كما خلفها العرب الأولون كاملة قوية سليمة البنيان ، حقا كان لهؤلاء العرب كلام على معان — كما يقرر — فاذا ابتدلت تلك المعانى « لم يتكلم بذلك الكلام » الا أن هذا المتروك أو المبتدل يجب ألا يخل بالكيان العام . فهذا من صور التطور ، ولكن ينبغى ألا يجعله الحمراء وسيلة الى تدمير اللغة !

— هذا الدرس يجب أن نجعله أساسا للادراك الصحيح فاذا قلنا « ساق اليها صداقها » لا نصيب الا اذا كان الصداق ابلا وغنما ، وقد انقضى هذا . ولكن من له حق الحكم ؟ نحن لا نجوز

الا الأصح ولا يعرف الأصح الا ذوو البصر باللغة ، وهم هؤلاء الذين يخافون ويصدقون .

فقال واحد من تلاميذه :

— من تعنى على وجه التحديد ؟

وانفرجت شفاه عن ابتسام وضاقت شفاه بغضب ، ولكن الأصمعى مضى يقول وكأن أحدا لن يسأل :

— وأعنى الذين انتهى اليهم علم اللغة !

قال آخر :

— ولكنهم يختلفون .

وقال ثالث ، وكان أبا حاتم السجستانى :

— وفى هذا يتفاوت الثقات ، ألم تر أنهم يقولون فاظ الميت وفاظت نفسه وفاضت نفسه ؟

وهنا أشار الأصمعى الى تلميذه برفق وقال :

— أنا أقول فاظ الميت وفاضت نفسه .

قال السجستانى :

— وهم يقولون فى التهديد أبرق وأرعد .

فتبسم الأصمعى وقال :

— لست أقول ذلك الا أن أرى البرق وأسمع الرعد .

فقال أبو حاتم :

— لقد قال الكميت :

أبرق وأرعـــد يا يزيـــد فما وعيدك لى بضائر

قال الأصمعى :

— الكميت من أهل الموصل وليس بحجة ، ولكن الحجة من يقول :

اذا جاوزتْ من ذات عرق ثنيَّة

فقل لأبى قابوس ما شئت فارعد

وهو شاعر جاهلى وشاعرك هذا متأخر لا يؤخذ بقوله .

وقد كان أبو حاتم وهو يناقش أستاذه يريد أن يكشف عن كنوز ما فى حافظته ، فضلا عن أنه كان يرى أن التعصب له غناء للعرب أى غناء . فكلاهما مرصود مراقب ، وكلاهما يرجو أن يمنع فساد الموالى الذين يصدرون عن عزم أكيد على النيل من العرب عن طريق لغتهم .

وكان الأصمعى نفسه لا يريد أن يظهر متعنتا ولا متكبرا تياها ، بل كان يعترف بقصوره اذا اختبر وأرتج عليه . فقد سئل فى الحلقة نفسها وقد تشعب الكلام فيها عن « الحــبر » فقال ببساطة :

— لا أدرى أهو الحبر بكسر الحاء وفتحها للرجل العالم .

غير أنه لما عوتب على أنه يخطىء كبارا كبشار وذى الرمة وجرير قال :

— هؤلاء أعوزهم الغريب وأفسدهم التحضر ، فذو الرمة الذى ينشد مثلا :

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة

أراك لها فى البصرة اليــوم ثاويا

يخطىء كما تخطئون فهو ليس بحجة ، اذ طالما أكل المالح

والبقل فى حوانيت البقالين ، ألم يقرأ قوله تعالى « أمسك عليك زوجــك » .

وعندما ساد الصمت تقدم أبو حاتم يسأل :

— وماذا فى قول الشاعر القديم وكنت أجزته يا أبا سعيد :

فبكى بنــاتي شجوهن وزوجتي
والطامعون الىّ ثم تصـــــدعوا

قال الأصمعى :

— الأصح ما جاء فى كتاب الله وان كنت أجزت قول القديم فقد أخطأت وان يكن خطئى صوابا عند غيرى . هى الأيام تعلم وتهدى من أراد التعلم والهداية . لقد وضعت كثيرا من الكتب وأنا دون العشرين ووضعت كتبا بعد تحصيل طويل وأنا فوق الستين ، فليس يستوى ما وضعت والعمر ، لأن أفضل ما كان عند الرجل اذا احتنك .

ورن فى صوته ذلك الرنين الحبيب الذى لم يفارقه قــط ، واشتد تلاميذه دنوا منه مأخوذين ، على حين أخذ يستطرد قائلا :

— كنبت كتبا ربما كان الخير فى أن يطلع عليها المنصفون ، غير أنها لم تكن الا مستهل علم رجوت أن يكبر ويرسخ . وأمس فقط راجعت شيئا من هذه الكتب أو « كتاب النبات والشجر » فماذا رأيت فيه ؟ رأيت دأب الشباب وبهجته ، ولكنى لم أر عمق الشيخوخة وأناتها . لقد بدأته بقولى بعد الحمد رأيت أرض بنى فلان غب المطر واعدة حسنة اذا رجى خيرها وتمام نبتها فى أول ما يظهر النبت . وأنهيته بذكر الرّتَم والصاب..ذلك الشجر بالغور

الذى اذا قطع خرج منـــه لبن يحلب العين اذا أصـــابها ، وبين سقوط المطر وتحلب العين لا نرى الا الاسم بعد الاسم والشعر تمليه المناسبة !

وأخرج أوراقا ونشرها ثم راح يمرر عينيه عليها دون أن ينبس وتلاميذ صامتون ، والمكان كله هادىء الا من صوت شيوخ الحلقات الأخرى ترتفع هونا ما ، ومن بعيد ضـــحك عابث لمن يجلس فى الصحن من المسجديين .

— ويقال أخوص العرفج بُخْوِص اخواصا اذا اكتسى وتم توريقه ..

وتوقف مبتسما ثم استطرد :

— والعبهـــر وهو النرجس والسمســـق وهو المرزَنْجوس وبعضهم يسميه العبقر .

وتضاءل صوته حين راحت عيناه تمر على الصـــفحات فى تثاقل ، وهنا قال أبو حاتم السجستانى :

— ان لم يكن فيه الا جهد الجمع فذلك حسبك ، وحبذا لو آمليته علينا ثم آمليت غيره ما كان فى العمر بقية .

فأطرق الأصمعى مليا ثم قال :

— هيهات يا سجستانى ! أتظن فى العمر بقية ؟

٣

دنيا الشعر

ظل فى العمر بقية فشاهد أحداثا مع امتداد الزمن ، وعاج على الأمجاد يفى لها بوقفات مع عنترة الذى ذهب بعامة ذكر الحرب، ثم ربط بها انتصارات الرشيد فى مرويات كبار .

ولو شاء أن يسلك فى كتبه سبيل المؤرخين لسجل وفاة الكبار الذين كانوا من جيله كالفراء والكسائى ولكنه رفض هذا العمل ، على أنه لم يجد مفرا من أن يعلن اغتباطه بوفاة يحيى البرمكى عام ١٩٠ ، ثم ود لو سافر الى الرقة فوصل من جديد حبله بحبل الخليفة ، وأبت الظروف الا أن تجعله رهين بلده يرصد للحمراء وقد شمروا عن ساعد الجد باتساع نفوذ أسرة بنى سهل المجوسية.

ثم يموت الفضل بن يحيى وهو فى حبسه بالرقة ، ويعقبه الرشيد نفسه وهو بين يدى ابن الربيع واسماعيل بن صبيح ، وخادمه مسرور .. فتهجس الهاجسة فى فؤاد الأصمعى ، ولكنه لا يفكر الا فى أن يموت ميتة الأبرار .

ورأى اكمالا لرسالته أن يدلى برأيه فيما تبقى من مسائل العلم الى أن تحين منيته ، ولكن السنين تطول . واذ يشعر ببادرة الضعف تريد أن تعبث بذاكرته يعود الى مدوناته ليقرأ

مفضليات الضبي على ضوئها ، ثم يفسرها ، ويشرع في امـلاء « الأصمعيات » من أوراق كان أعدها منذ سنوات .

وربطه بين المفضليات والأصمعيات—وكلها من عيون الشعر— قائم على أساس أن اختيارات الضبي تحقق معنى « الفحولة » التي يجعلها هو الفيصل في تقبل شعر الشاعر . ولقد طالما أشار الى هذا المعنى في محاضراته ومناقشاته ، ولما سأله أبو حاتم عن معنى الشاعر الفحل قال :

— يراد أن له مزية على غيره كمزية الفحل على الحِقاق ، وبيت جرير يدلك على هذا .

وابنُ اللبون إذا ما كُنَّ في قَرَن
لم يستطع صولةَ البُزل القناعيس(١)

ولكنه خلط وهو يملي بين ما رواه المفضل الضبي وما زاده هو ، فكان الذي يقارن بين نسخة المفضل الأصلية وبين ما يمليه يأخذه شيء من الاضطراب ، ففي ميمية سنان بن أبي حارثة التي يقول في أولها :

قتلْ للمثلم وابن هند بعــده ان كنت رائم عـزنا فاستقدم

أربعة أبيات أخيرة — مع أن كلها تسعة — يرويها الضبي لبشر بن أبي خازم .

وأصمعيته اللامية التي نسبها لعبد قيس بن خفاف التميمي

---

(١) ابن اللبون : ولد الناقة في دخوله الثالثة من عمره ، قرن : حبل مفتول ، صولة : وثبة ، البزل : جمع بازل وهو البعير الذي طلع نابه في التاسعة من عمره ، القناعيس : الشداد .

هى من مرويات المفضل وان اختلف عنه فى ترتيب أبياتها ، والى جانب هذا يضيف بيتا من عنده يقول فيه :

واستأنِ حلمَك فى أمورك كلِّها

وإذا عزمتَ على الهوى فتوكَّل

وذكر عن حبيب بن شَوْذَب مرثية رواها أبوه لكعب بن سعد الغنوى ، وقصيدة من البحر نفسه وبالروى ذاته نسبها لغُرَيْقَةَ بن مُسافع العبْسى ، فاختلف حولها تلاميذه . وذهب بعضهم إلى أنه لا شك أخطأ أو وهم — لضعفه بلا جدال فى هذه السن — لأن ماءهما واحد والسياق يستلزم وحدتهما ، ولكن أحدا لم يملك أن يراجعه .

وقد أثارت أماليه تلك كبار حفاظ عصره ولا سيما أبا عبيدة ، الذى كان قد بلغ أرذل العمر . فاحتدم النزاع بينهما وان لم يكن من القوة بحيث يلفت الأنظار ، وكان أخطر ما فيه محاولة الأصمعى أن يكشف عن كذب أبى العتاهية وسوء خلقه ، اذ رآه يقرر أن البيتين التاليين :

هـم هينـون وأيسـار ذوو كرم

سـواس مكـرمة أبنـاء أيسـار

ان يسألوا الخير يعطـوه وان خبروا

فى الجهـر أدرك منهـم طيب أخبار

هما للعرندس الكلابى يمدح بعض الغنويين ، ففضحه واتهمه بالوضع ، وأعلن ذلك بقوله :

— محال أن يمدح كلابى غنويا لما بينهما من العداوة .

وكان أبو حاتم وعبد الرحمن بن عبد الله بن قريب حاضرين أطراف المناقشة فاستفتيا الأصمعى شيئا فأفاض فى ذكر الغنويين، وانطلق يقول بصوته الهادىء الرخيم :

ـــ حدثنا شيخ من أهل نجد قال كان طفيل الغنوى يسمى فى الجاهلية محبرا لحسن شعره ، ولم أجمع له فيما جمعت وأنا أقرأ المفضليات .

قال أبو حاتم متسائلا :

ـــ وامرؤ القيس الذى جمعت شعره ؟

فأجاب الأصمعى بثقة :

ـــ طفيل عندى أشعر من امرىء القيس .

وهذا الاعتراف الحاسم هو الذى جعله فى الوقت نفسه يحق الحق أولا فقال :

ـــ وقد أخذ طفيل من امرىء القيس شيئا ، وكان معاوية ابن أبى سفيان يقول « دعوا لى طفيلا فان شعره أشبه بشعر الأولين من زهير » .

قال ابن أخيه :

ـــ كأنك تريد أن تجعل الشعر كله لطفيل .

فقال الأصمعى :

ـــ لا والله ، ولكن اليك ما أعرف .. لقد سئل شيخ عالم من الشعراء فقال « كان الشعر فى الجاهلية فى ربيعة وصار فى قيس ، ثم جاء الاسلام فصار فى تميم » .

وهنا قال أبو حاتم :

— لِمَ لمْ يذكر اليمن ؟

فأجاب :

— انما أراد بنى نزار فأما هؤلاء كلهم فانما تعلموا من رأس الشعراء امرىء القيس ، وانما كان الشعر فى اليمن .

وصمت قليلا ثم استطرد قائلا :

— أفى الدنيا مثل فرسان قيس وشعرائهم ؟ منهم عنترة وخفاف ابن ندبة وعباس بن مرداس ودريد بن الصِّمة .

وصمت ثانية ثم عاد يقول :

— ذكرت عنترة كثيرا ، وفى املائى للأصمعيات ذكرت لخفاف أربع قصائد واخترت لابن مرداس واحدة ولابن الصمة اثنتين .. أتذكران ؟

قال عبد الرحمن :

— ولكن أى الناس طرا أشعر ؟

فأجاب مسرعا :

— النابغة عندى .

قال :

— تقدم عليه أحدا ؟

أجاب :

— لا ، ولا أدركت العلماء بالشعر يفضلون عليه أحدا .

قال السجستانى :

— فزهير بن أبى سلمى ؟

قال :

— اختلف فيه ، قال أبو عمرو وقد سأله رجل « النابغة أشعر أم زهير » ما يصلح زهير أن يكون أجيراً للنابغة .. أوس ابن حجر أشعر من زهير ولكن النابغة طأطأ منه ، قال أوس « بجيش ترى منه الفضاء معضلا » فى قافية وقال النابغة فجاء بمعناه فى نصف بيت وزاد شيئا آخر فقال :

جيش يظل به الفضاء معضلا   يدع الأكام كأنهن صحارى

وعلى هذا النحو يطول الحديث ويتشعب ، فيجذب الطلاب الشباب والشيوخ على حد سواء ؛ فينصت من ينصت ، ويكتب من يكتب . والرجل الرزين لا يكل ولا يمل ، وانما يمضى حتى يدوى صوت فى المسجد فجأة قائلا :

— يا معشر المسلمين لقد خطب الأمين أمير المؤمنين لابنه موسى فى جوامع بغداد ولقبه الناطق بالحق .

وتصايح قوم هنا وهنالك متسائلين :

— والمأمون ؟

ولم يجب أحد ، ولكن الأصمعى ينهض فجأة جامعا أوراقه وهو يردد لنفسه :

— لا شك أنه أبطل اسمه من الخطبة . أتسمعون ؟

٤

التاجر البخيل

وقع ما كان يخشاه الأصمعى .. فقد كان خلع الأمين أخاه من ولاية العهد ايذانا بتصادمهما ، وكان يرى أن الحرب بينهما ان كانت تقدم شرا فليس أكبر من أن ينتصر الحمراء وكانوا قد أعلنوا موافقتهم على أن يثور المأمون بخراسان .

غير أن شيئا آخر كان يملأ صدره اشفاقا ، هو اضطراب الأمر فى اقطاعه الزراعى .. وكان قد أصبح من ذوى اليسار باتجاره فى الأثمار والابل جميعا ، ورأى أن امتداد القتال الى البصرة يعنى فساد ما يرجو لعيشه طال أم قصر .

وكان فى هذه الأثناء يتعرض لحملات الجاحظ تعرضه لحملات أبى عبيدة ، ان حملات الجاحظ كانت تدور غالبا حول تضييقه فى العيش على نفسه ، وكان قد قيل له على ما مر فى حادثة الحمار الهزيل .

— بعد براذين الخلافة تركب هذا ؟

فقال متمثلا :

ولما أبت إلا طِراقا بِوِردها
وتكديرها الشربَ الذى كان صافيا

شربنا برنْقٍ من هواها مُكَدَّرٍ
وليس يعاف الرَّنْق من كان صاديا

هذا وأملك دينى أحب الىّ من ذلك مع فقده !

ومضى بهذا الحمار الهزيل حتى دخل الجامع ، فقابله التوزى متهللا ، ثم قال له :

ـــ كنت فى حلقة أبى عبيدة فذكرت قول الشاعر :

وأضحت رسوم الدار قفرا كأنها
كتاب محـــاه الباهلى بن أصـــمعا

فقال « هذا يقوله فى جد الأصمعى » .

وتغير وجه أبى سعيد وشعر بالاضطراب .. فقد كان على ابن أصمع جد أبى الأصمعى يتولى محو المصاحف المخالفة لمصحف عثمان من قبل الحجاج ، ولم يكن الأصمعى يظن أن أبا عبيدة يعرف هذه الواقعة ، أما وقد تحقق هذا فقد وجب أن يبين وجه الحق ، الا أنه قال :

ـــ هذا كتاب عثمان ورد على ابن عامر ، فلم يجد من يقرؤه الا جدى !

وكان الجاحظ حاضرا فانبرى يقول :

ـــ أتظن ذلك يا أصمعى ؟ . ومع ذلك فدعنى أسأل هل كان جدك بخيلا ؟

ولم يعجب أحدا سوء أدبه ، وودوا لو سكت الا أنه استرسل يقـــول :

— كأنما كان الباهليون جميعا الأصمعى الذى يرفض أن يقرض مما أنعم الله عليه ، ألم يقل فيهم الشاعر :

وللباهلى على خبزه كتاب لآكله الآكله

قال الأصمعى مبادرا :

— ان كنت ترى فى البخل شتما فذلك أكبر الوهم ، ولكن الذى يُستقرض منه ثم يأبى لا يكون بخيلا مطلقا ، فشر الأمور طلب القرض بأى سبيل . وقد بلغنى أن رجلا أتى صديقا يستقرض منه مالا فتركه بالباب ثم خرج اليه مؤتزرا فقال له « مالك » قال « جئت للقتال واللطام والخصومة والصخب » قال « لمَ ؟ » قال « لأنك فى أخذ مالى بين حالين .. اما أن تذهب به واما أن تمطلنى به ، فلو أخذته على طريق البر والصلة لاعتددت عليك بحق ولوجب عليك به شكر ، واذا أخذته من طريق السلف كانت العادة فى الديون والسيرة فى الاسلاف الرد أو التقاضى ، واذا تقاضيتك أغضبتك ، واذا أغضبتك أسمعتنى ما أكره ، فتجمع علىّ المطل وسوء اللفظ والوحشة وافساد اليد فى الاسلاف وأنت أظلم ، فأغضب كما غضبت ، فاذا نقلتنى الى حالك فعلت فعلك ، وصرت أنا وأنت كما قال العربى « أنا تئق وصاحبى مئق » فما ظنك بتئق من الغيظ مملوء من الغضب ، لأنى متأق من الموق مملوء من الكفران .

ولكنى أدخل الى المنزل فأخرج اليك مؤتزرا ، فأعجّل لك اليوم ما ادخرته الى غد ، وقد علمت أن ضرب الموعظة دون ضرب

الحقد والسخيمة ، فتربحُ صَرْفَ ما بين الألمين وفضل ما بين الشتمين .

وبعد ، فأنا أضن بصداقتى لك وأشح على نصيبى منك من أن أعرضه للفساد ، وأن أعينك على القطيعة ، فلا تلمنى على أن كنت واحدا من أهل عصرك ، فان كنت عند نفسك فوقهم وبعيدا من مذهبهم فلا تكلف الناس علم الغيب فتظلمهم .

وسكت الأصمعى قليلا ثم مضى يقول :

— وما زالت العارية مؤداة والوديعة محفوظة فلما قالوا « أحق الخيل بالركض المعار » بعد أن كان يقال « أحق الخيل بالصون المعار » فسدت العارية واستد هذا الباب ، ولما قالوا :

شمِّرْ قميصَك واستعدَّ لنائل
واحكُكْ جبينَك للقضاء بثوم
واخْفِضْ جناحَك إن مشيتَ تخشُّعاً
حتى تصيبَ وديعةً ليتيم

وحين أكلت الأمانات الأمناء والأوصياء ورتع فيها المعدلون والصرافون ، وجب حفظها ودفنها ، وكان أكل الأرض لها خيرا من أكل الخئون الفاجر واللئيم الغادر ، وهذا مع قول أكثم بن صيفى فى ذلك الدهر « لو سئلت العارية أين تذهبين ؟ قالت : أكسب أهلى ذما !

وأنا اليوم أنتهى عن العارية والوديعة ، وعن القرض والفرض، وأكره أن يخالف قولى فعلى . أما القرض فلما أنبأتك ، وأما الفرض فليس يسعه الا بيت المال ، ولو وهبت لك درهما واحدا

لفتحت على مالى بابا لا تسده الجبال والرمال ، ولو استطعت أن أجعل دونه ردما كردم يأجوج ومأجوج لفعلت . ان الناس فاغرة أفواههم نحو من عنده دراهم ، فليس يمنعهم من النهش الا اليأس ، وان طعموا لم تبق راغية ولا ثاغية ولا سبد ولا لبد ولا صامت ولا ناطق الا ابتلعوه والتهموه .

أتدرى ما تريد بشيخك ؟ انما تريد أن تفقره ، فان أفقرته فقد قتلته ، وقد تعلم ما جاء فى قتل النفس المؤمنة !

ثم نهض الأصمعى مغضبا وقد أحس أن الجاحظ وصله الى غير ما يليق ، وكلفه بما قال شططا . فهو قد يكون حريصا ، وهو قد يقول على سبيل التندر « نعم الادام الجوع » الا أنه فى صنيعه هذا لا يقترف أى مشين ، وهذه الحياة لا يعرف الانسان ما تدخره له ! فربما كان الحرمان ، وربما كان التشريد ، وربما كان الفقر .. فليس بد من أن يطمع فيما يبغضه الى الناس ذلك الأسمر الغليظ ذو العينين الجاحظتين .

ولعله حين فارق مجلسه لم يكن يعرف أن الحديث عن حرصه سيمتد ، والا لكان جلس وتحمل عبء التحدى حتى النهاية . والواقع أن الجاحظ أبى الا أن يخوض فيما بدأ فيه ، ولهذا راح يقول :

— لقد شهدته والله يوما يقبل على جلسائه يسألهم عن عيشهم وعما يأكلون ، فأقبل على الذى عن يمينه فقال « أبا فلان ما ادامك ؟ » قال « اللحم ! » قال « آكل يوم لحم ؟ » قال

« نعم ! » قال « وفيه الصفراء والبيضاء والحمراء والكدراء والحامضة والحلوة والمرة ؟ » قال « نعم ! » قال « بئس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب . كان عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا وكان يقول : مدمن اللحم كمدمن الخمر ! » .

ثم سأل الذى يليه قال « أبا فلان ما ادامك ؟ » قال « الآدام الكثيرة والألوان الطيبة » قال « أفى ادامك سمن ؟ » قال « نعم ! » قال « فتجمع السمن والسمين على مائدة ؟ » قال « نعم ! » قال « ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا ، وكان اذا وجد القدور المختلفة الطعوم كدرها فى قدر واحدة وقال : ان العرب لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضا ! » .

ثم يقبل على الآخر فيقول « أبا فلان ما ادامك ؟ » قال « اللحم السمين والجداء الرضّع » قال « فتأكله الحوّارى ؟ » قال « نعم ! » قال « ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب يضرب على هذا ، أو ما سمعته يقول : أترونى لا أعرف الطعام الطيب ، لباب البر بصغار المعزى ألا تراه كيف ينتفى من أكله وينتحل معرفته ؟ » .

ثم يقبل على الذى يليه فيقول « أبا فلان ما أدمك ؟ » فيقول « أكثر ما نأكل لحوم الجزور ، وتتخذ منها هذه القلايا ، ونجعل بعضها شواء » قال « أفتأكل من أكبادها وأسنمتها وتتخذ لك الصباغ ؟ » قال « نعم ! » قال « ليس هذا عيش آل الخطاب ..

كان ابن الخطاب يضرب على هذا ، أو ما سمعته يقول : أترونى لا أقدر أن أتخذ أكبادا وأفلاذا وصلائق وصنايا ؟ ألا تراه كيف ينكر أكله ويستحسن معرفته ؟ » .

ثم يقول للذى يليه « أبا فلان ما أدمك ؟ » فيقول « الشبارقات والأخبصة والفالوذجات » قال « طعام العجم وعيش كسرى ولباب البر بلعاب النحل بخالص السمن » .

حتى أتى على آخرهم ، وفى كل ذلك يقول «بئس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب ، كان ابن الخطاب يضرب على هذا » فلما انقضى كلامه أقبل عليه بعضهم فقال « يا أبا سعيد ما أدمك » قال « يوما لبن ، ويوما زيت ، ويوما سمن ، ويوما تمر ، ويوما جبن ، ويوما قفار ، ويوما لحم ، عيش آل الخطاب » .

ولما انتهى الجاحظ من روايته وأغلق فمه الكبير توزع الحاضرون بين معجب به ومشفق على الأصمعى ، غير أن حديثه الطريف برغم ما فيه من تعريض بأستاذهم أغرى واحدا بحكاية عنه فمضى يسردها عليهم بقوله :

— تمشى قوم الى الأصمعى مع تاجر كان اشترى ثمرته لخسران كان ناله ، وسأله حسن النظر والحطيطة ، فقال الأصمعى « أسمعتم بالقسمة الضيزى ؟ هى والله ما تريدون شيخكم عليه . اشترى منى على أن يكون الخسران علىّ والربح له ، هذا وأبيكم تجارة أبى العنبس ، اذهبوا فاشتروا علىّ طعام العراق على هذا الشرط .. على أنى والله ما أدرى أصادق هو أم كاذب ، وها هنا واحدة وهى لكم دونى — ولا بد من أن أحتمل لكم اذ لم

تحتملوا لى — والله ما مشيتم معـه الا وأنتم توجبون حقـه وتوجبون رفده . لو كنت أوجب له مثل ما توجبون لقد كنت أغنيته عنكم وأنا لا أعرفه ولا يضربنى بحق ، فهلموا تتوزع هذه الفضلة بيننا بالسوية ، هذا حسن ممن احتمل حقا لا يجب عليه فى رضى من يجب ذلك عليه » فقاموا ولم يعودوا ، فخرج اليه التاجر من حقه ، وأيس مما قبله .

ويرتفع ضحك من هنا وهنالك ، ثم ينهض القوم متثاقلين !

٥

مرض

ويأتيه نبأ يشغله عن متابعة الصراع بين الأخوين ، وانكسار الأمين فى معاركه الأولى ، وطلب المأمـون أن يخاطب بأمـير المؤمنين بعد أن عقد للفضل بن سهل من جبل همدان الى التبت ومن بحر فارس الى بحر الديلم ، وبعد أن ولّى أخاه الحسن بن سهل ديوان خراجه .. يأتيه نبأ موت سفيان بن عيينة ، صديقه وأستاذه المحدث ، الذى شفع له عند المهدى أيام الشدة .. يأتيه هذا النبأ مع أخبار هزائم العرب وانتصار طاهـر بن الحسين — قائد المأمون — فى الأهواز وواسط والمدائن حتى نزل صرصر.

ولقد بكى فيه كل شىء ، وأعلن فى قصيدة رثاء سخطه على الشامتين ، ثم تعرض فيها للزنادقة والملحدين على أساس أنهم غالبية الجيش المأمونى الذى يجتاح العـراق ويوشك أن يطأ البصرة :

فليبْكِ سفيانَ باغى سُنَّةٍ
ومسـتبيت لثـارات وآثار
أمست مجالسه وحشـا معطـلة
من قاطنين وحجـاج وعمـار

مَنْ للحديث عن الزُّهْرِىِّ حين ثَوَى

وللأحاديث عن عمرو بن دينار

لن يسمعوا بعده من قال : حدثنا الز

هرى ، من أهل بيداء وأمصار

لا يهنأ مشامت المسرورُ مَصْرَعَه

من مارقين ومن جُحَّاد أقدار

ومن زنادقة جهم يقودهم

قودا الى غضب الرحمن والنار

وملحدين ومرتابين قد خلطوا

بسنة الله اهتارا باهتار

واعتزل بعدها الناس شيئا وهو يستشعر وهنا ، فيحل تلاميذه بساحته وهم يطمعون أن يملئوه عزما ويسمعوا منه فى الوقت نفسه . ولقد ظل حفيا بهم وظن بالأيام خيرا ، وأنشأ يقدم ما يقدر عليه ، وتنقل بهم بين الشعر واللغة والأخبار والمعارك .

وفى ذات مرة يطعن رجل على شعر أبى عطاء السندى ، فيأبى الا أن يضع الحق موضعه فيقول :

— أخبرنى أبو جندل بن الراعى قال : لما دفن يزيد بن عمر بن هبيرة قال أبو عطاء السندى :

ألا ان عينا لم تجد يوم واسط ... عليك بباقى دمعها لجمود

عشية راح الدافنون وضرجت ... جيوب بأيدى مأتم وخدود

فان تمس مهجور الفناء فطالما ... أقام به بعد الوفود وفود

وانك لم تبعد على متعهد ... بلى ، إن من تحت التراب بعيد

أفيقال لهذا لا يحسن !

وفى مرة أخرى — وكان مجلسه يجمع التوزى والرياشى وأبا حاتم والخليل بن أسد ورجلا خراسانيا اعتاد أن يزوره على وفاء لم يلقه من أغلب الحمراء — وقف عليه أعرابى من بنى أسد يقول له :

— ما معنى قول الشاعر :

لا مال الا العطاف تؤزره أم ثلاثين وابنة الجبل

ولم يكن فى حاجة الى أن يشحذ ذاكرته أو يفكر ، وكأنما كان ينتظر المبادرة من الأعرابى ليندفع ينشد باقى الشعر :

عُصْرَتُه نُطفَةٌ تَضَمَّنها لِصْبٌ تلقَّى مواقع السَّبَل
أو وجبةٌ من جَناة أشكلةٍ إن لم يُرِغْها بالقوس لم تُنَل (١)

ويقرر أن صاحب الشعر وهو صعلوك انما وصف صائدا فأخبر أنه لا مال له الا العطاف وهو السيف ، فقد قال الشاعر :

رأيتكما يابْنَى عياذ عدوتُما
علىّ مال ألْوَى لا سنيدُ ولا ألَف
ولا مال لى إلا عطافٌ ومِدْرَع
لكم طرَفٌ منه حديدٌ ولى طرف (٢)

فعجب الأعرابى وقال :

---

(١) نطفة : ماء صاف ؛ لصب : مضيق واد ؛ جناة : مايجنى ؛ أشكلة : ذات لونين مختلطين ؛ لم يرغها : لم يخدعها .

(٢) ألوى : شديد الخصومة ، السنيد : الدعى ، المدرع : الدراعة أو الدرع والجمع مدارع .

— ما رأيت عُضلَةً كاليوم .

وفى مرة ثالثة وكان المجلس هو هو فأشبه اليوم أمس ، وقف بساحته أعرابى يتساءل قائلا :

— أنت الأصمعى ؟

قال :

— نعم !

فقال الاعرابى :

— أنت عالم أهل الحضر بكلام العرب ؟

أجاب برقة وعذوبة :

— كذلك يزعمون .

فقال الأعرابى كأنه يختبر :

— ما معنى قول أمية بن أبى الصلت :

وما ذاك الا الديك شارب خمرة
نديم الغــراب لا يمل الحوانيا

فلما استقل الصبح نادى بصوته
ألا يا غراب هل رددت ردائيــا

فقال الأصمعى :

— ان العرب كانت تزعم أن الديك فى الزمان الأول كان ذا جناح يطير فى الجو ، وأن الغراب كان ذا جناح كجناح الديك لا يطير به ، وأنهما تنادما ذات ليلة فى حانة يشربان فنفد شرابهما ، فقال الغراب للديك « لو أعرتنى جناحك لأتيتك بشراب » فأعاره جناحه

فطار ولم يرجع ، فزعموا أن الديك انما يصيح عند الفجر استدعاء لجناحه من الغراب .

فضحك الأعرابى وقال :

— ما أنت الا شيطان !

وفى مرة رابعة يستزيره رجل فيمكنه من زيارته ، وقد وجد الأصمعى عنده دأبا وشغفا بالعلم ، وفيما هو آخذ بمحادثته يقول له :

— زعم أبو زيد أن الندى ما كان فى الأرض والسدى ما سقط من السماء .

فغضب الأصمعى وقال :

— فما يصنع بقول الشاعر :

ولقد أتيتُ البيتَ يُخْشَى أهلُه
بعد الهُدوِّ وبعد ما سقط الندى

أفتراه سقط من الأرض الى السماء ؟

وكان الأصمعى بكل هذا يؤكد أنه لا يزال يقوى على ما يعجز عنه غيره ، وأنه أحرص ما يكون على تجريد لسانه لتقويم المعوج من تلك الحياة ، ولم يكن يجهد مقوله فى هجاء الا اذا عرض الكفر ، وذكر العرب بشر .. فى هذه الحال لا يغريه خوف بسكوت ، ويستنهضه الغضب الى شىء جرىء ربما كان من السهل أن يطيح به !

ويعجب الرجل الخراسانى بهذا العلم ، وكان لقن أنه لا شىء اذا قيس بأبى عبيدة ، فيقدم عليه سائلا :

— أين كتبك يا أبا سعيد ؟

وهنا يشير الأصمعى الى شىء فى زاوية الحجرة .. شىء يستقله الخراسانى فيقول دهشا :

— ليس الا !

قال الأصمعى :

— لا .. وانه من حق لكثير

ولم يخبره أنه وكل بكتبه ابن أخيه عبد الرحمن وابن أخته أحمد بن حاتم الذى أصبح منذ مرضته أقرب الناس اليه ، حتى قال لتلاميذه عنه :

— ما يصدق علىّ الا أبو نصر !

٦

الشيوخ في المربد

— استبدلت الخلافة الفضل بن سهل بالفضل بن يحيى ، فماذا يفعل الفضل بن الربيع ؟

قال ذلك أبو عبيدة وهو يعلم أنه يغيظ الأصمعى ؛ فقد اتضح على وجه التحقيق مقصد المأمون وكان عبد السبل والمنافذ الى بغداد ، وأغرى الناس بخلع الأمين ، ثم قبل من الفضل بن سهل كل محاولاته لجعل الملك كسرويا . على أن ما آلم الأصمعى حقا هو أخذه بأسباب الحديث على أساس أن الأمر قد استقر نهائيا للمأمون ، وفى هذا معنى أن ما يقدّم ابن الربيع من تدبير لن يمنع المقدر من الوقوع ، وسيمضى الأمين هذا الذى يذكر الأصمعى أن الرشيد قال له يوما :

— لا تعلمه ما يفسد عليه دينه :

فأقام معه شريكا للكسائى فيه حتى أقرأه القرآن ، وفقهه فى الدين ، وروى له أيام العرب وأخبارهم ، وعلّمه اللغة ليصير على ما ينبغى أن يكون عليه أمير يرشح للخلافة .

لهذا تألم الأصمعى ، ثم تألم أيضا لأن الأمين — وهو يحارب

أخاه — كان يصدر عن رغبة حقيقية فى تجنب الأذى ؛ فقد قال لقائده على بن عيسى بن ماهان :

— امنع جندك من العبث بالرعية والغارة على أهل القرى وقطع الشجر وانتهاك النساء ، ومن خرج اليك من جند خراسان ووجوهها فأظهر اكرامه وأحسن جائزته !

ثم كان الالم الأكبر ، وذلك أن ينتصر الحمراء .. كل ما كان الأصمعى يحاول ألا يقع يوشك أن يقع ؛ فلم يخص الداعون للمأمون ناحية دون ناحية الا جعلوا منها طريقا الى كسر الخليفة الذى يلتف حوله العرب .. كان الفضل بن سهل مثلا يقول للمأمون :

— أنت نازل فى أخوالك وبيعتك فى أعناقهم

وأخواله هم الفرس ، وكان الخراسانيون يشيرون اليه بابن الأخت ، وكان الموتورون يصيحون :

— فليقض على بنى هاشم فهم سند الأمين !

ثم كان كثيرون من أعداء بنى هاشم يتعجلون النهاية ليرسوا قصدهم على شىء جديد ؛ فليس يغنى شيئا أن يسهموا فى المعركة وهم لا يأمنون أى جانب ، وان يكن انتصار أحد الجانبين لا يعنى انتصارهم هم ، ولكنه على أية حال اضعاف للجبهة التى يعملون فيها .

* * *

هكذا راح الأصمعى يفكر ، وأمامه أبو عبيدة ونفر من شيوخ الجامع قصدوا المربد ينفقون فيه ساعات المساء الرطبة . وكانت

البساتين ترسل عبقها ، والدور البيض تستحم فى ألوان الغسق، ومن بعيد كانت الجمال تتهادى فى أناة يحدوها أعراب لم يكن يعنيهم شىء مما يجرى خارج بلدهم هذا الهادىء .

وحين ألقى أبو عبيدة عبارته تلك التى لا شكّ فكّر فيها طويلا قبل أن يرسلها على ذلك النحو من التشفى والازدراء ، قال الأصمعى :

— على ما فى قولك من غميزة نمر بها أقول دع الأمر الآن ، فأحق ما نصبر عليه مالا يكون ثمة سبيل الى تغييره .

فتساءل التوزى وكان حاضرا مع الرياشي ودماذ وأبى غسان وأبى قلابة الجرمى وقد ألجاته الحرب الى البصرة :

— أتدعو الى أن نكف عما نخوض فيه ؟

أجاب الأصمعى :

— هو ذاك حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

فصاح أبو عبيدة :

— الآن تقول ذلك يا رجل وبالأمس قلت ليس شىء له ثبات ولابقاء حتى ....

فقاطعه الأصمعى قائلا :

— يا معمر ، أما بلغك قول عبد الله بن المقفع ليحسن تعاهدك نفسك بما تكون به للخير أهلا ؟

قال أبو عبيدة :

— بل أحفظه كما أحفظ القرآن .

فانفجر الأصمعى ضاحكا وصاح :

— ان كان كذلك فأنت لا تحفظ شيئا !

وقد كان من المعروف للجميع أن أبا عبيدة يهمل حفظ الآيات المنزلة ، بل ربما أخطأ اذا قرأها نظرا . وهذا من الأشياء التى أثارت عليه الأصمعى حين علم أنه وضع « المجاز » فى الوقت الذى يتوقى فيه هو تفسير شىء من القرآن . ولما ادرك أبو عبيدة ان الأصمعى نال امنه على هذا النحو من السهولة قال غاضبا :

— قد جبلت على مكر لا يوصف ، فما تزال تتحين الفرصة كلما حزبك أمر حتى تخرج الى ما تريد أنت لا الى ما نريد نحن . اننا نتكلم عن خليفة جديد يا أبا سعيد !

قال الأصمعى ببساطة :

— وأنا أشغل نفسى بما تهيأت له .

فتدخل أبو قلابة وكان من المخلصين لأبى عبيدة وقال :

— فليكن .. لنجعله يا أبا عبيدة حديثا عن العلم ، وعما يريد أن ينال منك به .

فتساءل الأصمعى :

— تعنى كتاب الله ؟

قال الجرمى :

— مجاز أبى عبيدة .. اسمعوا يا شيوخ البصرة ، قال لى الأصمعى بعد أن قدمت له المجاز ونظر فيه « قال أبو عبيدة فى أول كتابه (آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه) أى لا شك فيه ، فما يدريه أن الريب الشك ؟ » .

قال دماذ وكان من المنقطعين لمعمر أيضا :

— وماذا قلت له ؟

أجاب الجرمى :

— قلت له أنت فسرت لنا الريب بالشك فى شعر الهذليين :

فقالوا تركنا القوم قد حصروا به

فلا ريب أن قد كان ثم لحيـم

قال دماذ :

— وماذا قال أبو سعيد ؟

ضحك الجرمى وهتف بسخرية :

— لم يقل شيئا وردّ الكتاب .

ولم يكن الأصمعى يتوقع من أحد أن تسرد هـذه الواقعة الآن ، وهى اذا كانت تكشف عما كان يأخذ به نفسه من عـدم التعرض لتفسير القرآن فانها قد تظهره متحاملا على زميله ، ومع ذلك فقد آثر أن يمضى فى الشوط الى النهاية ، فقال بهدوء :

— ان لى رأيا خاصا فى هذا العلم الذى أقحم أبو عبيـدة نفسه فيه ، وليس يجدى العاقل بشىء يكتب فيفرح اذا كان كثيرا ويحزن لقلته ولكن ما يفرح حقا أن يكون نافعا .

قال أبو عبيدة بعد أن طال صمته :

— أتعنى أنى أطلب بلا غناء ؟

قال الأصمعى .

— أعنى أن الحرص فى هذا أولى .

فضحك أبو عبيدة وقال :

— فأنت اذن النحيل ضيق العطن .

فقال الأصمعى وقد رأى أنه لابد أن ينزل الى مستوى حديثه :

— ولكنى لست المولى ابن الحائك .

قال أبو عبيدة محتدا :

— ان غدا لناظره قريب ، وحتى يأتى الغد دعونى أحك لكم هذه الحكاية لنرى ماذا يفعل العربى ابن باهلة ، ولو كان أبو زيد حاضرا لأضحككم بها .

قال الأصمعى كعادته كلما أنكر شيئا :

— جحفل بما عندك حتى لا يوقعك فى بلاء لا تخلص منه .

فصاح أبو عبيدة :

— بل أرويه والله !

ولم يقدر له أن يروى شيئا ، لأن الأمور جرت على غير ما كانوا يحدسون ؛ فقد أقبل أبو حاتم السجستانى مضطربا وعلى وجهه غبرة ، ثم لم يكد يستوى فى مجلسه حتى قال :

— لقد سقطت بغداد فى يد طاهر بن الحسين ، وقتل الأمين.

٧

الثورة فى البصرة

فتح الطريق بعد طويل وأخـذت فلول المحمديين تذوب فى السواد ، وأقبل على البصرة مئات ، وظهر فيها ذات يوم الحسين ابن الضحاك الخليع مولى الباهليين . وكان الأصمعى يتجنبه لسوء خلقه كما تجنب صديقه أبا نواس ، الا أنه يسعى اليه ليسمع منه عن تفصيلات المعركة ، فقال الخليع فى أسلوب مباشر ولكنه حزين:

— لقد ضاع كل شىء .. الأمين الذى سمى بالمخلوع مرة وبالمخذول مرة أخرى يمزق جيشه الأول طاهر بن الحسين ، ورجع الجيش الثانى وقائده ابن مزيد لا يرجو الا أن يرأب الصدع بين جنوده ، ثم حوصرت دار السلام أربعة عشر شهرا ، واستطعت أن أرى الموت فى كل يوم .. أينما نظرت كان ثمة موتى وصرعى ، ورائحة الدم تزكم الأنوف !

سأل الأصمعى :

— والامام الجديد ؟

قال الحسين بأسى :

— لا تسلنى عنه ، فهو فى مرو بين أخواله الخراسانيين كأنما يخاف المحمديين وآل هاشم فى بغداد .. انهم حاربوا ببسالة وسقط

منهم الألوف ، ولكن هناك آلافا أخرى ، أتدرى .. لقد مات النواسي وكان الى آخر لحظة مع الأمين ، فى حين ظل العجوز سلم الخاسر مع عبد الله المأمون ، ويوم طوق طاهر المدينة انطلقت أقول :

أمين الله ثق بالله تعط الصبر والنصره
لنا النصر بعون الله والكرة لا الفرّه
وكأس تلفظ الموت كريها ، طعمها مره
سقينا وسقيناهم ولكن بهم الحرّة
كذاك الحرب أحيانا علينا ولنا مره

أبيات طويلة أنستنى المأساة أكثرها ، غير أنه لما قتل أمير المؤمنين انبرى الحسن ينشد أروع شعره :

طوى الموت ما بينى وبين محمد
وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل الا عبرة تستديمها
أحاديث نفس ما لها الدهر ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحده
فلم يبق لى شىء عليه أحاذر

أرأيت يا أبا سعيد قوله فى البيت الثالث ؟ لعمرى انه ليبكينى كلما أنشدته تماما كما يبكينى قول أحد المأمونيين :

انظر المخلوع كلكله وحواليه المقاويل
فثوى والترب مضجعه غال عنه ملكه غول

وصمت وهو يمسح عبرته ، ثم قال فجأة :

— أتدرى كيف وقع علىّ مقتل أمير المؤمنين ؟ ربما لا أستطيع الآن أن أصف لك نار الغصة عليه ، ولكنى أقول فيه :

ما خير أسرته وان زعموا ... انى عليك لمثبت أسف

هيهات بعدك أن يدوم لنا ... عز وأن يبقى لنا شرف

قال الأصمعى :

— يا أبا على ، والله لم أعرف سوى اليوم معنى أن يقول القائل من المعونة على تسلية الهموم وسكون النفس لقاء الأخ أخاه وافضاء كل واحد منهما الى صاحبه ببثه ، وان تكن خففت عنى بعض ما سلبنى قرارى .

قال الحسين الخليع :

— كنت أجد البلاء فى الدنيا انما يسوقه الأعداء ، فعرفت أن الدنيا لا تأخذ أحدا بهذا المقدور .. فليكن حذرنا أبا سعيد ، وخف أنت على نفسك ؛ ففى بغداد من يسعى بك لشر ، وليس من شىء لهم فيه محمدة الا فيه لك مذمة ، ويستنكرون ما تقول على أية حال .

فانتفض الأصمعى ثم صاح :

— يا أبا على ، والله لن أترك ما أنا فيه ؛ أما الحمراء فلن تظفر منى الا بمثل ما أعطيتها قبل حتى وان تكن اليوم أخوال الامام ، وأما العلويون فهم فى مخاصمتى حتى يرعووا .

قال الحسين :

— ان المأمون يجاهر بعلويته أبا سعيد ، والعلويون اليوم

يطمعون فيه طمع من تسميهم الحمراء ، وبلغنى أنهم يزمعون أخذ الكوفة .

وحطت فترة صمت راح الأصمعى فيها يستعيد مكنونه فى صور شتى ، وبدا له أن الأزمة أخطر ما يصورها له ذلك العائد من بغداد . بل لعلها تنسج خيوط النهاية الرهيبة لكل العرب ، فاذا كان الناس يتحدثون بينهم أن ابن سهل غلب الامام حتى راح يبرم الأمور على هواه فان معنى هذا اختلال الأمور .

اذ مع ابن سهل الطمع فيما طمع فيه آل برمك ، ومع واقع ما حدث ما يقوى هذا الطمع . وكأنما الامام الجديد حريص على أن يزكى البلاء فتمتحن رعيته بالشر كله .

وكان الذى حدث أن عام ١٩٩ لم يشرف على نهايته الا وكانت الكوفة تشق عصا الطاعة بقيادة محمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا العلوى ، وكان القيم بأمره أبو السرايا .. يقتل ابن طباطبا ويقيم مكانه ولدا من آل على بن أبى طالب ، ويزحف باسمه على البصرة ، ويوقع بأهل واسط .

وقد حرص أبو السرايا على أن يسترضى البصريين عبثا ، فلما أيس منهم نكل بهم ، ووجد من شيعتها من يعضده . وأما الأصمعى فقد توارى خشية أن يلحق به أذى علوى أو مأمونى ، وسلك من أجل هذا مختلف المسالك ، ولكنه لم يأمن العثرات قط .

وفى سنة مائتين تصحو البصرة على نبأ يقول ان أبا السرايا ترك الكوفة هاربا ، فكان لابد أن تعلن البصرة ولاءها لهرثمة بن أعين قائد المأمون . وكان ما أثار دهشة الأصمعى أن يأمر المأمون

هرثمة بالقضاء على كل ما للعلويين من نشاط ، فيتم ذلك بأسرع مما يتوقع أحد ، ويموت أبو السرايا وغيره ، وفى الوقت نفسه يبايع المأمون لعلى الرضا بولاية العهد !

ولم يجد الأصمعى ما يفعله فى تلك الحقبة الصاخبة المليئة بالتناقض الا أن يعود الى أوراقه وينسق الشتيت منها ، ويستعد لسنوات أخرى يعيشها بعد أن تصور أنه ميت منذ بعيد .

٨

المخطط الشعوبي

وفى أحد الأيام يسمع الأصمعى أن الفضل بن سهل وقد أطلق عليه ذو الرياستين يجلس على كرسى مجنح ، ويحمل فيه اذا أراد الدخول على المأمون . فلا يزال فوق ذلك الكرسى حتى تأخذه عينا الخليفة ، واذ ذاك ينزل ثم يمشى ، ومن خلفه من يحمل الكرسى الى موضع لصق مقعد المأمون فيضعه ليجلس الفضل فيه ، كما اعتاد أحد وزراء الأكاسرة أن يفعل !

ثم يسمع أن عم المأمون — وهو ابراهيم بن المهدى — يثور به حين غير السواد ، فلا يملك الا أن ينشد :

يا بن بيت النار موقدها ما لحـاذيه سراويل
قاتل المخلوع مقتـول ودم المقتـول مطلول

ثم يقعد فى الجامع ويقول لتلاميذه وهو يدرك حقيقة الخطر الذي يتهدده :

— انى والله لأخشى أن تذهب هذه الدولة بما دبره المجوس !

ولكن الظروف لم تسعفه بشىء ، فآثر أن يعتكف فى داره ويحدد يومين لزواره .. يجلس اليهم ، ويناقشهم ، ويقرأ عليهم مدوناته .

ثم كان ذلك اليوم .. أحد أيام صفر سنة ثلاث ومائتين ، لو لم يلعب القدر فيه لعبته لتغير كل شيء ، فقد مات من كان المأمون ضالعا معه فى سياسته العلوية ، ومن قبل كان مات ذو الرياستين نفسه !

فأين أصبحت الدولة وقد تلاشى خطر المجوس والعلويين ؟

هكذا راح الأصمعى يتساءل ..

وخلال هذا خلع أهل بغداد ابراهيم بن المهدى ، فخلا طريق الامام الجديد الى دار السلام ، واحتل فعلا قصر الخلد العظيم !

كان ثمة قلق وموت ومحاولة حياة ..

وفى هذه الفترة الفريدة .. فى تلك المرحلة الخطيرة من تحرك التاريخ ، ينتهى الأصمعى الى وضع تخطيط عام للموقف ! واذا هو فلسفة صنعتها سنوات طوال من البحث والدرس والتجربة .. فلسفة تقرر أن العرب ضحية ظروفهم ، وأن هذه الظروف بقدر ما واتت الموالى لم تسعف سكان الصحراء الا بالنزر الهين ، ومع ذلك فقد تغلبوا ، وكان يجب أن يتغلبوا !

أما عناصر الغلب فهى اللغة والدين والتاريخ .. وباللغة يقترن الشعر والمنقول من الخطب والأسجاع والأمثال ، وأما الدين فمحوره كتاب الله وأحاديث رسوله ونقول الصحابة وتابعيهم ، وفى التاريخ تثار العصبيات ويبعث الماضى مقترنا بجفاة الأعراب وعنجهية البدو .

ولكل أولئك جانب آخر ، فمن أحب أن يتبحر فى اللغة ويصل الى قمة بلاغتها فليقرأ « كتاب كاروند » ومن شاء أن

يتزود بالعقل والعلم فليعكف على « خداى نامه » أو « كليلة ودمنة » والخطب شيء فى جميع الأمم حتى الزنج منها ، وهذه اليونان تعجز وتفحم ، والفرس أعذب الناس كلاما ومنطقا !

ومع ذلك فقد برز ابن المقفع والبرامكة ، وروع بشار — وهو مولى — شعراء جيله ، وتبعه مولى آخر هو أبو نواس ، والنظام أستاذ المعتزلة مولى .. مفكر وخطيب وشاعر ، وكثير من أصحاب اللغة والشعر فيهم اليهودى كأبى عبيدة والفرغانى كخلف الأحمر والفارسى كسيبويه .

ثم قلة عربية ، يقولون فيها الخليل بن أحمد ، ولكن علمه مأخوذ عن العجم ، وهو نفسه يمانى كما كان المبرزون فى اللغة والأدب .

وفيها السيد الحميرى .. يمانى آخر ، وقد سب من كان على شاكلة الأصمعى فكرة وعقيدة ومذهبا .

وفيها غير هذا وذاك ممن يحاول العرب الخـُلـَّص أن يخرجوهم منهم ، أفلم يقل أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصى اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا .

وأما الأصمعى نفسه .. الأصمعى الباهلى حافظ اللغة وعالم النحو وراوية الشعر والأخبار والآداب ، فهو لا يقدم ولا يؤخر شيئا ، وعلمه مع ذلك مأخوذ عن موال .. أفلم يتشدق بروايات يرتفع سندها الى حماد الراوية ؟ ثم ألم يقل هو عينه ذات يوم بعد أن نعى اليه حماد :

— كان حماد أعلم الناس اذا نصح !

وكذلك روى عن مولى آخر هو أستاذه أبو محرز خلف ، وهذا الأستاذ نفسه روى عن حماد ، ويقول أبو عبيدة انه سمع أبا محرز يقول :

— كنت آخذ من حماد الرواية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها .

أجل هو كذلك !

ثم صعب عليه أن يعى ما يقال ان الخليل أخذ عن العجم مع أنه يتهم أبا عبيدة — الذى جمع أشعار النقائض وبعض أشعار الأولين — بأنه ربما أنشد البيت فلم يقم وزنه حتى يكسره .

ان الحمراء تحكى عنه أنه أراد أن يقرأ العروض على أستاذه ، ولما شرع فى تعلمه تعذر عليه حتى يئس منه الخليل ، ويقولون انه سأل أستاذه عن « معصوب الوافر » فقال له .

— يا أبا سعيد كيف نقطع قول الشاعر :

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

* * *

فى ذهنه اذن أن ثمة مخططا للايقاع بالعرب .. يقضى الحمراء فيه على تراثهم وعاداتهم ليصلوا الى السلطان !

وفى سلوكه الخاص ألف مبرر ليبادلهم العداء ويظفر بهم فى كل مكان ، ويوم نهى عن أن يتبادل الناس كتاب المجاز فلأنه كان يحس أن أبا عبيدة ليس أهلا لهذا العمل لأنه ليس مبرأ من الهوى .

ثم يوم قرأ له بعض ما سجله فى النقائض أيقن أنه يشوه المثل

الجاهلية ، ولهذا أيضا كتب الكتب فى أيادى الأزد ومناقب باهلة ومثالب باهلة وأدعياء العرب ولصوص العرب وفضائل الفرس وروستقباذ .. وكل هذه هدفها الكيد للعرب !

* * *

وكان يقرأ على زواره من أخبار عبس ما سجله فى كتابه الضخم عن عنترة « حدثنى غير واحد من الأعراب أن سبب مقتل زهير العبسى أن ابنه شأس بن زهير وفد الى بعض الملوك ، فرجع ومعه حباء قد حبى به ، فمر بأبيات من بنى عامر بن صعصعة وأبيات من غنىّ على ماء لبنى عامر أو غيرهم ، فاغتسل فناداه الغنــوى : استتر ! فلم يحفل بما قال ، فقال : استتر ويحك فالبيوت بين يديك ! فلم يحفل ، فرماه الغنــوى رياح بن الأسك بسهم ، أو ضربه فقتله والحى خلوف » .

وقال له واحد من الحاضرين :

— لقد أملى علينا أبو عبيدة هذا الشىء نفسه .

وعادت الى الأصمعى خفته القديمة فقام واقفا وهو يصيح :

— كيف ؟

ثم عاد الى وقاره ليسمع الزائر يقول :

— هى عندى فى قرطاس وفيها تصوير بارع لكل ما حدث مذ كان شأس عائدا من لدن النعمان يحمل الطنافس والكسى حتى قعد يريق الماء عليه وهو عريان يشبه الثور الأبيض ثم وهو يخر مجندلا .

وتبسم الأصمعى قليلا ثم قال :

— كل شيء أقوله فانما هو بديهة كما يرويه الرواة لا كما يرسمه الوهم .

واستمر يضحك وهو يستطرد :

— ان كان يبغى الحق فبه ، غير أنه لا يكون حتى يروى ما سمع دون تكلف . لقد كنت أكتب كل شيء لأقوله كما سمعته ، وأخذ عليّ بعض الأعراب ذلك حتى قال :

ما أنت الا الحُفَظَه تكتب لفظَ اللُّفَظه

وقال لى آخر :

— ما تدع شيئا الا نمصته !

ومن أجل ذلك عدلت عما شرعت فيه من أخبار عنترة تاركا كل نقولى فيه للبانات الشادين ، يجدون فيه من نزهة الخواطر وغنية العقول ما عليه أقوى وبه أرضى .. فهل كذلك أبو عبيدة ؟ ان كان فأنعم به ، والا فله دين ولى دين .

٩

الموت

وفى أحد الأيام أتاه نعى أبى عبيدة ففجع ، وأيقن أن قد أزفت نهايته .. فقد ارتبطت حياته به ، وصار بالنسبة اليه مثل ما كان جرير بالنسبة الى الفرزدق ، شيطانهما واحد وطريقهما واحدة . وقد يكون فى هذه الطريق ما فيها الا أنها لا تزرع الحسد ولا تنبت الضغينة ، بل لعلها كانت مجرد مجال للتفوق واحقاق الحق .

كان ذلك فى سنة تسع ومائتين وقد ذهب الى لقاء ربهم أعلام كبار ، منهم النضر بن شميل وقطرب والامام الشافعى الذى قرأ الأصمعى عليه ديوان الهذليين وديوان الشنفرى .

ولم يكن حزن الأصمعى على موت هؤلاء مثل حزنه على موت أبى عبيدة . كان حزنه عليه عميقا جارفا اكتسح كل الصور التى جمعت بينهما ، وهدّ قواه ، ولم يعد يتذكر الا القليل .. من ذلك انشاده قول حاجب بن زرارة يوم جبلة :

شتان هذ والعناق والنوم والمشرب البارد فى ظل الدوم

فقال :

— ما ابن الصباغ وهذا ؟ وانى لأهل نجد دوم والدوم

بالحجاز ؟ حاجب بن زرارة نجدى فأنى له دوم ؟ كان يجب أن ينشده « في الظل الدوم » أى الدائم .

ومنه أيضا ذلك المشهد الذى يجمعه به وهو على رأسه يمسح ذلك البيت الذى سطره على أحد عواميد المسجد :

وحكـاية الكامخ ، وحكاية الفـرس

ثم أقوال شتى كان يرددها حين قدم عليه كثيرون يعـزونه وفيهم من يحب ومن يكره .. المولى الهجين والعـربى القح .. الشاعر والعالم ، ومع أولاء أبو قلابة الجرمى الذى أعلن عداءه الصريح للأصمعى ، على أساس أن الأصمعى سُنّى حسن الاعتقاد وهو شيعى رافضى .

لقد اتنهز أبو قلابة فرصة الاجتماع الكبير فأراد أن يعبث بالأصمعى ، ومن ثم عرض عليه أرجوزة صنعها الشاعر عبد الصمد ابن المعذل وفيها يقول :

تهزىء منى وهى رود طـله
ان رأت الأحنـــاء مقفعـلة
قالت أرى شيب العذار احتله
والورد من مـاء اليرنّا حـله

عرضها على أنها لأحد الأعراب ، فلم يطالع الأصمعى فيها الا القليل حتى دفعها اليه وهو يقول :

— ويحك ، هذه لبعض الدجالين دلسها عليك !

ثم راح يبين له مواضع التدليس فيها ، حتى اذا غلبه الخزى نهض عجلان ينصرف ، فقال الأصمعى :

— اذا خرج الناس من أن يكون لهم العقل يحسنون به التفكير فليعلم المتحدثون أن أحدهم وان أبلغ ليس زائدا على أن يكون قرد النجار .

فقال بعضهم :

— تعنى القرد الذى ذكره ابن المقفع ؟

أجاب :

— هو ذاك !

قال آخر :

— ولكنه من الحمراء !

فقال الأصمعى :

— وأبو عبيدة منهم أيضا ولكن فيهما غناء ، وما جرى على لسان أحدهما فكان صدقا فهو مقبول . وقد سمعت أبا عبيدة يتحدث فكان البحر وقرأت له كتبا فوجدت فيها الخير لما يوافق والشر لما يؤذى ، ثم بلغنى عنه ما يستوى فيه الحمقى والأكياس.. لقد كان رحمه الله جماع هذا العصر ؛ فخلف الأبيض والأسود لنرى فيه ما نرى فتكثر اللجاجة !

قال قائل :

— أنت تذمه .

قال الأصمعى :

— لست الذام جعلت فداك ، ولكنى لا يمنعنى كبر شأن المرء من الاشارة الى ما أراه فيه ، ومع ذلك فليس أحسن من أن تقول فيه ما قال منصور النمرى فى يزيد بن مزيد :

سأبكيك ما فاضت دموعى فان تغض
فحسبك منى ما تجن الجوانح
كأن لم يمت حى سواك ولم تقم
على أحد الا عليك النوائح
لئن حسنت فيك المراثى وذكرها
لقد حسنت من قبل فيك المدائح
فما أنا من رزء وان جل جازع
ولا بسرور بعد موتك فارح

ثم تشعب الحديث وتنوع .. من رثاء هذا الى رثاء ذاك ، ومن ذكر لمتمم بن نويرة الى ذكر الخليع ، وكان زواره يحكون ويحكى هو لهم ، حتى ذكر الخنساء وقد رآها عمر بن الخطاب وبها ندوب فى وجهها فقال :

— ما هذه الندوب يا خنساء ؟

قالت ، على ما أخذ الأصمعى يروى :

— من طول البكاء على اخوىّ .

قال عمر :

— أخواك فى النار .

فقالت :

— ذلك أطول لحزنى عليهما ، انى كنت أشفق عليهما من النار وأنا اليوم أبكى لهما من النار .

ثم انطلق كعادته الى شىء آخر ، فقال فجأة :

— لم يبتدىء أحد مرثية بأحسن من ابتداء أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملى جـزعا ... ان الذى تحذرين قد وقعا

وبعدها قول زميل الفزارى :

أجارتنـا من يجتمع يتفـرق ... ومن يك رهنا للحوادث يغلق

ولكن أم المراثى قصيدة متمم فى أخيه مالك :

لعمرى وما دهرى بتأبين هالك ... ولا جـزع ممـا ألم فأوجعا

لقد غيب المنهـال تحت ردائه ... فتى غير مبطان العشيات أروعا

وراح صوته الهادىء يردد الأبيات حتى أبكى الحاضرين ، فقاموا ينصرفون على هم يجيش فى صدورهم ، وتلوح لهم قامة الأصمعى الضئيلة وقد قوسها العجز وعيناه مع ذلك تضيئان .

١٠

النهاية

لم يدر الأصمعي أنه يعيش سنوات بعد أبي عبيدة ، فلما رأى الأيام تدخر له مزيدا من العمر عكف على الكتابة يساعده كل من ابن أخيه وابن اخته ، عبد الرحمن بن عبد الله بن قريب وأحمد بن حاتم الباهلي ، وكان أبو حاتم يكثر من التردد عليه يدون عنه ويصحبه الى المسجد الذى لم يشأ أن ينقطع عنه .

وتحددت حياته بذلك ، الا حين يزور الأبلة التي كان يعشقها ، والا حين يطرق قصر سعيد بن سلم يزوره ويملأ عليه وحدته بعد اعتزاله . وفى احدى الزيارات وقعت عيناه على أمة عجوز حدثته بود ، ولما انصرفت عنه بمقدم الأمير علم أنها لباب .. وكان زوجها قد ودع كما ودّع غيره !

وهكذا ، الا أن ولاة الأمور ظلوا يخطبون وده ، فلم يكن يفد عظيم على البصرة الا أدى له حق الزيارة ، ثم دعاه الى دار السلام .

وقيل له ذات يوم ان المأمون لما رجع الى بغداد وقر بها استدعى قاضيه يحيى بن أكثم وقال له :

— وددت لو أنى وجدت رجلا مثل الأصمعي ممن عرف

أخبار العرب وأيامها وأشعارها فيصحبنى كما صحب الأصمعى الرشيد.

ثم طولب بأن يستعد للرحلة الى دار السلام ، فاحتج بشيخوخته وضعفه — وكان فى الحق قد أصبح عاجزا — وان يكن لاعتذاره وجه آخر يقوم على أساس أن المأمون الذى قرب العلويين أصبح معتزليا يقول بخلق القرآن ويجبر الناس على أن يقولوه .

كان يدرك أنه لم يعد يصلح للمنادمة ، ولكن الحافز الى اعتذاره هو العقيدة ، هو الرأى ، وأنى له أن يدين بما يدين به معتزلة البصرة وبغداد !

على أنه لم يسفر عن قطيعة مطلقة ، وانما كتب للمأمون كتابا يعده فيه بأن يكون رهن مشيئته كلما اعترضه مشكل . أمير المؤمنين يكتب سائلا ، فيكتب الأصمعى بالجواب !

وقد شاعت هذه الحكاية كما شاع غيرها ، فلم يكن لشيوعها أى أثر فى مسلكه مع الناس وظل على اتصال بهم ، وعندما كانوا يسألونه عن حاله كان يتمثل بأحد أبيات لبيد :

ولقد سئمت من الحياة وطولها

وسؤال كل الناس كيف لبيد

ثم يقول :

— هذا حال من صحب الدنيا حتى أتعبته !

وجلس ذات يوم الى تلاميذه فلحظوا شحوبه واهتزاز كفيه فقالوا :

— طارىء زائل وعافية نرجوها لك .

فراح ينشد قائلا :

إذا الرجال وَلَدَتْ أولادُها
واضطربت من كبر أعضادُها
وجعلت أسقامها تعتادها
فهى زروع قد دَنَا حصادها

ثم أوى الى فراشه بعد أيام مشلولا والى جانبه أبو حاتم ، لا يسمعه يقول شيئا واضحا ، الا حين تصله بعض كلمات من كتاب الله ، ثم انتزع لسانه من حلقه ليقول فى حرارة :

— اللهم خفف حسابى بين يديك !

وكانت عيناه تلمعان ، وفى محاولة ضخمة قال :

— يا أبا حاتم ...

ووقع النداء فى نفس تلميذه موقعا طيبا ، فالأصمعى لم يعد ينادى أحدا قط ، وقال أبو حاتم السجستانى :

— لبيك يا أبا سعيد .

وعاد الأصمعى يحاول أن يفك عقدة لسانه ليقول :

— أترانى أخطأت فى حق أبى عبيدة ؟

أجاب السجستانى :

— والله لا أظن .

قال الأصمعى :

— فهل اتهمت غيرى بكذب ما ؟

أجاب السجستانى :

— ولا هذا أيضا .

ثم عاودته المرضة فأنشأ يهذى ، ومرت لحظة قبل أن يهدأ فقام أبو حاتم الى بيته . ولم يكد ينصرف حتى نهض الأصمعى فجأة يدب على الأرض فيتوضأ ويصلى ، ثم يقعد على سريره يستغفر ربه ، وعندما أقبلوا عليه قال لهم وكأنما أحس أنه عوفى تماما :

— أفتسمعون منى أم تقرأون علىّ ؟

قالوا :

— بل نسألك فتجيب .

وكان لعابه قد تجمع فى ركن فمه فمد يدا مرتعشة يمسحه ويقـول :

— اسألوا

ولكن عيون تلاميذه لمحت المنديل يسـقط من بين أصابعه وتنبعث منه شهقة . وفجأة رأوا رأسه ينزلق الى الوسادة فى اعياء على حين راح بدنه يهتز فى عنف ، وبدا فى ضوء القنديل الشاحب عودا ذابلا تريد رياح الخريف أن تكسره .

ولأول مرة تخبو عيناه ، وارتفعت يداه ليرتفع معهما صوته قائلا :

— يا أحمد .

كان ينادى على ابن أخته ، فوثب هذا اليه فقال له :

— هذه الكتب ...

وتوقف ، فقد أخذت الغرفة تدور به والفراش يميد ، وخيل اليه أن الجدران توشك أن تنقض عليه ، وهنا قال بعض تلاميذه :

— سلمت يا أبا سعيد .

وفى هذه اللحظة عاد صوته يزحف من فمه متثاقلا :

— هذا .. هذه الكتب اقرأها لهم !

وأطبق جفونه بعض الوقت ثم فتحها ، فاذا دمعتان تحاران بين أن تنحدرا أو تجمدا ، وهمس فى حشرجة :

— أأطفأتم القنديل ؟ اقترب يا أحمد ..

ووضع أحمد أذنه عند فم خاله ، فأحس الجميع بالأرض تغور . لقد زحف الموت الى عروقهم فبردت منهم الأطراف ، وعلقت بحلوقهم الغصص ، على حين ارتفع صوت أحمد يقول :

— تكلم .. لا لن تموت ، أبا سعيد .

غير أن شفتى الأصمعى كانتا قد أطبقتا الى الأبد ، وظلت عيناه مفتوحتين ولكن جسمه كان هامدا .

* * *

كان ذلك فى ليلة من ليالى عام ٢١٧ هـ . وفى الصباح كانت البصرة كلها تتناقل الخبر المحزن . لقد مات مفخرة العرب ، ومعجزة العلم ، وخرج الجميع يشيعونه ، وقد اندس بين محبيه بعض شانئيه . منهم أبو قلابة وكان ينشد لأحد أصدقائه همسا :

لعن الله أعظما حملوها ... نحو دار البلى على خشبات

أعظما تكره النبى وآل الـ ... ـبيت الطيبين والطيبات

وفى جانب آخر كان ثمة شاعر يردد أبياتا أخرى تقول :

لا در در نبات الأرض اذ فجعت

بالأصمعى فقد أبقت لنا أسفا

عش ما بدا لك فى الدنيا فلست ترى
فى النـاس منـه ولا من علمه خلفا

والنعش محمـول على الأكتاف بين الحسرات والتفجع ، ودموع ابن أخيه وهتافه :

— انا لله وانا اليه من الراجعين .

حتى اذا وصلوا الى جبانة بنى أصمع كان النحيب يرتفع الى عنان السماء ، وهنالك أودع الجثمان قبره وصلى عليه الامام الفضل بن اسحاق العباسى . وان هى الا أيام حتى راح القـوم يتناقلون أبياتا لمحمد بن أبى العتاهية يقول فيها :

أسفت لفقد الأصمعى لقـد مضى
حميدا له فى كل صالحة سـهم
تقضت بشاشات المجالس بعـده
وودعنا اذ ودع الأنس والعـلم
وقد كان نجم العلم فينا حيـاته
فلمـا انقضت أيامه أفل النجـم

* * *

وفى أحد الأيام دعا الخصيب بن أسلم أبا نصر أحمد بن حاتم الباهلى الى أصبهان ليفيد مما عنده من كتب الأصمعى ، فنقل أحمد مصنفات خاله الى تلك المدينة . حتى اذا عزم على الحج حار أين يحفظ تلك المصنفات ، ثم اهتدى الى أحد المشتغلين بالعلم واسمه عبد الله بن الحسن ، فجعلها عنده ، وسافر .

وكان سفره ايذانا بشىء لا يريده . فقد أقدم محمد بن عبد الله

ابن الحسن على استنساخ المصنفات جميعا ، فلما عاد أبو نصر وعلم بما تم وبضياع بعض الأصول أبرق وأرعد ؛ فجمع له عبد الله عشرة آلاف درهم من أهل البلد ، ووصله الخصيب بعشرين ألفا أخرى !

وهكذا هان الرجل الذى وهب حيـاته كلها للعلم ، ولكن دوران آرائه فى كتب خلفه ونقل أجزاء مصنفاته الى تآليف العلماء الذين أتوا من بعده واستشهاد الكبار منهم بآرائه فى اللغة والتاريخ والنحو والبلدان والشعر .. كل أولئك كان تقديرا لم ينله الا قلة، وسنظل نقرأ للأصمعي فى الأثبات ، ويلقن الناهضون بأعباء الأدب أن أبا عبيد القاسم بن سلام مثلا « أخذ كتب الأصمعى فبوب ما فيها ، وأن أبا حاتم يروى فحولة الشعراء عنه ، وأن الجاحظ الذى حمل عليه وهو حى وميت ينقل عنه عشرات بل مئات من الروايات .

ثبت المراجع

يجد القارىء فيهذا الثبت اشهر المراجع مقدمة بكل ما يعين على الانتفاع بها ، فثمة الطبعة والجزء والصفحة ، وثمة محاولة ترتيبها بحسب اسماء الشهرة لمؤلفيها ٠

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (المنيرية سنة ١٣٥٧) : ٨٠ـ١١٨

(٢) احمد كمال زكى : الحياة الأدبية فى البصرة (دار الفكر بدمشق سنة ١٩٦١) ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ؛ ٥٤ ؛ ٥٥ ؛ ٧٩ ؛ ٨٧ ؛ ١٤٩ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ؛ ٢٢١ ٢٢٦ ؛ ٢٣٤ ؛ ٢٨٢ ، ٣٢٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ؛ ٤٥٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٩ ، ٤٧٨ ، ٤٨٣ ؛ ٤٨٦ ؛ ٥٠٠ ؛ ٥ ، ٦٠٠

(٣) الأصمعى : الأصمعيات (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٥) ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٨ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ٢٤١ ؛ ٢٦٨

الخيل (طبعة فينا سنة ١٨٨٨) ٠

فحولة الشعراء (المنيرية بالأزهر سنة ١٩٥٤) ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ؛ ١٦ ، ٢٧ ؛ ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٥٤ وما بعدها ؛ ٦٧ وما بعدها ٠

النبات والشجر (طبعة بيروت سنة ١٨٩٨) ٥ ، ٦ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٥ ٠

(٤) ابن الأنبارى : نزهة الالبا فى طبقات الأدبا (ط . مصر سنة ١٢٩٤) ٣١ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ؛ ٧٣ ؛ ٧٤ ؛ ١٣٩ ـ ١٤٥ ، ١٥٠ ـ ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ؛ ٢٢٩ ـ ٢٣٢ ، ٢٦٢

(٥) الجاحظ : البخـــلاء (الكاتب المصرى سنة ١٩٤٨) ٤٥ ، ٤٦ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ؛ ١٩٧ ؛ ٢٦٤ ؛ ٢٧٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣٣٣ ؛ ٣٧١ .

البيان والتبيين (التجارية سنة سنة ١٩٤٧) ١ : ٥٤ ، ٨٠ ، ١٢١ ، ٢٠٨ ، ٢٤٥ ، ٣٣٣ ، ٢ : ٣٦ ، ٩٧ ، ١١٨ ، ١٦٣ ، ٢٠٨ ، ٢٧٣ ، ٢٩١ ، ٣١٥ ، ٣٣٠ ، ٣ : ٥ ، ٣٤ ، ٧٩ ٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٨٦ ، ٣٢٦ ، ٣٦١

(٦) ابن الجراح : الورقة (طبعة المعارف ١٩٥٣) ٢٩ ـ ٣٢ ، ٦٠

(٧) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب (طبعة المعارف ١٩٦٢) ٢٤٥ وما بعدها

(٨) الحصرى : زهر الآداب (ط . القاهرة سنة ١٢٩٣) ١ : ١٢٦ ، ١٥٩ ، ٢٩٠ ، ٣٨٦ ، ٢ : ٢ ، ٢٨ ، ١٩٨

(٩) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد (طبعة القاهرة ١٣٤٩) ١:٧٠ ـ ١١٧ ، ٣٢٧ وما بعدها ، ١٠ : ٤١٠ ـ ٤٢٠

(١٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان (النهضـــة المصرية سنة ١٩٤٨) ٢ : ٣٤٤ ـ ٣٤٩

(١١) ابن سلام الجمحى:طبقات فحول الشعراء (المعارف سنة ١٩٥٢) ٨ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ٢٠٤ ، ٥٧٢

(١٢) السيوطى : المزهر (ط • الحلبى سنة ١٩٥٨) ١ : ١٦٧ ، ٢ :
٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٢٢ ، ٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ،
٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨

(١٣) السيرافى : أخبار النحويين البصريين (ط • الحلبى ١٩٥٥) ٢٣،
٢٨ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٥ ـ ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٧٠

(١٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (المطبعة الحسينية)
٩ : ٩٨ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ـ ١٥٦ ، ١٦٢ ،
١٦٧ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ١٠ : ٤٢ ، ٥٤ ،
٦٢ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٩٥ ـ ١٠٠ ، ١٠٩ ، ٣٤٢ ، ٣٦٤ ـ ٣٦٦ •

(١٥) ابن طيفور : تاريخ بغداد (ليبزج سنة ١٩٠٨) الجزء السادس
فى أكثر مواضعه •

(١٦) أبو الطيب اللغوى : مراتب النحويين (نهضة مصر سنة ١٩٥٥)
٢٢ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٦ ـ ٦٥ ـ ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٢

(١٧) عبد الجبار الجومرد : الأصمعى (دار الكشاف ببيروت سنة ١٩٥٥)
٥٨ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٣٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ،
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧

(١٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر
سنة ١٩٥٣) الأجزاء الستة فى أكثر المواضع من كل جزء •

(١٩) عبد العزيز الدورى : العصر العباسى الأول (دار المعلين العالية
ببغداد سنة ١٩٤٥) ١٣٣ وما بعدها •

(٢٠) أبو على القالى : الأمالى (دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦) ١ : ١١٧
١١٨ ، ١٥٦ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٦٧ ، ٢ ، ٨ ، ٢٤ ، ٤٨ ، ٣ :
١٨٧ ، ٢٨٢ ، ٤ : ١٢٦

(٢١) أبو الفدا عماد الدين اسماعيل : تاريخه (طبعة بولاق ١٢٨٠) ٢ : ٢ ـ ٣٣
(٢٢) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني (طبعة ساسى الأجزاء العشرون فى أكثر المواضع .
(٢٣) ابن قتيبة : المعارف (بتحقيق ثروت عكاشة) ٣٨١ ـ ٣٨٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٩٩ ، ٥٤٣ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، .
الامامة والسياسة (ط . الحلبى سنة ١٩٥٧) ٢ : ٩٨ وما بعدها ، ١١٩ ، ٢٠٢
(٢٤) القفطى جمال الدين أبو الحسن : انباه الرواة على انباه النحاة (دار الكتب سنة ١٩٥٢) ٢ : ١٩٧ ـ ٢٠٥ .
(٢٥) القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة انساب العرب (الشركة العربية سنة ١٩٥٩) ٤٠ ، ٤١ ، ١٧٠ وما بعدها .
(٢٦) المسعودى : التنبيه والاشراف (القاهرة ١٩٣٨) فى مواضع كثيرة .
(٢٧) ابن النديم : الفهرست (المكتبة التجارية) ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦
(٢٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء (مطبعة هندية بالموسكى سنة ١٩٢٣) ١ : ١٩ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٨٦ ، ٢ : ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤، ٤٢٧ ، ٣ : ٤ ، ٥ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٣ ، ٤ : ١٧٩ ، ١٨١ ، ٢١٧ ، ٢٣٩ ، ٢٢٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٨ ، ٢٨٥ ، ١٨٨ ، ٥ : ١٤ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥ : ٥٧ ، ١٣٨، ٦ : ٦٥ ، ٨١ ، ٨٦ وما بعدها

الفهـــرس

صفحة

الباب الثانى

فى بغـداد

١٧١ ـ ٢٦٨

صفحة

الباب الثالث

العودة الى البصرة

٢٦٩ ـ ٣٢٢

